أنيس منصور

التاريخ أنياب وأظافر

دار الشروق

التاريخ أنياب وأظافر!

الطبعة الثانية
١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق
القاهرة . ١٦ شارع جواد حسني هاتف ٥١٢١٤ برقيا شروق القاهرة
بيروت : ص . ب . ٨٠٦٤ هاتف . ٣١٥٨٥٩ برقيا . داشروق

أنيس منصور

التاريخ أنياب وأظافر!

دار الشروق

في هذا الكتاب

	صفحة
هذه الحيوانات آلهة مال عليها الزمان	٥
كالحيوانات يموتون كما يولدون فى الظلام	١٥
علمته وتعلمنا هذه الحيوانات	٢٦
وراء جنكيز خان ربع مايون حصان	٢٦
خنازير كولمبوس ملأت العالم الجديد	٤٩
كل عصر له خرافات خاصة	٥٦
ذهب كل أرض تدوسها الأغنام	٦٥
اكاديمية لتعليم الانسان	٧٤
من يعرف الانسان كثيرا يحترم الحيوان اكثر	٨٥
هو يسقط والرئيس يطير	٩٦
لو نام الأرنب قليلا لأدركته السلحفاة	١٠٥
نظرية التطور رد لاعتبار الحيوان	١١٦
خلقها الله بعناية لتقضى علينا باتقان	١٢٥
هذه الكائنات التافهة التى حطمت الجيوش	١٣٤
لا وفاء عند الناس والكلاب نظرية	١٤٣
عندما أعلن موسولينى حرب الأبقار ضد الأغنام	١٥٢
شجرة واحدة تكفى هزها وانت تعرف	١٦٣
قرود فى كل مكان	١٧٢
من قاوب الأمهات خرجت موسيقى الخنافس	١٩٣
القرد والسلسلة والقرداتى	٢٠٤
لولا سلامك .. سبق كلامك	٢١٥

هذه الحيوانات

التى مال عليها الزمن !

هـــذا نوع آخر من التاريخ . انه مجموعة عظام . اى ان الحيوانات التى كانت تعيش من ملايين الســـنين قد ماتت فى ظروف لا نعرفها . وتركت بقـــاياها . وجاء العلم الحـــديث فجعل العظام فحما . ثم درس الفحم وحلله وراح يعد ذراته ليعرف كم واحـــدة من هـــذه الذرات قد ماتت .. وعن طريق الذرات الباقية يعرف عمر هذه الحيوانات .

ويمكن أن يقال أن التاريخ : كومة تراب وجدها أحد العلماء فى أحد الكهوف . ففى الكهوف جاء الانسان القديم وامسك غصن شجرة وغمسه فى الدم ثم رسم على الجدران صـــورا لهذه الحيوانات .. وجاءت الأجهزة الحديثة واستخرجت من الدم شهادة ميلاد الانسان وشهادة دفن هذه الحيوانات .

وجاء الانسان مرة أخرى وجمع التراب والعظم ونظم منها معانى جديدة لكل ما حدث .. فالتاريخ عمل انشـــائى .. أو موضـــوع انشاء .. ففيه الكثير من الكذب الجميل .

فالتاريخ هو دكان سمك .. او حظيرة أبقار .. لأنه تاريخ الحيوان على هذه الأرض .. ولكن هذا التاريخ لهذه الحيوانات وبهذا المعنى ظلم لها جميعا . لأن الحيوانات قد قاومت ملايين السنين . واكتسبت تجارب وتصلبت ضلوعها وارجلها وارتفعت أعناقها ونبت لها الريش والزعانف وقاومت قوى الطبيعة . وقاومت الانسان .. واستطاعت أن تبقى أكثر تنوعا وأكبر عددا واطول عمرا .. وسوف تنتهى الحياة الانسانية على هذه الأرض أو تنتقل الى كواكب أخرى . ولكن الحيوانات هى التى سترث الأرض وما عليها .

فكل الحيوانات التى تعيش الآن واضعف من الانسان كانت آلهة . عبدها الانسان وتلمس بركتها . واقام لها المعابد واشعل من اجلها الحروب .

وفى الكهوف والمعابد القديمة آثار باقية تدل على هذا التقديس العظيم للكلاب والقطط والطيور والثعابين والحيوانات الاخرى . فكأن هذه الحيوانات كانت فوق ، على العين والراس ، ثم أصبحت تحت أحذية الانسان .. كانت آلهة فأصبحت عبيدا يسوقها ويذبحها. أو يحبسها ويتفرج عليها .. ان كل هذه الحيوانات آلهة مال عليها الزمن !

عبدها الانسان .. ثم طاردها . وقتلها . ثم طاردها وصادها . وحاول أن يستأنسها . وتحقق له ذلك ورباها ليذبحها ويأكلها . ثم استخدم بعض هذه الحيوانات فى جر العربات وجر عربات التاريخ من قارة الى قارة ، ومن مرحلة الى مرحلة .. ففى السنة التى ولد فيها الرسول عليه السلام هاجمت الفيلة الكعبة . وكان ذلك عاما حاسما .. وسمى عام الفيل ..

والقائد هانيبال زحف الى أوربا وأثار فيها الرعب وانسحبت امامه كل قواتها لانه استخدم الفيل لاول مرة ..

والخيول دخلت مصر مع الهكسوس .. وبدخول الخيول مصر تغير وجه التاريخ .. وتغيرت معالم المعابد وجدرانها .

وحيوانات أخرى غيرها اشتركت فى ملحمة الحياة والصبر عليها والصمود من اجل ما هو افضل لها ولصغارها .

وتاريخ الانســـان والحيوان هو ملحمة العذاب من أجل البقاء . انها معارك الصداقة والعداوة . معارك الســيادة .. وكان من الطبيعى أن يسود الانسان بعقله . وقد سجل ذلك كله فى أغانيه وأعماله الفنية وفى أساطيره ..

والبداية قديمة جداً . فالحياة بدأت على هذه الأرض من ثلاثة آلاف مليون سنة . وكان شـــكل الحياة بسيطا بدائيا . عبارة عن خلية حية . هذه الخلية ظهرت فى الماء . والحياة على الأرض كلها خرجت من الماء . القرآن الكريم يقول : « وجعلنا من الماء كل شىء حى » . فقد كانت الأرض ملتهبة أول الأمر . وأخذت تبرد فى ملايين السنين . وتتكون من حولها السحب . ومن هذه السحب التى بها كل عناصر الحياة : الهيدروجين والاوكسيجين وثانى أوكســـيد الكربون ومن ورائها ومن حولها الاشعة فوق البنفسجية التى تفيض من الشمس خرجت الحياة . أو كان « الجو » أو « البيئة » أو « الحضانة » التى لابد أن تخرج منها الحياة . وخرجت وكان ذلك فى الماء .

ومضت ملايين أخرى من السنين عندما انحسر المـــاء وأصبحت هناك محيطات وشواطىء من الوحل . والوحل هو الماء والطين معا . او هو « الحل الوسط » بين البر والبحر ومضت ألوف السنين لتتعقد

الحياة ويكون لها شكل . وتنتقل هذه الكائنات من البحر الى البر . وتعيش هنا وهناك . وما تزال فى المحيطات كائنات غريبةعجيبة. هذه الكائنات هى سلالات مستمرة من مئات ملايين السنين .

وتوجد بعض الآثار فى شمال امريكا وشمال أوربا تشير الى هذا النوع من الحياة التى ظهرت فى البحر وتسللت الى البر ثم عادت الى البحر . .

وفى الصراع المستمر من أجل البقاء تدرعت بعض الكائنات البحرية بالعظام والأنياب حتى لا تفنى . وتطورت الأشكال العظمية وانيابها وازدادت مرونة . بل أننا نجد بعض الكائنات البحرية أصبح لها فك اكثر مرونة . واقدر على أن يمسك وان يعض . وهذه خطوة هائلة فى تطور الكائنات البحرية .. او الأسماك .. ولا تزال بعض الأسماك محبوسة فى اقفاصها العظيمة . وهذه الأقفاص سجل تاريخى لما كانت عليه هذه الحيوانات من مئات ملايين السنين .

وفى الوقت الذى ظهرت فيه الأسماك فى البحر ، ظهرت الأعشاب على الشاطىء .. والشجيرات والأشجار الكثيفة .. وانتقلت الأسماك من البحر الى الشاطىء . وليس هذا الانتقال قصيرا كهذه العبارة . ولكنه طويل بملايين السنين . واهم ما حدث : هو أن هذه الحيوانات استطاعت أن تتنفس الهواء مباشرة — أى هواء الجو وليس الموجود فى الماء !

ومنذ ٣٠٠ مليون سنة حدث ارتفاع فى درجة حرارة الأرض . فذابت المساحات الهائلة من الجليد .وحدث طوفان . غرقت الأرض. وزحف البحر على الأرض . فكان كل شىء بحرا . وغرقت معظم الغابات وتراكم بعضها فوق بعض.ومضت الوف السنين . وانحسر الماء الساخن . أو الماء الذى يغلى . والذى جف . واحترق كل شىء

على الأرض . وتحولت الأشجار المحترقة الى فحم .. الى مناجم الفحم التى تستخدمها الحضارة الصناعية وقودا منذ مائتى عام ..

ولم تنعدم الحياة على الأرض .. بل كانت هذه الحياة قد اكتسبت تجارب جديدة ، واتخذت لها اشكالا متنوعة . وتعلمت الحشرات أن تطير من الأرض الى الشجر . ومن الشجر الى الشجر . بعض الأسماك كانت تطير أيضا . ولا يزال بعضها يرتفع من الماء الى الشاطىء . أو من البحر الى النهر . أو من النهر الى البحر .. وبعضها له زعانف كالأجنحة تماما .. أو هى أجنحة .

واجتهد العلماء فى تفسير ما حدث لهذه الحيوانات ، ذهابا وايابا من البر الى البحر .

ففى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وعلى أيام نابليون تصور العلماء أن تطور الحياة يشبه التطورات السياسية . ففى أيام نابليون كانت عروش تقام وعروش تنهار . وحدود يمحوها الانسان، وحدود جديدة يضيفها الانسان .. وتصور العلماء أن الحياة كانت على شكل ما ثم حدث ما غير هذا الشكل بعنف .. ومعنى ذلك أن تطور الحياة ، كالتطورات السياسية ، هزات عنيفة وانتكاسات وثورات . فتاريخ الحياة ينتقل من عنف الى عنف .

وظهرت نظرية تقول ان الزواحف أطول عمرا . لان الزواحف تخرج من الماء الى البر . وتعود الى الماء . وان هذه المرونة واتساع مجال الحركة والحياة قد أعطاها فرصا اكبر للبقاء لانها تضع بيضها على الشاطىء بعيدا عن الزواحف أو الاسماك المفترسة .

ويظل البيض على الشاطىء أو فى الطين حتى تخرج الصغار من البيضة . واذا كان البيض يحمى الصغار حتى تخرج ، فبعد خروجها تفتقر هذه الحيوانات الصغيرة الى الحماية مرة اخرى . من مشاكل التماسيح الآن فى بحيرات أواسط أفريقيا أنها تضـــع بيضها على الشاطىء وعندما تخرج التماسيح الصـــغيرة من البيض تعاجلها القردة بقتلها . . أو أن القرود تحطم البيض قبل أن يفقس . . ولذلك فالقرود خطر على هذه التماسيح !

وظهرت حيوانات ضخمة . هذه الحيوانات الضخمة كانت قادرة على أن تقاوم الحيوانات الصغيرة . ولكن هذه الحيوانات قضت على نفسها أيضا . فضخامة حجمها جعلتها أثقل حركة . وجعلتها اقل مرونة . وجعلتها اذا وقعت لا تقوم . واذا قامت تنحشر بين الأشجار أو بين الجبال . وتظل كذلك حتى تموت . . فالعلم الحديث كشف لنا عن عدد من فصائل الديناصور الهائل قد حبسها أحد الوديان حتى ماتت . . مع أن اصغر حيوان يستطيع أن يتسلق الأحجار وان يصعد الجبل ومنه الى الوادى او الكهف يستأنف حياته من جديد . فضخامة الأجسام آفة هذه الحيوانات . . فالكبير عاجز عن الشىء الصغير الذى ينقذه من الموت أو من الفناء ! وقد فنيت هذه الكائنات الكبيرة، لانها كبيرة . والفيل والنمر خير دليل على ذلك . الفيل أكبر واقوى. ولكنه اقل حركة . ولذلك كان « مجاله الحيوى » ضـــيقا . . اى المساحة التى يستطيع أن يتحرك فيها أضيق من المساحة التى يتحرك فيها النمر ، فانقرضت فيلة كثيرة جـــدا ، وبقيت تنمور أكثر . . فالقوة ليست العضلات ، ولكنها القدرة على مواجهة المشاكل والافلات منها ، بالدوران حولها أو عدم التعرض لها ، أو بالقضاء عليها ــ أنظر الى حياتك وتذكر مواقف معينة ثم تساءل كيف هزمتك أو كيف قهرتهـــا ؟ مع فارق واحـــد : ان لديك عقـــلا ، ولدى

الحيوانات مخالب وأنياب . وانها بأنيابها وأظلافها وأظافرها نقشت تاريخهـا على أنقاضها وانقاضنا . وبقيت وبقينا ولكننا أقـدر وأفضـل !

ولابد من لفت نظر هنا والان وبسرعة :

حتى لا نتصور ان الحياة أخرجت نفسها من الماء الى الأرض ، وزحف وطارت وقامت وقاومت من تلقاء نفسها ، يجب الا ننسى أن هناك « ارادة عاقلة » .. أن هناك « حكمة واعيـة » أو « عقـلا كونيا » يعنى : الله ..

فنحن لا نقول مثلا ان فندق شيراتون عبارة عن مجموعة من قوالب الطوب .. أو مجموعة من الألواح الزجاجية أو الخشبية .. مع أن هذا الفندق مجموعة قوالب وألواح وأسلاك . ولكن الفندق ليس كومة من المواد المختلفة . وانما هو شكل هندسى معمارى . هذا الشكل هو مجموعة قوانين ونظريات فى العمارة والكهرباء والميكانيكا والاقتصاد والسياسة ايضا . أنه صورة عقلية . صورة حكيمة . اى أن هناك عقلا أو اكثر من عقل جعل الطوب غرفا والألواح نوافذ والأسـلاك كهرباء وتليفونات وتلغرافات .. ثم هناك قواعد وقوانين تربط بين الموظفين والزبائن .. والذى يحدث فى فندق حدث فى ألوف الملايين من الكائنات عندما تحولت من خلايا الى كائنات حية .. الى كائنات متطورة .. الى زحف عنيف نحو الحيـاة والبقاء رغم كل الظروف الطبيعية والانسانية المضادة ..

هناك ــ اذن ــ حكمة الحياة .. التى هى ارادة هذا الكون..

ارادة الله . التى لا نعرف منها الا القليل . لان وسائل المعرفة صغيرة فوسيلتنا هى العقل . والعقل ما يزال عاجزا عن الكثير جدا (الف مرة جدا) مما فى هذا الكون .. مما فى هذه الأرض .. أو مما فى هذا الجسم الانسانى أو الحيوانى .. أو فى هـذه الخلية الحية فى حيوان أو انسان أو نبات ! ـــ انتهى لفت النظر !

والنقوش فى الكهوف تصور الحيوانات على جدرانها . الحيوانات تجرى . بعض هذه الحيوانات تنزف دما . اذن لقد صورها الانسان وهو يطاردها . لانه أقوى منها . وهو يصورها دامية استعراضا لقوته . فالدم اذا نزف يدل على انه قتلها . وانه لا يخافها . وانما يغريه ذلك بأن يكرر ذلك مرة والف مرة . ونحن لا نعرف بالضبط أن كان الانسان قد استأنس الحيوانات أولا ، ثم أكلها ، أو انه اكلها قبل أن يستأنسها . على كل حال بعض النقوش تصور لنا هذه الحيوانات هادئة ساكنة ، كأنها رضيت بحكم انسان عليها . وحكمه عليها انه حبسها واذلها أو ذللها حتى أصبحت ذيلا له .. مثل كلبه تماما . والانسان كان يستخدم الكلب فى الصيد . ومعنى هذا انه استأنس الكلب ثم أطلقه على الحيوانات . فالكلب هو أول حيوان استأنسه الانسان . وعندما عرف الانسان كيف يستأنس هذه الحيوانات ، عرف أيضا ان يبنى الأسوار لتحمى الحيوانات وراءها . وكانت الأسوار من الأشجار ثم من الاحجار وعرف الحبال التى يمسك بها الحيوانات .. ولابد أن تلتف الحبال حول أرجل أو أعناق الحيوانات.

ولا يمكن أن تلتف الحبال دون أن يعرف الانسان كيف يصنع من الحبل « عقدة » . وعندما اهتدى الانسان الى « العقدة » كان قد

اكتشف شيئا عظيماجدا . فهذه العقدة كانت رابطة للخيوط والانسجة والحبال . وقد تبدو العقدة عملا تافها . وهى بالفعل كذلك الآن . ولكن من مئات الالوف من السنين كانت اكتشافا لا يقل عن اختزان الكهرباء فى البطاريات الجافة فى السيارات والبطاريات والراديوهات وسفن الفضاء !

وتدل الآثار التى عثر عليها العلماء فى البرازيل أن الهنود الحمر كانوا يحبسون الخنازير دون أن يعرفوا انها طعام يمكنهم أن يعيشوا عليه .. كل انسان كان « يقتنى » بعض الحيوانات لا لانها طعام ، ولكن لانها جميلة الشكل فقط . اى ان الانســـان كان يصيد الغزال والماعز والحصان لان لها شكلا جميلا . ومعنى ذلك ان‌الانسان كان فنانا محبا للجمال.وهذا الحب للجمال معناه أن لديه ما يأكله ، وان لديه ما يتفرج عليه .. والانسان لا يســتطيع أن يحقق الفائدة المادية واللذة الجمالية الا عن طريق القوة .. قوة الصيد وقدرته على حماية ما يصيده .. فاحتفاظه بهذه الحيوانات دليل على اقتداره ودليل على ذوقه .

وفى سنة ١٨٧٩ عثر الأب برويل فى أسبانيا على نقوش فى كهوف. هذه النقوش هى‌القوة والجمال . فالحيوانات منطلقة‌بسرعة هائلة. والانسان قد سجل هـــذه الحركة . فهو اقتناها وراقب حركتها . وتمتع بذلك . ثم انتقل من مجرد الاعجاب الى تسجيل ذلك.وجاءت ابنة هذا العالم ، وبالصدفة ، فدخلت احد الكهوف وراحت تصرخ بالأسبانية : توروس .. توروس .. اى ثيران . ولم يكن الذى رأته ثيرانا فقط وانما كانت هناك خيول أيضا . الوانها حية قوية جميلة . وكانت هذه الخيول والثيران تعيش على حدود أسبانيا وفرنسا من عشرين الف سنة .

وبعد ١٦ سنة عثر العلماء فى أنحاء متفرقة من الكرة الأرضية على نقوش مماثلة تسجل ما جرى فى العالم فى نفس الوقت .

ولابد ان فكرة « رأس المال » قد ظهرت فى هذا الوقت . لان كلمة « رأس » هذه قد جاءت من رؤوس الغزلان والأبقـــار والخيول . فالذى يملك عددا كبيرا منها هو الأغنى وهو الأقوى وهو القادر على صيدها والاحتفاظ بها وحمايتها واطعامها والتباهى بها . فهـــذه الحيوانـــات ثروة وقوة . ولا يزال رأس المـــال قوة . ولا تزال بعض القبائل البدائيـــة ترى فى كثرة الحيوانات مصـــدرا للقوة والسلطة . ولا يزال « المهر » هو عددا من الأغنام أو الأبقار . ان قطيعا منها هو استعراض واضح بارز متحرك لثروة الأب واهمية العروسين عند الأهل أو القبيلة ..

وبعد ذلك عرف الانسان أن الحيوانات ليست الا طعاما مدخرا .. طعاما يمشى على أربع .. والحيوان ليس الا حارســـا للحمه حتى يجىء الانسان فيقرر أن يذبحه ليأكله أو يذبحه ليبيع لحمه . أو يبيعه لغيره من الناس ..

والقصة طويلة ومتنوعة ومثيرة ومسلية وفيها الكثير من الاشارات والتلميحات الى الانسان نفسه كما سنرى .

واذا كانت الحيوانات يقتل بعضها البعض جوعا ، اى من أجل الطعام والبقاء بعد ذلك : فان الانســـان هو الحيوان الوحيد الذى يقتل الحيوان أو الانسان الآخر لاســـباب أخرى غير الجوع . وقد حاول الانسان أن يقنع نفسه بالعدول عن القتل . ولكن هذه المحاولات لم تنجح بعد ـــ مع أن حيـــوانات كثيرة قد عدلت عن ذلك من وقت طويل !



كالحيوانات يموتون كما يولدون فى الظلام!

الانسان حاول أن يفسر كل شىء حوله تفسيرا انسانيا . فهو ينظر الى سلوك الحيوانات كما ينظر الى سلوكه هو . فالحيوانات تخاف وتغضب . وتعيش حياة اجتماعية ولكل جماعة زعيم . وزعيم القطيع هو الذى يقودها يمينا وشمالا ..

واذا مات راس القطيع ارتبكت الجماعة حتى تجد لها راسا جديدا . والانسان قتل الحيوانات لياكلها او خوفا منها . ولذلك خاف الانسان من هذه الحيوانات أن تنتقم من الانسان .

وهذا الخوف من الانتقام هو الذى جعله يكف عن قتلها بالالوف . فالخوف من الانتقام يمكن أن يكون بداية ظهور فكرة الضمير عند الانسان . فالضمير يقول له : لا تفعل كذا حتى لا تصاب بكذا .

ولذلك وجدنا الانسان من مئات الالوف من السنين يعلن ان

بعض الحيوانات يجب الا يمسها بسوء .. او لا يمسها . فهى شيء ممنوع لمسه . فاللمس بمناسبة . ثم ان الانسان اتخذ من بعض الحيوانات رمزا له . أو علامة مقدسة . أو شيئا مقدسا يتلمس عنده البركة والوقاية من الحيوانات الاخرى ومن اعوانه من البشر .

وكثيرا ما أصيب الانسان بكل كوارث الدنيا ، ولكنه رغم ذلك لم يكفر بهذه الحيوانات المقدسة . تماما كالجندى الذى يحارب تحت العلم . ورغم ما أصابه من هزيمة فانه لا يمزق العلم . وانما يظل ممسكا به ايمانا منه بأن العلم هو شرفه وهو كرامته .. وانه لابد ان ينتصر مرة أخرى !

وظهرت عند الانسان فكرة أخرى تقول : انه بعد أن يموت فسوف يتحول الى حيوان .. أو ينتقل من جلده الانسانى الى جلود مئات الحيوانات . ويعتبر انتقاله الى أجسام الحيوانات الاخرى نوعا من الانتقام منه .. فحتى لا يكون حيوانا بعد وفاته ،فمن الأفضل الا يؤذى الحيوان بقتله أو أكله !

وربما كانت هذه الفكرة هى التى أدت فيما بعد الى أن يقال أن الانسان أصله حيوان .. وانه ينتقل من الحيوانية الى الانسانية ومنها الى الحيوانية مرة أخرى — وهذه هى « الدائرة الحيوانية » التى يتحرك فيها الانسان حيا وميتا .

وعند الفراعنة كانوا يرون أن الانسان يتحول الى حيوان بعد موته . وبعد أن يبقى حيوانا ثلاثة آلاف سنة يعود انسانا مرة أخرى . وبعد فترة قصيرة يعود من الانسانية الى الحيوانية من جديد .. والمصريون القدماء يرون ان كل شيء ثابت الا الانسان ..

فالنيل له مواعيد للفيضـــان ، والشمس تشرق وتغرب .. والقمر يصغر ويكبر .. كل ذلك فى مواعيد ثابتة .. الا الانسان فان حياته متغيرة متبدلة .. وهذا التبدل أهم مظاهره : ان ينتقل الانسان من جسم الانسان الى جســم الحيوان . وهذا الانتقال بالروح . فهذه أولى نظريات تناسخ الأرواح . وهذه النظرية قد انتشرت لاسباب غير واضحة لنا الآن ، فى الشرق والمغرب . وفى القرن السادس قبل الميلاد . فمثلا عند الفيلسوف اليونانى فيثاغورس ، وعند تلامذته من بعده . وعند الراهب الكبير بوذا فى الهند والصين . ولكن بوذا كان حريصا أن يؤكد لتلامذته أن كلامه عن الحيوانات ليس الا رمزا .وانه استخدم الحيوانات فى نصائحه لتجسيد أفكاره وجعلها واضحة عند اقل الناس قدرة على الفهم . ولكن تلاميذه أخذوا نصائحه حرفيا ..

يقول بوذا .. أيها الرهبـــان هنـــاك اناس كالحيوانات . او حيوانات يعيشون على الاعشـــاب . ايها الرهبـــان انها الخيول والاغنام والابقار والحمير وكل من يحب الطعام يرى ان الحياة هى الطعام ومن اجل الطعام هو هذه الحيوانات . واذا قدر له ان يعيش بعد الموت فانه سيكون حيوانا مرة اخرى .. ايها الرهبان هنـــاك حيوانات تأكل الزبالة مثل الكلاب والكتاكيت والخنازير . ان الزبالة تنعشها وتهبها الحياة . ولو ماتت لتمنت أن تعود الى الزبالة .. ايها الرهبان ان هناك اناسا هكذا . افهمونى . ايها الرهبان : أن هناك حيوانات ولدت فى الظلام وسوف تموت فى الظلام . النـــور يوجعها ويضللها ويفزعها . ان هـــذه الكائنـــات هى البراغيث والصراصـــير والخفافيش والبوم .. ان هنـــاك حيوانات ولدت فى الماء وماتت فيه كالاسماك والسلاحف والتماسيح . . ان الاشرار، ايها الرهبان ، هم الذين بعد موتهم يفضـــلون الحياة الدنيـــا انهم .. مشدودون اليها . انهم عاجزون عن الانســـلاخ عن الجســـد عن المادة عن الشهوة .. انهم حيوانات » .

والتمساح الذى وصفه هيرودوت بانه يملأ النيل . وان سكان العاصمة المصرية لا يعرفون طعم النوم بسبب بكاء التماسيح . وقد ظل العالم كله يتصور أن التمساح يملأ النيل حتى ان زعيما عالميا كبيرا سأل الرئيس عبد الناصر ان كانت التماسيح ما تزال فى مياه النيل عند القاهرة ؟ !

ولم يكن حيوانا مقدسا عند كل المصريين . فالناس فى «اسوان» كانوا لا يكنون له احتراما كافيا . كانوا يأكلونه . وقد جاء فى احدى الاغنيات المصرية القديمة أن واحدا يقول ما معناه : اقوم من النوم أقول يارب عدلها ، بلد حبيبى قصاد عينى ومش قادر أعدى لها .. وكان المصرى القديم يقول : بلد حبيبتى امام عينى ولكن لا استطيع أن اذهب الى حبيبتى . ان التماسيح فى المـاء ولكن حبى جعل التماسيح ضفادع .. ثم جعل الضفادع فقاقيع فى المـاء . ولا بد أن اذهب الى حبيبتى » .

وكان المصرى القديم أشجع واصدق واكثر استعدادا للتضحية . اما المصرى الجديد فهو قد افتعل صعوبة العبور الى حبيبته ليشكو . فهو قادر على أن يذهب الى حبيبته ــ ان كانت حبيبته ــ فلا مشاكل فى المواصلات ولا تماسيح فى النيل ..

وفى « كتاب الموتى » الفرعونى اجد كلاما كثيرا عن « القط » الذى يمزق الافاعى تحت الاشجار المقدسة . ومن الغريب اننا لا نجد رسوما كثيرة للقط فى المصاطب القديمة . وربما كان أول ذكر للقط قد جاء قبل الميلاد بعشرين قرنا عندما عرفنا ان زوجة أحد رجـال بلاط الملك منحوتب الاول اسمها « بوسى » . وان هذا القط جاء الى

مصر من الغرب ومن الجنوب . وهناك رسومات كاريكاتورية تبين الفنان المصرى وهو يتسلى او هو يحاول أن يجد الموعظةالاخلاقية. فهناك صور لجثث من الفئران تهاجم قطا محاصرا فى قلعة . وهناك فأر عملاق امام قط مربوط بالحبال !

أما الكلب فهو من اخلص الحيوانات للانسان ، ولذلك استحق منه عظيم الاحتقار . وقد جاء خطـــاب بعث به موظف مصرى قديم يعيش على اطراف الوادى : انه لا يكاد يفتح باب بيته حتى يتقـــدم له ٢٠٠ قط و ٣٠٠ كلب متوحش و ١٠٠ ذئب . كلها تقف امام بابه، فلا هو قادر على أن يخرج ولا هو قادر على أن يربى ماشيته ولا على أن يأكل .. أما النوم فهذه مشكلة المشاكل :

والحمار افريقى الأصل . وهو لا يزال فى مصر كما كان من آلاف السنين . والحمار كالكلب استحق احتقار الانسان ايضا . واول مرة رأينا فيها رسما لحمار كان هكذا : حماران احدهما يمشى وراء الآخر وامام الاثنين جحش صغير . وقد رأينا كرســـيا على ظهر الحمار الاول . ولم يشأ الرسام ان يبين لنا ما الذى يحمله الحمـــار الآخر .. ولكن لابد انه يحمل شيئا مماثلا .

ويقال ان المصريين وصفوا أحد ملوك فارس بأنه : ملك حمار . فما كان من الملك الفارسى ارتكسركس الثالث الا أن أقام احتفـــالا للعجل أبيس ، ووضع حمارا بدلا من هذا العجل وغضب المصريون وثاروا ! !

ويقال ان المصريين القدماء كادوا يحرقون مدينة الاسكندرية ذات

ويقال ان ايسوب هذا قد هاجم رجال الدين . ودبر له رجال الدين مكيدة . فعندما زار معبد الفن أفلح رجال الدين ان يضعوا كوبا من الذهب فى ملابسه . ثم ضبطوه وحوكم . وتقرر اعدامه قذفا من احدى الصخور ، فمات غريقا !

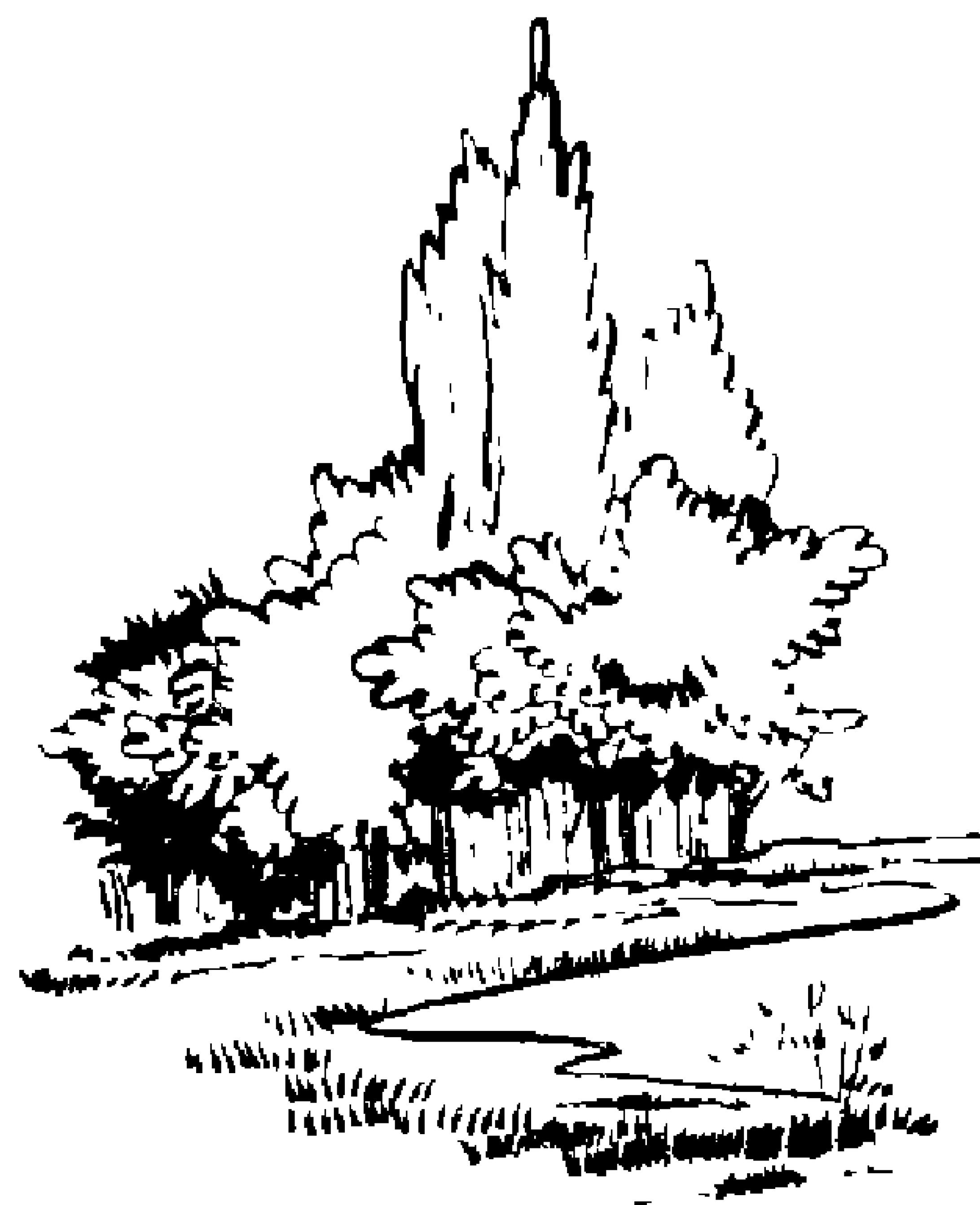
ــ وظل الانسان الوف السنين ينظر الى الحيوانات على أنها كائنات ناقصة التكوين ترى ولا تعرف كيف تعبر . أو اذا عبرت كان ذلك فى صمت . وراح الانسان يفسر سلوك هذه الحيوانات كما يفسر سلوكه هو . ولكن رجلا عبقريا فذا اسمه أرسطو هو الذى أرسى قواعد علوم بأكملها بعقله الجبار . فهو بدأ ينظر الى الحيوانات ويلاحظ سلوكها . ويقارن بين بعضها البعض .. فهو الذى ادرك أن حيوانات لها دم وحيوانات لا دم لها .. حيوانات لهـــا فقرات وحيوانات بلا فقرات .. حيوانات تلد وحيوانات تبيض .. وهو اول من اشار الى أن هناك علاقة بين بيض الدجاجة وبين الديك. وهذا يكفيه جدا أن يقول ذلك منذ ٢٥ قرنا . وقد احصى ارسطو فى كتابه « التاريخ الطبيعى » حوالى ٥٠٠ حيوان .

ويقال أن الاسكندر الاكبر هو الذى كان يبعث اليه بالحيوانات والنباتات العجيبة من كل مكان يذهب اليه . ولكن هذه الحيوانات مهما بلغ عددها لم تكن سببا كافيا لان يهتدى ارسطو الى هذه الحقائق الحيوية . لقد اخطأ ارسطو كثيرا فى الاستنتاج . ولكن هذه اخطاء تعتبر تافهة اذا قورنت باكتشافاته العظيمة فى علوم الحياة ووظائف الاعضاء . لقد اخطأ فى عدد الاسنان وعدد الضلوع وعدد الفقرات .. ولكن اشاراته الى الحياة فى بطن الام ، هى الخطوات الاولى الباهرة فى العلم الذى سوف يظهر بعد ذلك باسم « علم الاجنة » .

وعندما سئل ارسطو فى احدى المرات : ما الذى تفعله بالضبط مع هذه الحيوانات والنباتات ؟

قال : لا شيء . اننى فقط اعلمها كيف تنطق باللغة اليونانية لعلى افهم شيئا مما تقول . ولكنها مع ذلك لا تقول كثيرا !

سوف تقول اكثر فيما بعد !



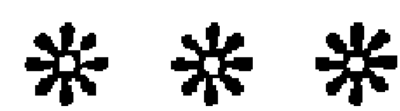
والطيور والأسماك ، والفقراء يلتقطون فتات الخبز . ومع بداية حرب الطبقات فى التاريخ ، اتخذت الحرب شكل الصراع بـــين الخبز واللحم .

ففى المدن الأغريقية القديمة ، كان لابد أن يجد الأغنياء وسيلة للحصول على اللحوم ، فزرعوا المراعى .. أو تركوا الحيوانات تأكل الأعشاب والغلال والأشجار ، ولم نجد فى الأدب الاغريقى القديم حديثا كثيرا عن الحيوانات ولحومها وطعامها وطعامهم .

ولكن عند الرومان نجد هذا التخصص فى الاستمتاع بالطعـــام ونقرأ نثرا وشعرا عن الخبز والقبلات واللحم .

(ومن المناسب هنا أن أنبه الى أننا الآن نتعلق من ذيل بقـــرة أو جاموسة أو كلب ونمشى معه أو وراءه فى تاريخ الانســـان .. فأنا وأنت معا نقرأ « بصمات » الحيوانات على عقل وقلب ومعدة ملايين الناس فى ألوف السنين — انتهى التنبيه الذى أضأته حتى لا تنسى ولا أنسى أنا أيضا عن أى شىء نتكلم منـــذ أسبوعين وفى الأسابيع التالية .

وهذا يذكرنى بما قاله داروين عندما وجدوه يجمع الأصداف وجذور النباتات وجماجم الحيوانات فقال : لا شىء سوى أننى أقفز من شجرة الى شجرة وراء قرد فيه شبه كبير جدا بالانسان) ! ..



نعود الى صورة غريبة لرجل عظيم مات منذ أكثر من عشرين قرنا . هذا الرجل اسمه « لوكولوس » . هـــذا الاسم يتردد فى كتب كثيرة فى التاريخ . ففى تاريخ المعارك كان قائدا عظيمـــا .

ذهب بقواته الى أرمينيا وهزمها . وسحقها ومات من جيشه خمسة من الضباط وجرح مائة جندى . جيشه كله كان ١٨ الفا. هذا الرجل عندما اتجه الى روما توقف عند احدى المدن الأرمنية وبكى ، فقد أحالها جنوده ترابا !

هذا الرجل أيضا كان يحب الكلام ، أو يحب الكلام أثناء الطعام. وهو أول من قال : ان الكلام يساعد على الهضم . وكان سابقا لعصره بعشرين قرنا . فالأطباء اليوم يرون أن الجلوس الى المائدة يجب أن يطول قدر استطاعتك فلم تعرف الانسانية قرحة المعدة الا عندما عرفت السندوتش . أى عندما عرفت الأكل أثناء المشى وأثناء القراءة وأثناء العمل وأثناء الفرجة على المسرح وعلى السينما وعلى التليفزيون .. ولم تعرف الانسانية أوجاع المصران الغليظ الا عندما عرفت الموائد الصغيرة فى المطاعم اذ يجلس الزبون وحده وقد أدار وجهه الى الحائط . وهو قد أدار وجهه الى الحائط لأنه مشغول بهمومه الخاصة . وهو — ككل أبناء المدن الكبرى — حريص على أن يكون مع همومه وحده .. وتتأكد له هذه الوحدة ، والقرحة أيضا !

* * *

وهذا الرجل أيضا عندما توفى حاول الناس أن يدفنوه فى احتفال ضخم . ولكنه قد سبقهم جميعا وأوصى بأن يموت على مزاجه . فطلب الى أقاربه أن يملأوا قبره بالتفاح وأن يتغطى به وبالورود!

وبعد وفاته جاء الصيادون وجمعوا من البحيرات التى أنشأها حول قصره ٢٥ ألف كيلو سمكا !

فانهم « يعقمونها » ويطعمونها لتزداد سمنة فيتكدس لحمها على موائد الأغنياء والقواد ..



يقول لوكولوس وهو يهذى على فراش الموت : يا خسارة لم تشأ الآلهة أن تجعل لى معدتين . لعلها أرادت الرفق بالفقراء وبالحيوانات وبالطيور وبالأسماك وبمعشوقاتى .. لو كانت الآلهة تجيب لى طلبا أخيرا فاعرف منها ما الذى سوف يأكله الناس فى بيتى وهم يبكون حزنا على فقد صديق ظريف كريم .. ثم ينسون هذا كله وهم يشربون النبيذ ويتفرجون على الراقصات .. أننى أعرف أن المائدة سوف ينقصها المرح وسوف ينقصها ذلك الرجل الضخم الذى كان زينة المجالس .. والذى ذاق كل شيء فى دنياه.. وحصل على كل ما يريد .. وحقق كل غاياته من الدنيا .. ولكن الآلهة بخلت عليه أن تكون له معدة أخرى .. ادفنونى .. ضعوا سكر القصب فى فمى .. بل لا أريد قصب السكر وانما أريد عسل النحل فأنا لست مريضا . وانما ميت من شدة الشبع واللذه .. انتهيت » !

وكان من عادة الرومان أن يعالجوا مرضاهم بقصب السكر الذى جاءهم من الهند . أما عسل النحل فهو المصدر الوحيد للسكر عندهم .. أو للحلاوة . وكان هذا طعام الشعب . وقد عرف الفراعنة فوائد العسل قبل أن تعرفه كل شعوب العالم. فالفراعنة كانوا يضعون العسل على الدمامل وعلى الجروح . وكانوا يضعونه فى العين . وكانوا يضعونه على البشرة ليجعلها ناعمة . وكانوا يحنطون به الموتى . ولم يكن الفراعنة يعرفون ما الذى سوف يكشفه العلم الحديث بعد ذلك من أن العسل قاتل لأى ميكروب . ولكن الفراعنة اهتدوا الى ذلك من التجربة .

وربما كان شمشون الجبار أول من لاحظ أن أسدا ميتا متعفنـــا ومع ذلك جاء النحل وأقام خلية فى هذا الجسد الكريه الرائحة . ومن هنا كانت الفزورة التى دوخ بها شمشون أبناء غزة عنـــدما قال : ما هو الحى فى الميت . وما هو الحلو فى المر ؟ ولم يعرف احـــد كيف يجيب على ذلك . ولكن دليـــلة راحت الى شمشون وأغرقته بالقبلات والأحضان . وعرفت تفسير هذا اللغز بعد أن قصت شعره ، الذى هو مصدر قوته ، قال لها : الحى فى الميت ، هو النحل فى جثمان الأسد الميت .. والحلو المر هو العسل فى جسمه المتعفن !

ومضت مئات السنين لنعرف أن عفونة جسم الأسد لا تنتقل الى طعم العسل . فالعسل قاتل لكل ميكروب !

وفى أمريكا نجد أن شركات كبرى تنقل النحل بالملايين من حديقة الى حديقة . ليقوم النحل بتلقيح الزهور . ثم تجمعه وتعيده الى مكانه .. وقد عرف الفراعنة ذلك من الوف السنين . فقـــد كان الفراعنة يأتون بملايين النحل فى احدى السفن . ويقفون عنـــد المدن ويتركون النحل ينطلق الى الحقول والحدائق ، يجمع رحيق الزهور ويلقحها .. ثم ينقلونه فى النيل الى أماكن أخرى وهكذا !

* * *

وعرف الاغريق والرومان والفراعنة ضرورة ذبـــح الحيوانات تقربا للآلهة . ولكن الرومان ذهبوا الى أبعد من ذلك . فـــكانوا لا يكتفون بتقديم الذبيح ، وانما يجىء الرجل العراف ويفتح بطن

الحيوان وينظر الى الأمعاء . ثم ينظر الى الـكبد . ومن شكل الأمعاء يعرف مستقبل صاحب الذبيحة . ومن حجم الكبد ولونها وشكلها يعرف كم يكون عمر صاحب هذا القربان . وكانت قراءة الأمعاء والكبد ، نوعا من قراءة الكف . ومن الغريب أن الرومان تفوقوا فى ذلك . بل ان أحد العرافين قال ليوليوس قيصر : اليوم اسوأ يوم فى حياتك . اجلس فى بيتـك سوف تجىء الأنباء تحت قدميك .. فلا ترفع سيفك على أحد .. ولكن غدا سوف تسمع اسعد نبأ فى حياتك ان شكل كبد الخنزير يؤكد ذلك . ولو كنت ذبحت الخنزير قبل هذا الثور لجاءت أخبارك السـعيدة أولا . وفى نفس اليوم تآمر بعض الرومان على اعز صديق ليوليوس قيصر نقتلوه وهو مخمور . وفى اليوم التالى أنجبت احدى عشيقاته طفلا ذكرا . وكان هو يتمنى ذلك !

ولا يزال بعض العرافين فى أفريقيا يعرفون الطالع من مجـرد النظر الى ريش الطيور وقد تراكم على الأرض .. أو عظام الطيور وقد القيت على الارض فجاء ثعلب او ذئب وقلب فيها بأرجله ولم يذقها .. ولا يزال العرافون فى هونج كونج يعرفون مستقبلك من قطعة اللحم النيئة الدامية اذا انت قلبتها فى طبق ثم هززت الطبق . وتركتها . من مجرد النظر الى وضعها فى الطبق وشكل الدم حولها يستطيع العراف ان يحدثك عن مستقبلك !

واهتدى الرومان الى ضرورة أن يشغلوا الشعب بشىء . وكان الشعب مشغولا بالخيول . وسـباق الخيول وسباق العربات .
واقام الرومان « مسارح » لسباق العربات .. واشهرها ملعب

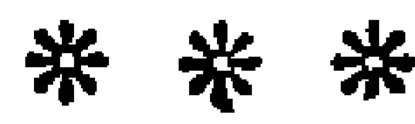
كولسيوم فى روما الذى يتسع لتسعين الف متفرج . وكانت العربات تجرها الخيول ويتفرج عليها الناس ويتعصبون لحصان معين .. او لأسرة معينة .. أو لسائق او لصاحب خيول . وكانت تربية الخيول هواية وتجارة الأغنياء . وقــد اقيمت للخيول اصطبلات واسعة وفخمة . واتى الأغنياء بمربين للخيول من آسيا .

وكان من المألوف أن يرتدى سائق العربة زيا احمر أو اخضر أو ازرق .. وينقسم الناس الى مشجعى الأحمر أو الأخضر أو الازرق واختفى اللون الأخضر . واصبح الناس فريقين مقامرين ويتقاتلون. وتحول الاختلافات على الخيول الى اختلاف فى السياسة وفى الدين. وكانت هذه الخلافات حادة واستهلكتهم وابعدتهم عن السياسة . واستراح الأباطرة الرومان الى أن هذه المسابقات قد استغرقت الناس فشجعوهم على ذلك .

ولكن حــدث ان قامت مظاهرات عنيفة فى القسطنطينية بين مشجعى « الفانلة الحمراء » ــ النطق الصحيح « فالنة » لأنها كلمة انجليزية وفرنسية وايطالية والمــانية ــ ومشجعى « الفانلة الزرقاء » . وقرر الامبراطور جوستنيان فى يناير سنة ٥٣٢ أن يعصف بهذا العبث الرياضى السياسى . وجمع فريقا من الطرفين. وهددهم . ولكن الجماهير تظاهرت والتفت حول قصر الامبراطور . وكاد يهرب من المدينة لولا ان زوجته الماكرة ثيودورا طلبت اليه ان يقول للجماهير شيئا . فقال اننى لا اعترض على الفريقين ولكننى أحب الفريق الأخضر الذى ليس له مشجعون !

وفرحت الجماهير بأنها أغلبيـــة والامبراطور اقليـــة .. وبأن الامبراطور أيضا يحب مسابقة الخيول !

ولكن ثيودورا ابنة رجل مشغول أيضا بتربية الخيول ومجنون بمشاهدتها .. ولكن جوستنيان انزل قواته وقتل ثلاثين الفا من مشجعى هذه الرياضة فى يوم واحد !



ولم يكتف الانسان الذى يريد أن يمزج اللذة بالألم ، والمتعــة بالقسوة من الفرجة على الخيول . وانما أتى بالحيوانات المتوحشة من افريقيا واطلقها بعضها على بعض . والنـــاس يصرخون من الفزع ومن اللذة . أطلق الأسود على النمور . وأطلق الذئاب على الكــلاب . ثم أطلق كل هــذه الحيــوانات على المجرمين وعلى المعارضين السياسيين . والناس يصرخون فى متعة ، أو يستمتعون فى صراخ . ويطلبون المزيد ..

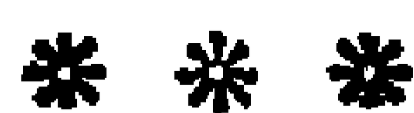
وأول مصارعة بين الانســـان والحيوان شـــهدتها روما كانت فى سنة ١٨٦ قبل الميلاد . وكان ذلك بعد غزو الرومان لسوريا . ولكن هذه الرياضة الدموية قد أتى بها الرومان من العراق . فقد كانت منتشرة قبل ذلك بمئات السنين .

والى جانب هذه اللذات العنيفة : ذبح الانسان للحيوان ، وذبح الحيوان للانسان ، عاد الرومان الى رياضات هادئة . عادوا الى

عربات الخيول ولكنهم علقوا فيها الجمال . الامبراطور نيرون اول من فعل ذلك . ثم عادوا الى الغزلان وعلقوها فى العربات . والنمور والأسود .. ثم الفيلة .

والاسكندر الأكبر قد شاهد الفيلة فى معاركه . وخصوصا فى الهند . ولاحظ الاسكندر ان الفيلة شكلها مخيف . ولكنها تعوق الحركة . ولذلك أمر جنوده بأن يحتموا فى الفيلة ويطلقوا سهامهم ونبالهم على العدو . ثم اهتدى الاسكندر الى حيلة وذلك بأن يجعل الفيلة فى مواجهة العدو ثم يكويها فتنطلق هائجة تمزق خطـوط عدوه وتأخذ معها فيلة اعدائه ايضا . وعدل عن استخدام الفيلة فى المعارك . واكتفى بأن جعلها تنقل الخيام . وكان له فيل مشهور أطلق عليه اسم « اجاكس » . ويقال ان هـذا الفيل كان يرفع الاسكندر من الأرض ليحيي جنوده ولم يكن يفعل ذلك لأحد سواه !

والقائد هانيبال عنـدما ارهب أوروبا بقواته كان يدفع امامه خمسين فيلا .. ولم يصل منها الى نهر الرون فى فرنسا سوى ثلاثين فيلا ولما عبر بها جبال الألب لم يبق منها سوى ثمانية .. وعندما هبط جبال الالب . لم يبق سوى فيل واحد .. ولكن الرومان كانوا قد استعدوا له ايضا بعـدد من الفيلة .. ثم عـدل الجميع عن استخدام الفيلة ونقلوها الى السرك للفرجة عليها ..



نعود لآخر مرة الى القائد الاكول لوكولوس . فقـد سئل فى احدى ولائمه وهو يقلب عينيه ويديه بين الطعام والشراب والثمار ويقول : نحن حقيقة اولاد حيوانات .. فالحيوانات تأكل النباتات

ونحن نأكل الحيوانات .. ثم نحن نموت فى الأرض وعلينـــا تنمو النباتات .. وسـوف يجىء يوم تأكلنا الحيوانات حتى نفنى ، فتعيش الحيوانات على النبات حتى تفنى فيأكل بعضها البعض ولا يبقى أحد فى هذه الدنيا .. لماذا ؟ لأن هناك معـــدة تأكل معـــدة أخرى .. والأرض هده هى أكبر معدة عرفناها !

وكان هــذا الرجل الذى اشتهر بأنه صاحب أكبر معــدة فى التاريخ ، سابقا لعصره ولكل الأطباء وعلماء الحيوان والنبــات والفلك ، لأنه لم يرفع عينه ولا يده عن هذه الحيوانات ؟ !



وراء جنكيزخان ربع مليون حصان !

لو جاء هؤلاء الوحوش سيرا على الاقدام لاستراحت منهم أوروبا مئات السنين — عبارة قالها مؤرخ أغريقى وهو يصف هجرة القبائل البدائية الآسيوية فى القرن الرابع الميلادى . فهذه القبائل قد تركت بلادها متجهة الى أوروبا غربا ، ومتجهة الى الجنوب . وليس معروفا بوضوح لماذا هاجرت هذه القبائل . ولكن المعروف انها قد ركبت الخيول فكانت حركاتها اسرع وأخطر .

وقد وصف المؤرخ الاغريقى هؤلاء الآسيويين بأن أشكالهم دميمة . وشعورهم منكوشة . وانهم لا يأكلون الا اللحم النيء وانهم لا يغسلون ايديهم أو وجوههم . ويرون فى منظر الدم دليلا على النعمة وعلى الثراء . ويعيب عليهم أنهم يحبون الذهب وأنهم من اجل الذهب يبيعون الابن والزوجة والحصان ، وربما كان هذا التقديس للذهب هو الشيء الوحيد الذى يربطهم ببقية الانسانية ! . .

وهى صورة كاريكاتورية . والحقيقة ان هذه القبائل الاسيوية راكبة الخيول ، عندها قدرات هائلة على القتال وعندها شجاعة . وعندها تراثها الفنى والادبى وطقوسها الدينية .. وهؤلاء « الوحوش » أكثر حضارة من « البرابرة » الاوربيين فى ذلك الوقت .

وبسبب هذه الخيول التى لديهم اقاموا امبراطوريتهم بسرعة وجعلوها واسعة أما هذه الخيول التى ركبوها واقاموا عليها قوتهم وعروشهم فهى متوسطة الحجم . صغيرة الرأس طويلة الشعر ، وظهورها سريعة الانحدار . وسيقانها قصيرة . ولا تحتاج هذه الخيول الى ماء كثير اذا سارت فى الصحراء . وهؤلاء « الوحوش » الآسيويون ككل الرعاة يعيشون على اللبن والنباتات والثمار ولا يأكلون اللحم . فاللحم هو الخيول . والخيول قوتهم فى القتال والهرب .

وفى ذلك الوقت سقطت الامبراطورية الرومانية القوية . لماذا ؟ يقال أن الخيول رفست هذه الامبراطورية فسقطت . وهذه عبارة مبالغ فيها الى حد كبير . فسقوط الامبراطورية كان لاسباب كثيرة . ولكن هذه الخيول الزاحفة بمئات الالوف قد عجلت بانهيار الامبراطورية الرومانية . لان هذه « القوات المحمولة » على اربع والقادمة من قلب آسيا هى التى هدمت الامبراطورية الرومانية . ولم يكن الرومان فى ذلك الوقت قادرون على مواجهة الزحف الاسيوى كما أن الرومان كانوا يجهلون او يتجاهلون قدرة الخيول ، والفرسان والفروسية . فالجيش الرومانى به فارس واحد لكل عشرين جنديا .. أو به حصان واحد ابيض يركبه القائد العام ! ولذلك فالجيوش الرومانية ابطأ فى الحركة وفى الهجوم وفى الانسحاب .

وقد وجدنا فى التاريخ ان الفرسان الجرمان يطلقون على أنفسهم كلمة « ريتر » ومعناها : راكب .. فراكب الحصان هو الفارس . وكان الرومان يسمون راكب الحصان « أكويس » — وهى كلمة

لاتينية معناها راكب . ولكن ليس كل من ركب الحصـــان فارسا . ولذلك كان الاسيويون « فرسانا » وكان الاوربيون « ركابا » فقط !

وفى أوربا فى ذلك الوقت كانوا يطلقون اسم الفارس على كل من يركب الحصان أو يملكه . ولم يكن يملك الخيول الا الاغنيـــاء أو النبلاء . وكان الرجل الحر هو الذى يركب الحصان . فهو يستمد حريته من قدرة حصانه على الحركة والجرى والهــرب .. ومن التعبيرات الشائعة فى ذلك الوقت : اركب حصانك .. أليس لك حصان ؟ لو كان عندى حصان ما رضيت بهذه الحياة دقيقة واحدة ! ركب فلان أسرع خيوله وهرب ..

وجـــاءت القوات الاســـيوية الراكبة وأســـقطت الامبراطورية الرومانية الواقفة أو الماشية أو الجالسة !

وظل الحصان مصدر القوة العسكرية فى أوربا ألف عام بعد ذلك. وكان سلاح الفرسان هو السلاح الافضل . وكان ســـلاح ابنـــاء الذوات والنبلاء . فالجندى يرتدى بدلته المدرعة ويركب حصانه .. والبدلة غالية والحصان أغلى والمـــوت بعيد عن هذا الفـــارس . ولا يستطيع أحد أن يحمى نفسه هكذا الا اذا كان غنيا . فالمشـــاة فقراء والفرسان أغنياء !

ولم تكن الخيول الاوربيـــة الا حيوانات غليظـــة ضـــخمة . خطواتها ثقيلة . واشكالها دميمة .. ولكن أوربا عرفت بعد ذلك أن تستورد هذه الكائنات الجميلة النبيلة من شمال افريقيا ومن شـــبه الجزيرة العربية . ومن منطقة نجد . وظهـــرت الخيول العربية بأجسامها الممدودة الانسيابية ورشاقتها وروعتهـــا .. ولم يعرف الاوربيون هذه الكائنات الرائعة الا بعد أن اتصـــلوا بالعرب .. وقرأوا عن عشق العرب لهذه الخيول .. بل أن أمير

الشعراء الانجليز روبرت جريفز يؤمن بأن الادب الغربى لم يعرف معنى « الفروسية » الا من العرب . فالعرب هم أول من اهتدى الى أن الفارس ليس من يركب الحصان . وانما هو الذى له شجاعة الحصان ونبله وكرمه واحترامه للعواطف الانسانية . والفارس هو الرجل الشهم . أو العاشق الذى يضحى بحياته من أجل محبوبته . وهو الذى يرى أن الحياة هى الحب . والحب هو الحياة . والحياة هى أن يموت الفارس من أجل المحبوبة . يكفى أن تراه يتعذب فتسقط على جثمانه دمعة واحدة . بل أن دمعة واحدة كثيرة . لأنه يرضى بأقل من ذلك .

ويقول روبرت جريفز ايضا : أن أوربا لم تعرف معنى الحب العذرى أو الحب العفيف أو الحب « الأفلاطونى » الا من العرب . فعند العرب قبيلة اسمها قبيلة « بنى عذرة » . هذه القبيلة قد نذرت نفسها للحب الشريف . وهذه هى الفروسية .

ويقول روبرت جريفز ايضا : ان الشعراء المتجولين « الطروبادور » أى شعراء الطرب — لم يتعلموا فن الصعلكة النبيلة الا من الادب العربى . فالشاعر العربى لا يكتفى بأن يتعذب من أجل المحبوبة ، وانما يروح ينقل عذابه للآخرين . فيتجول من مكان الى مكان ويروى للناس كيف انه لم ير الا ثوب محبوبته .. طرف ثوبها .. وهو لا يفضحها وانما هو يتغنى بها ويقيم لها حفلات التكريم .. فهو محطة اذاعية .. هو فيلم .. هو اسطوانة تدور فى كل مكان . هؤلاء الشعراء كانوا فرسانا ، يركبون الخيول .. وفيهم أخلاق الخيول : شموخ وجمال وصمود واستعداد للتضحية !

وفى التاريخ الاسلامى نجد الرسول عليه السلام كان يركب الناقة وكان يركب الحصان . وكان — ككل العرب — يدعو الى

حب الخيل والى اقتنائها . وهو الذى قال : « الخيل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة » . وكان يدعو ابناء المسلمين الى ركوب الخيل .. وعندما أسرى الله به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى تقول كتب السيرة انه ركب « البراق » وهو حيوان متوسط فى حجمه بين الحصان والحمار .. وفى المكان الذى وقف فيه البراق أقام عمر مسجده فى القدس . ويقول اليهود ان هذا المسجد أقيم فوق حطام معبد سليمان ..

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة وردت فيها كلمة «الخيل» .وهى ترد بمناسبة الاستعداد للقتال وضرورة محاربة العدو .والقرآن الكريم يقول : « **واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل** ترهبون به عدو الله وعدوكم . » وفى القرآن الكريم سور تحمل اسماء الحيوانات والحشرات والخيول : البقرة والنحل والنمل والانعام . أما سورة « العاديات » فالمقصود بها « الخيل » والسورة تقول : «والعاديات ضبحا . فالموريات‌قدحا .فالمغيرات صبحا . فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا . » وهذه الآيات تصف الخيل فى حركتها واثارتها للتراب وسط القوات المعادية . والله فى هذه السورة يقسم بهذه المخلوقات الجميلة . وفى ذلك أقصى درجات التكريم ..

والعربى يستمد نبله وقوته من هذا الحيوان المتسق القوام . ويستمد أيضا كبرياءه . وقد وصف العرب حاتم الطائى بأنه أكرم العرب لانه ذبح حصانه لاحد ضيوفه !

وعمر بن الخطاب عندما دخل القدس لم يشأ أن يركب حصانا وانما ركب ناقة وعلى هذه الناقة وضع طعامه من الماء والتمر والقمح . ودخل القدس حانى الرأس . ولم يركب حصانا يتبختر به كما يفعل الفرسان أو كما يفعل الغزاة المنتصرون !

والتاريخ يسجل للعرب انتصاراتهم الهائلة شرقا وغربا بقوات صغيرة وخيول محدودة . وقد حاول الفرس أن يصدوا العرب مستخدمين الخيول . ولكنهم فشلوا . فقد كانت عندهم الخيول، ولم تكن لديهم الفروسية — أى روح الشجاعة والاستعداد للموت فى سبيل الله ! ودخل العرب اسبانيا بجيش متواضع : ٣٠٠ فارس عربى وثلاثة آلاف من قوات البربر !

وبعد ذلك بخمسة قرون جاء جيش من الشرق محمولا على الخيول ومزق اوربا كلها ، وداس مقدساتها وفتح عيون العرب على أن هناك حضارة اخرى .. أو شعوبا أخرى تستطيع ان تفعل ما عجزت عنه الحضارة الاوربية المريضة المتداعية . كان ذلك جيش جنكيز خان .

وقد وصف الرحالة الايطالى ماركو بولو جيش جنكيز خان (١١٦٢ — ١٢٢٧) بأنه كان يتحرك فوق ربع مليون حصان !

واصبح من المألوف فى اوروبا فى ذلك الوقت أن الرجل النبيل هو الذى يملك قطعة من الارض وحصانا . أو يملك حصانا دون ان يملك ارضا او يملك الحصان والبدلة المدرعة دون أن يكون جنديا فى اى جيش . وانما يكفى أن يكون هذا « عاليا » فوق حصان ، و « منيعا » وراء بدلة من حديد .. وهو بكل مقاييس العصر يعتبر رجلا محظوظا !

وعرفت أوربا تربية الخيول . واستخراج السلالات الجيدة منها . لان الخيول التى هاجرت الى أوربا من الشمال فى العصور الجليدية كانت صغيرة هزيلة . او قبيحة التكوين . وقد أحس الاوربيون بذلك اثناء الحروب الصليبية . لم تكن لديهم هذه الخيول

العربية الرائعة . وحتى عندما انسحب الصليبيون من الشـــرق كانوا يحملون امتعتهم على ظهور الابقار والماعز والخنازير !

والخيول حتى ذلك الوقت كانت مظهرا من مظـــاهر الثراء والقوة . ولكن اوربا لم تعرف « الفروسية » او رياضـــة ركوب الخيول . واذا حدث أن أراد بعض الفرسان ان يتريض جاءت هذه الرياضة عنيفة دموية . فيلتقى الفرسان ويتحاربون .وتكون النهاية دموية مميتة . ان الملك هنرى الثانى ملك فرنسا قد سقط من فوق حصانه ميتا سنة ١٥٥٩ . ولم يكن ذلك فى الحرب وانما كان فى معركة مع احد الفرسان . ولم يكن ذلك الا على ســبيل اللهو !

ولكن رجلا فرنسيا اسمه جيوفروا دى بروى هو أول من وضع لرياضة الخيل أو للفروسية قواعد واصولا وطلب من كل الفرسان ان يحترموها وكانت هذه القواعد تؤدى الى الابقاء على حيـــاة الفارس والحصان . وان تكون استعراضـــا للخفـــة والسرعة والمناورة دون دماء !

والتاريخ الذى كتبته الخيول فى حياة الانسان والشعوب كلها طويل جدا ـــ انه يشبه تاريخ الدبابة والمدرعات والطائرات . فالخيول هى دبابات وطائرات الانسان من ألوف السنين !

واذا كان الانسان قد استخدم الخيول فى الرعى وفى الصيد ،فانه استعان ايضا بطائر غريب يساعده على ذلك . فالصياد كان يركب حصانه ويحمل على ذراعه طائرا هو « الصقر » ثم يطلق الصقر على الفريسة ويجرى وراءه . وبعد لحظات يكون الصقر قد أوقف له الفريسة . فالصقر ينطلق وينقض بسرعة على الطيور الاخرى أو على الأرانب أو على الغزلان . ويقف على رأسها ويرفرف بجناحيه

فيجعلها عاجزة عن الرؤية . أو يضربها فى راسها أو يفقأ عينيها .. حتى يجىء الصياد ويمسك الفريسة .ولا تزال هذه الصقور وسيلة من وسائل الصيد فى مناطق شبه الجزيرة العربية . فبدلا من ان يطلق الصياد سهامه ونباله ورصاصه على الفريسة ، فانه يطلق الصقر لكي يمسكها وهى حية دون ان يشوه مكانا واحدا من جسمها.

وفى العصور الوسطى كانوا يستخدمون الصقور لاصطياد الخنازير البرية . ففى فرنسا ، وهى كبرى الدول الزراعية فى أوربا ، قد أرهقتها حروب المائة عام حتى لم يبق لدى الناس ما يأكلونه من الخضراوات والفواكه والحيوانات . وحتى أصبح من الضرورى ان يلتزم صاحب البيت او صاحب القصر باطعام خدمه وحاشيته والا فلن يجد احدا يعمل لديه . ففى سنة ١٤٣٣ صدر قانون يقول: وللخادم ان يأكل اللحم مرتين فى الاسبوع وان يشرب زجاجة نبيذ . وفى أيام الصوم يجب أن يجد السمك .

اما الاغنياء فكانوا يضعون على موائدهم كل ما لا يجده الفقراء من لحوم : الخنزير والبقر والأوز والبجع والشواء والمسلوق وكانوا يأكلون الطاووس ايضا (وقد فعل ذلك شاه ايران عندما أقام مهرجانه التاريخى بمناسبة مرور خمسة وعشرين قرنا على تأسيس الملك كوروش للدولة الفارسية ..)

ولكن طائرا واحدا نجا من الموت : الصقر .

ويقال أن المؤرخ الاغريقى كتسياس وكان طبيبا خاصا للملك الفارسى ارنكسركس فى القرن الرابع قبل الميلاد ، هو اول من نقل الصقر الى أوربا . وأول من استخدمه فى الصيد . ولكن هذه العادة لم تنتشر فى اوربا الا بعد أن هاجر الاسيويون الى أوربا . وعرف الغرب أن الصقور يمكن استخدامها فى صيد الذئاب التى تهدد قطعان الاغنام والابقار ..

وفى احدى لوحات لويس السادس عشر نجده واقفا وعلى ذراعه اليسرى وقف الصقر شامخا براسه .

كما ان الملك فريدريش الثانى ، لم يكتف بتربية هذه الصقور الصيادة ، وانما أصدر كتابا فى تربية الصقور وتعليمها . كتابه اسمه « فن الصيد بالطيور » . وفى الكتاب يحدث القارىء عن اخلاقيات هذا الطائر . وكيف يأكل وكيف يشرب . وكيف يجب تجويعه قبل اطلاقه على الفريسة . ثم مكافأته بعد ذلك بأن يعطى القلب والكبد وعينى الفريسة . والذى يقرا كتاب الامبراطور يشعر بأن تدريب الصقور الصيادة عمل شاق . ولكنه من انبل الاعمال فى ذلك الوقت .

والفراعنة انفسهم كانوا يرمزون بالصقر — حورس — الى السماء .. او الى الفضاء الخارجى . ويرون أن هذا الصقر له عينان هما : الشمس والقمر . وكان هذا الطائر فى أعلى مراتب القداسة عندهم ..

وحيوان آخر رافق الانسان سنوات طويلة . او كان اول من صادقة ؟ الكلب . وكان الانسان يستخدم الكلب فى حراسة الأغنام، ولم يكن الكلب حارسا لها تماما ، وانما كان يحميها من الذئاب والثعالب . وكان الكلب حيوانا محتقرا رغم احساس الانسان بفائدته . وكان من عادة الاغنياء أن يضعوا كلابهم فى غرف الخدم.

ولكن فى العصور الوسطى ظهرت الكلاب فى قصور النبلاء والملوك . ثم ظهرت الكلاب فى لوحاتهم الفنية . وظهرت أنواع نادرة من الكلاب . وكان الكلب يستمد « مكانته » هو ايضا من مكانة سيده . بل ان الفنان كان يعكس طبيعة السيد على طبيعة الكلب. فاذا كان السيد مثل « فيليب الطبيب » دوق بورجانديا ظهر الكلب هادئا جالسا عند قدمى سيده ، واذا كان السيد شريرا مثل «شارل

السيىء » ملك مقاطعة نفارة الاسبانية ظهر الكلب شرسا يقضم الطعام عند قدمى سيده ..

وظهرت حيوانات وطيور أخرى كثيرة فى اللوحات الفنية بل وفى النقوش القديمة . ففى احدى مقابر المملكة الوسطى الفرعونية نجد نقشا به تسعة وعشرون نوعا من الطيور .. وفى مقبرة الكاتب المصرى حور محب فى عهد تحتمس الرابع نجد نقوشا لطيور كثيرة .. كما ظهرت الحيوانات المفترسة على دروع الجنود رمزا للقوة والمنعة . بل لا يزال « وحيد القرن » منقوشا مع عظيم الاحترام على الاسلحة الملكية البريطانية . وكان القدماء يتصورون أن وحيد القرن حيوان نادر أو حيوان خرافى . فالمؤرخ الرومانى بلينى كان يعتقد وكذلك الفيلسوف الاغريقى ارسطو أن وحيد القرن لا وجود له.

ولما نقلت التوراة من اللغة العبرية الى اللغة اليونانية ترجمت الكلمة العبرية « ريم » ومعناها : ابقار الى الكلمة اليونانية « مونوكيروس » ومعناها : وحيد القرن .

وقد استخدم القدماء اسم « وحيد القرن » للدلالة على العفة والعذرية وقوة الفضيلة .وذهب القدماء الى ابعد من ذلك فتصوروا ان قرن وحيد القرن هـذا يحقق المعجزات . وان الذى يحتفظ به تحدث له البركات .. وان الذى يسحق القرن ويشربه مع النبيذ تكون له قوة جنسية هائلة .

عجيب أمر الانسان : انه يبدأ بتقديس الحيوانات ثم تكديسه ثم القضاء عليه ، ثم الحزن عليه والعمل على انقاذه وتربيته والبحث عن شىء جديد يقدسه تمهيدا للقضاء عليه .. وهذا ما فعله بنفسه أيضا !



خنازير كولمبوس ملأت العالم الجديد !

مع اكتشـــاف أمريكا ظهرت حيوانات وطيور جديدة ، فالخنازير الثمانية التى حملها كولمبوس معه قد أصبحت الآن مئات الملايين فى العـــالم الجديد ، ولم يكن اكتشاف أمريكا عمـــلا بارعا بالصدفة ، ولـــكنه نتيجة لمحاولات ومغامرات استغرقت مئات السنين ..

ويجب ان نذكر دائما أن الصيادين هم الذين لمسوا كل شواطىء العالم الجديد . فالصيادون من أبناء الشمال هم الذين اكتشفوا « جرينلاند » اى الأرض الخضراء ولم تكن الأرض خضراء عـــندما اهتدى اليها « أريك الأحمر » وانما كانت جرداء جليدية صحراوية مميتة . ولكنه اختار لها هذا الاسم ليستدرج الناس الى الحيـــاة فيها . وكان هو وابنه أول من أقام فيها . وبعد ذلك تكاثر المهاجرون جيلا بعد جيل ..

يقول « أريك الأحمر » فى مذكراته : كنت أطلب من ابنى أن يقوم بدور الكلب واحيانا بدور الدب ، لنشعر نحن أن هنـــاك كائنات أخرى ترانا أو تخافنا أو تعمل لنا أى حساب ! ..

ويقال ان « أريك الأحمر » هذا استطاع أن يصل فى مغامراته البحرية الى شواطىء أمريــكا . والى جزيرة « رود » بالذات . ولكنه يوم اهتدى الى هذا المكان النـــائى لم يكن يعرف بالضبط ، ما الذى يراه عن بعد ..

وبعد ذلك توالت مغـــامرات ابناء جنوه الايطاليـــة ، والبحارة الاسبان والبرتغاليين . كلهم اتجهوا عبر المحيط الأطلسى . لماذا ؟ لأن لديهم معلومات ما ، بأن شيئا ما ، يوجد فى الناحية الأخرى .. ما هو هذا الشىء ؟ يقال : انها بلاد التوابل : بلاد الهنـــد . أو بلاد الحرير : بلاد الصين .

واكتشفوا جزر الكنارى وجزر ماديرا وجزر الأزورس ..

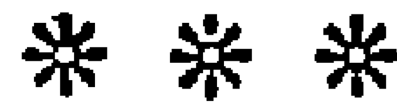
ومن الملاحظ أن كل الجزر التى اكتشفت قد حملت اما أسماء القديسين او أسماء الطيور . فقد كانت الطيور بألوانها الزاهيـــة الصارخة وأصواتها المغردة هى أهم ما راى وما سمع الأوربيون. فجزر الكنارى نسبة لطائر الكناريا .. وجزر أزروس أيضـــا . فالكلمة البرتغالية « أسورث » معناها : الصقور . والجزيرة مليئة بالصقور .

وكانت هذه الطيور تستقبل سفن المغامرين من بعيد ، وتحلق حولها فى كبرياء . وقد فتن الأوربيون بالببغاء . وانتقل هذا الطائر الى أدبهم وشعرهم واغانيهم وخرافاتهم أيضا .

واول ما واجه الأوربيين المكتشفين أن هذه الجزيرة فقـــيرة . وأن أهلها بدائيون متخلفون تماما.ولذلك احتاج الأوروبيون الى أن يأتوا معهم بالطعام من اللحوم . فنقلوا الحيوانات الأليفة الى هذه الجزر . ونشروها . وامتلأت بها الدنيا الجديدة . وقد أدى وجود بعض هذه الحيوانات الى ظواهر غريبة لم تكن فى حســـابهم .

فمثلا عندما نقلوا الأرانب الى جزيرة اسمها « الجزيرة المقدسة » تكاثرت بمئات الألوف فى سنوات قليلة ، حتى اكلت ما فى الجزيرة من أعشـــاب ، بل انها كانت تتسـلق الأشجار وتأكل أوراقهـا الخضراء ..

يقول بعض المؤرخين : ان الذى ينظر الى الجزيرة بعينــه من بعيد يجد سطحها يتحرك .. يعلو ويهبط ، كأن أمواج المحيط قد استقرت فوقها . فاذا اقترب منها أكثر وجد أن الذى يتحرك هو موجات من الأرانب !



نفس التجربة حدثت عندما اكتشفت استراليا . كانت الأرانب قد أكلت المزارع فأتوا لها بالقطط . فأكلت الأرانب وأصبحت القطط متوحشـة . فأتوا لها بالكلاب . فتحولت الكلاب الى ذئاب متوحشة ويقال انهم فى استراليا قضوا على الكلاب التى قضت على القطط التى قضت على الأرانب ، فانتشرت الفئران بصورة شرسة .. وفى الهند عندهم مشكلة مماثلة . ففى الهنـد يحتاجون الى جلود الثعابين فيصيدونها . وكانت الثعـابين تأكل الفئران التى تأكل محصول القمح والذرة . ولذلك أصبح ممنوعا صيد الأفاعى لأنها تقضى على الفئران ، وبذلك ينجو القمح والذرة ؟ .

والمستعمرون الأوروبيون الجدد لهذه الجزر او لهـذه الأراضى المكتشفة يحتاجون الى ضمان طعـامهم . والى ضرورة معـرفة الحيوانات والطيور الجديدة.وان كان فى الامكان ذبحها أو تصديرها الى أوربا .. وبعـد ذلك معرفة حدود الأرض الجـديدة والبحث عما فيها من ثروات طبيعية .

واذا كانت الأرانب هى أول المهاجرين الأوربيين الى العالم الجديد ، فقد جاءت بعد الأرانب الأبقار والأغنام والماعز والخنازير والدواجن وكذلك البذور .

وكولمبوس عندما اكتشف امريكا سنة ١٤٩٢ كان يحمل فى سفنه بعض اللحوم والاسماك الجافة .. ولكن رحلة كولمبوس الأولى كانت استطلاعية فقط وبعد ذلك جاءت رحلته الثانية الباهرة ويقول كولمبوس فى مذكراته بتاريخ ٩ أكتوبر سنة ١٤٩٢ أى بعد ٣١ يوما من السفر من جزر الكنارى : ظللنا طول الليل نسمع اجنحة الطيور . ولا نعرف أين نحن بالضبط . ولكنى مؤمن بأن الأرض قريبة جدا » .

وبعد ثلاثة أيام توقف كولمبوس عند جزيرة هى جنة الطيور . كل شيء فيها غريب عجيب . اشجارها وارضها وثمارها . واهم من ذلك كله عدد لا نهائى من الببغاوات . وقد حمل منها عددا كبيرا الى أوربا . ووجد بالصدفة بعض الأحجار اللامعة على الشاطىء فظن انها ذهب . ولم تكن كذلك . وايقن انه قد اهتدى الى الهند. وكولمبوس هو الذى اطلق خنازيره فى الدنيا الجديدة .. وهربت الخنازير الى الغابات واختفت منه .. وبعد مئات السنين اصبحت الوف الملايين .. طعاما سائغا للرجل الأوروبى والأمريكى ..

***

ومما حمله الأوربيون الى العالم الجديد : الخيول .

وكانوا يركبون الخيول ويمسكون السهام والنبال ويطلقون النار على الهنود الحمر . فخافوا أول الأمر . وبعد ذلك لم تعد هذه الخيول تخيفهم وكانوا يظنون أن الحصان وراكبه كائن واحد .

ولما تشجع الهنود الحمر واطلقوا سهامهم على الأوربيين سقط منهم الكثيرون على الأرض . واندهش الهنود الحمر كيف أن هذا الحيوان — أى الحصان وراكبه — يمكن أن ينشطر نصفين بهذه السهولة !

(وعندما اكتشف كوك أيضا جزر هاواى كان يضع يديه فى جيب البنطلون فكان أهل هاواى يعجبون لذلك اذ كيف يخفى يديه فى بطنه ويخرجها . ولما راح يدخن السجائر ، أدهشهم كيف أن النار فى احشائه ولا يموت .. ولما قتلوا رجاله البيض فزعوا لذلك . ولكنهم تشجعوا حتى قتلوا كوك نفسه) .

والشاعرة المكسيكية الراهبة خوانا كروث تقول سنة ١٦٨٨ عن الأوربيين الذين غزوا بلادها بالحديد والنار : من هؤلاءالوحوش الذين جاءوا عبر المحيط يدوسون ارضى المقدسة ؟ ويذبحون اجدادى وينهشون لحمهم ، وينهبون ثرواتهم بلا سبب ؟ .. ان اجدادى متحضرون أما هؤلاء القادمون من وراء البحر فوحوش بربرية .. !

واهتدى الانسان الى حيلة اخرى غير استخدام الخيول ، استعملوا الكلاب المدربة . واخذوا يطلقونها على قبائل الانكاس. وكانت الكلاب تمسك بهم وتعوقهم لتصيبهم نيران الاسبان .وعرف الانكاس حيلا اخرى جديدة . كان الواحد منهم يتغطى بمواد مسمومة فاذا هجم عليه الكلب مات لتوه . أما لماذا لم يمت الانكاس من السموم التى تنفذ الى ما تحت الجلد ، فذلك ما لم يعرفه أحد بعد .

ويصف لنا المؤرخون الاسبان كيف رأوا قصر الملك مونتزوما الثانى « ملك المكسيك » قال أحد المؤرخين : وكان قصره قطعة

من الجحيم . تعيش الاسود والنمور فيه.وترى الطيور الصارخة. والطيور المغردة والطيور الجارحة .. وفيه اخطر من هذا كله : أنواع عجيبة من الأفاعى التى لها ريش . وكانوا يضعون الأفاعى فى الصناديق ثم يلقون اليها بلحوم الكلاب وكان من عادة الملك اذا زاره الضيوف أو الأوربيون الجدد ، أن يقدم لهم الطعام وسط هذه الوحوش . وكان حريصا على أن يجعلها جائعة فتعوى وتنبح وتصرخ ــ أما الثعابين فيكون لها فحيح غريب رهيب .

وفى الرسائل التى وجهها كولمبوس الى الملوك الكاثوليك فى اوربا سنة ١٥٠٣ ، وكان فى ذلك الوقت فى جامايكا يقول : ان فى هــذه البلاد اسودا وقططا ضخمة فى حجم الانسان نفسه .

وفى هذا العالم الجديد لا أحد يشرب االبن أو يذوق لحم الحيوانات ــ الأغنياء والنبلاء ورجال الدين فقط ــ اما بقية الناس فلا قدرة لهم على هذا الترف العظيم .

* * *

وعندما استولى البرتغاليون على البرازيل اطلقوا عليها اسم ارض الببغاوات . وان كانت كلمة « البرازيل » فى اللغة البرتغالية تعنى نوعا من الخشب الثقيل الذي يخرجون منه الاصبغة الحمراء. ولكنهم كانوا يسمون هذه البلاد بجنة الطيور . وكان من عادة البرتغاليــين أن يدرسوا ويسجلوا ملاحظــاتهم على كل الطيور والحيوانات والنباتات التى تلفت عيونهم . بينمــا كان الأســبان مشغولين فقط بالبحث عن الذهب .

وعلى الرغم من أن الثمار فى العالم الجديد كبيرة الحجم ، فان الحيوانات كانت صغيرة الحجم . وهذا العالم الجديد لم يعــرف الفيل الهندى الحبشي ولم يعرف التمساح النيلى الكبير . وانمــا فى العالم الجديد تماسيح صغيرة . ولم يكن يضــايق المستعمرين الجدد سوى الحشرات التى تلسع . وسوى الأفاعى التى تمص دمهم فى الليل .

أما الهنود الحمر فهم يأكلون كل الحيوانات فيما عدا حيوان آكل النمــل .

وبعض القبائل تأكل الانسان نفسه وعندها اسباب كثيرة لذلك. أما أن يكون ذلك بدافع الانتقام .. أو بدافع المحبة .. فنجد القبيلة تأكل شخصـــا من قبيلة اخــرى ، ومعنى ذلك أن دمها واحد . وجسمها واحد . والروح واحدة . وتقام لذلك طقوس هائلةبالطبول والرقص والبخور .

من عادة هذه القبائل اذا أسرت عدوا أن تكرمه فتعطيه الطعام الذى يجعله اسمن . بل ان بعض القبـــائل عنــدما كَانت تأسر الأوربيين كانت تحبسهم وتقدم لهم افضل الطعام وتقدم لهم بنـــات القبيلة ليكون زواج واطفال . أما الذكور — فلأنهم أولاد الرجل — فيأكلونهم . أما الأناث — فلأنهن بنات المرأة — فلا يأكلهن أحد . ثم لابد من أكل الذكر حتى لا ينتقم لوالده .

وقد روى للعالم كله مثل هذه القصص رجل أوربى وقع فى الأسر. ورفضوا أن يأكلوه رغم ما قــدموا له من طعام ، لأنه كان جلدا على عظم !

وقاوم الأوروبيون هذه الوحشـــية ، فأصدروا القوانــين التى لا تحرم قتل الانسان ، وانما تحرم أكله . .وبينما صدرت هــذه القوانين كان بعض الأوروبيين يبيع للهنود الحمر سكاكين أكبر لكى يتمكنوا من ذبح الانسان بسـهولة !

ولم تتوقف هذه الأعمـــال الوحشية الا عندما انتقلت الأبقـــار والجواميس والأغنـــام من اوروبا لكى تكون غــداء للانسان من الانسان .. فماتت هذه الحيوانات من اجل ان يعيش الانســـان يربيها ويطعمها ويذبحها بعد ذلك !

لكل عصر خرافات خاصة!

كانت الملكة كاترين دمدتيشى شديدة القلق . وهذا طبيعى جدا ، فهذه ليلة زفافها . وكانت اذا نظرت الى احدى الوصيفات تسال عن شىء ، ترد عليها الوصيفة وهى تضحك أو وهى تغمز بعينها ، وفى كثير من الأحيان كانت الملكة تسال قائلة : هل جاء الخاتم الـ ... وقبل أن تكمل سؤالها يجىء الرد : نعم جاء الخاتم ذو الأربعين فصـا ..

وتسال الملكة : والصندوق الـ ..

فترد وصيفة اخرى : جاء الصندوق البيضاوى وبه كل المجوهرات حتى الخنجر الذهبى المرصع بالماس .

وتقول الملكة : وهذا الذى يسمونه « عطر الحياة الأبدية » هل هو أيضـا .. ؟

— نعم يا مولاتى جاء وبكميات كبيرة تكفى لاسعاد ألف عروس فى ألف ليلة .. !

— و —

ــ نعم جاء وهو الآن تحت المخدة ..

ــ و ..

ــ نعم يا مولاتى .. وأنا التي وضعته بنفسى فى كأس الشمبانيا التي سوف يشربها الملك قبل أن يدخل الى غرفتك .. اطمئنى فقد أعددنا لسعادتكما الليلة كل شيء ..

ــ وهل نسيت ذلك الذى أهدته لى الامبراطورة لأتناوله قبل النوم بلحظات .

ــ موجود يا مولاتى ..

ولم تكن الملكة كاترين دمديتشى تريد أن تعرف كل هذه الاحتياطات من اجل ليلة العمر مع احد ملوك فرنسا . وانما كانت قلقة على شيء آخر هام جدا .. ولكنها تخشى أن تبوح باسمه أمام الوصيفات الايطاليات والفرنسيات .. وأخيرا تشجعت وقالت : هل جاء الكاردينال .. ؟

وصرخت الوصيفات فى نفس واحد : طبعا يا مولاتى ..

وظهرت السعادة على وجه الملكة وأحس الجميع أن هذا الذى جاء أهم من كل شيء سمعته حتى الآن . أما هذا الكاردينال فقد حمل رسالة خاصة من عمها كليمنت السابع بابا الفاتيكان .

وقد وعدها بهذه الهدية قبل زواجها . ولما حضر الكاردينال ادخلوه فورا للغرفة الصغيرة المجاورة لسرير الملكة . ورفع الكاردينال عباءته القرمزية ووضع علبة ذهبية كبيرة ، وفى داخل العلبة الذهبية مسحوق نادر .

ان هذا المسحوق هو معالجة طبيـــة لجزء من قرن خلعوه من رأس « وحيد القرن » الذى يبلغ من العمر سنتين ويومين !

هذا المسحوق مهم جدا . فالملكة اذا أحست بالسم قد وضعوه لها فى طعامها ، فانهـــا بسرعة تضع المسحوق على شرابهـــا أو طعامها . وهذا المسحوق قادر على أن يمتص السم وتعيش الملكة.

* * *

وكان ذلك فى القرن السادس عشر فاوربا كلها تؤمن بأن قـــرن وحيد القرن قادر على شفاء الناس من أكثر الأمراض خطورة . ولذلك فهو هدية من بابا روما ــ وهى هدية أغلى من كل الهدايا وأهم .. !

وحيوانات أخرى سيطرت على الحياة الطبية فى أوروبا بعـــد اكتشاف أمريكا . أكثر هذه الحيوانات خرافية .

ومن الملاحظ أن الانسان الأوروبى اتجه الى أمركا ، بينمـــا الحيوانات الأمريكية قد اتجهت الى أوربا . واذا كان كولمبوس قد اهدى أمريكا ثمـــانية من الخنازير ، فان أمريكا قـــد أعادت الى الخنازير الأوروبية طعامها ، بل ان أمريكا هى التى انقذت خنازير أوربا .. فعندما كانت هناك أزمة اللحوم أو الطعام عموما فى أوربا، انتقلت الذرة الى أوربا ، ولم تكن تعرفها قط . وانتقل سكر القصب أيضا . صحيح أن أوربا هى التى نقلت قصب السكر الى أمريكا ، ولكن أمريكا هى التى صنعت سكر القصب بكميات هائلة،مستخدمة العبيد من أفريقيا فى هذه الصناعة الجديدة . وقد ادى ظهور السكر فى أوربا الى كساد عسل النحل والنحل نفسه . وهذه هى أول مرة

فى التاريخ نجد السكر الذى هو ناتج نباتى يطرد العسل الذى هو ناتج حيوانى .

ثم ان الذرة والبطاطس وغيرهما من الأطعمة قد أدت الى انقاذ حياة الملايين من الطيور والحيوانات التى اعتاد النـــاس فى أوربا أن يأكلوها . ولم تكن البطاطس هذه معـــروفة تماما فى أوربا .. وقد رأينا فى القرن السابع عشر الأمراء يتهادون بالبطاطس على انها شىء غريب عجيب . بل ان بعض الأطباء فى ذلك الوقت قــد افتى بتحريم اكل البطاطس لأنها تؤدى الى الأمراض الخبيثة !

وظهر الديك الرومى فى أوربا ، قادما من أمريكا بكميات كثيرة. وربما قيل ان الديك الرومى ليس جـديدا على أوربا ، فالانجليز يسمونه الديك التركى . والانجليز عرفوه عن طريق الشرق الأوسط. ولكن النـــوع الذى جاء من أمريكا كان أضخم واكثر تنوعا ، وكان لظهور الديك الرومى اثره الكبير فى الحياة الأوربية .. فى حفلات الأمراء والنبلاء والملوك . ومن يرجع الى أدب البـلاط فى أوربا يجد الديك الرومى صاحب الصفحات الأولى والعبارات الأولى على السنة الرجال والنساء . كان يقال مثلا : جميــل الديك الرومى وأجمل منه ان ينظر اليه الانسان فى عينيك !

يقال هذا الكلام عادة لفتاة جميلة . ويكون رد الفعل التقليدى ان تحنى الجميلة راسها ، وأن يتقدم صاحب الكلام ويحنى رأســه على يديها ويقبلها .. ويمضى الكلام عن الديك وبقية الأطعمـــة . وينتهى مثل هذا الكلام عادة بأن تــكون هذه الجميلة قد وقعت فى غرام هذا الذئب الذواقة للطعام والجمال !

* * *

ومع هذه الحيوانات الواردة من امريكا ظهرت امراض كثيرة . فى مقدمتها امراض الزهرى والسيلان التى نقلها كولمبوس ورجاله الى أوربا — هذه حقيقة مؤكدة !

وأطلق الانجليز عليهـا : الأمراض الفرنسية . والفرنسيون وصفوها بأنها : امراض انجليزية !

وفى مذكرات كولمبوس نجده يقول مثلا : وفجأة شعرنا بظهور دمامل .. وفجأة شعرنا بنوع غريب من النزيف . ولا نذكر طعاما معينا ادى الى ظهور هذه الأعراض الغريبة !

ولم يكن كولمبوس يعرف هذه الأمراض السرية ، فهى لا تجىء بعد الأكل وانما بعد المعاشرة لنساء الهنود الحمر !

وحاول احد بحارة كولمبوس أن « يتفلسف » فوصف هذه الأعراض ، ولكنه عندما أراد أن يجد لها سببا معقولا قال : بسبب النبيذ الفاسد على الريق !

ولكن أهم ما ظهر فى الفكر الاوربى الأدبى والحيوانى أن هذه الرحلات الى العالم الجديد قد أدت الى ظهور حيوانات غريبة الأحجام عجيبة الألوان . هذه الحيوانات يؤكد كل الناس انهم راوها بأنفسهم . وأنهم لم يسمعوا عنها من احد . وكل كتب القرون الـ ١٥ و الـ ١٦ و الـ ١٧ قد فاضت بهذه الكائنات الغريبة . فعشرات المغامرين الكبار يقولون انهم راوا الذئب الذى له راس انسان ، أو الانسان الذى له راس ذئب .. وانهم حاولوا صيده . وانهم قتلوه ، ولكن جاءت ذئاب أخرى وحملت جثته ودفنتها فى ضوء القمر!

واكثر الناس رواية لهذه القصص هم البحارة . وهم يتغنون فى وصف هذه الحيوانات المائية أو البرمائية (وأنكر أننا عندما ذهبنا الى البصرة بالعراق مهد « الف ليلة وليلة » أعلن كثيرون من الأدباء أنهم شاهدوا عروس البحر .. شاهدوها واقفة وجالسة ، وانهم يقسمون على ذلك ؟ !) وكل بحارة القرن السادس عشر قد أقسموا على ذلك أيضا . وتؤكد بعض الكتب ان هناك نوعا من الأفاعى طولها ٥٠٠ قدم . وان هذه الأفاعى تلتف حول السفن فتسحقها وتبتلع ركابها واحدا بعد واحد . فاذا امتلأت هذه الافاعى بالطعام يستطيع الطفل الصغير ان يقتلها بقطعة حجر ! ولكن اين يكون هذا الطفل وكيف يمكن أن يقتلها ؟

ان الكاتب أولاس ماجنوس قد أصدر كتابا فى سنة ١٥٥٥ يصف فيه الكائنات البحرية المخيفة . وقد خصص صفحات طويلة لهـذه الأفعى الكبيرة

وفى القرن ١٦ ظهرت كتب تتحدث عن عريس البحر — سمك على شكل رجل . وهذا السمك لا يأكل الا الزنوج والهنود الحمر ..

أما عروس البحر فلا تأكل الا البيض .. ويقال لا تحب من لحوم الاوربيين سوى لحم الأسبان ! واذا كان عريس البحر يأكل عيون الفريسة فان عروس البحر تأكل قلوبهم .. تماما كما أنسمك القرش يأكل الذراعين والساقين .. وهناك نوع خاص من السمك يقفز من البحر وبقدرة غريبة يستقر على جسم الانسان . ويلتصق به ولايأكل الا نهود النساء — الفتيات الصغيرات بصفة خاصة !

وربما كان هيرودوت المؤرخ الاغريقى هو أول من وصف لنا طائر

« العنقاء » وقال أن هذا الطائر ينطلق كل خمسة قرون من شبه الجزيرة العربية الى مصر الجديدة حيث مات أجداده . ويظل يبكى على أجداده فى مصر الجديدة خمسة قرون ، ثم يعود بعدها الى شبه الجزيرة العربية ، فى مكان ما منها :

وتقول الكتب الأوربية فى القرن ١٦ أو مؤلفيها رأو العنقاء هذه . وان العنقاء قد لفت حول عنقها ثعبانا ضخما . هذا الثعبان اذا نظر الى انسان تحول الانسان الى حجر .. أو ما يشبه الحجر . وبسرعة ينقض الثعبان على الانسان يمتص دمه . أما العنقاء فتكون قد سلبته عينيه ! وقد صور الفنان الايطالى تشللينى هذه المعانى وروى هو نفسه قصصا من هذا النوع ، ويقسم أنه رأى ذلك بعينيه – كلهم يقسمون على ذلك ويطلبون منا أن نصدقهم !

حتى الفنان العظيم دافنشى يؤكد فى مذكراته انه رأى بعض هذه الحيوانات ، التى لم نعثر لها على أثر بعد ذلك .. ودافنشى ليس عبقريا مخرفا ، وانما هى حالة نشاط مجنون لخيال فنان عبقرى تجعله يرى ما يرى .. انها « حالة سيريالية » أى حالة يطير فيها الفنان الى ما فوق الواقع – كما يقول عنه العالم النفسى الكبير فرويد ..

وشىء من هذا قد أصاب الفنانين والمفكرين بعد اكتشاف أمريكا ..

وقد ظهر عند الأطباء جنون جديد لعلاج كل الأمراض . أو نوع من الطموح الطبى . فتوهموا أن هناك مواد نادرة لعلاج الأمراض .من ذلك مادة فى مخ الغزال . اذا عثرنا عليها ، كان الشفاء فى أيدينا .. وأحيانا يستخرجونها من الحصوات فى كلية الغزال . هذه المادة أطلق

عليها الفيلسوف العربى ابن سيناء مادة : البادزهر . وهى شفاء من كل سم ومن كل مرض .

ومن العجيب أن الفيلسوف العربى ابن سينا ، قد شخص الكثير من الأمراض . وجعل مادة البادزهر شفاء لكل داء . . وهذه المادة نادرة جدا ، ولذلك فكانت تساوى وزنها ذهبا . . أو أضعاف وزنها ذهبا . ولا أحد يعرف ان كنت تشفى حقيقة من كل داء . فالذين كانوا يتناولونها لم يقولوا لنا شيئا !

وظل هذا « الوهم » سائدا مئات السنين . . ولكن استطاع أحد الأطباء فى بلاط الملكة كاترين دمديتشى أن يثبت لها أن مسحوق قرن « وحيد القرن » ليس ترياقا يشفى من كل مرض . فقد وضع السم لديك ، ثم أعطى الديك هذا المسحوق السحرى فمات الديك رغم ذلك . . ولكن أحدا فى بلاط الملكة لم يصدق هذا الطبيب «المخرف» .

ويقال أن البابا كليمنت السابع عندما قارب الوفاة تلفت حوله يسأل الكرادلة ان كان أحد قد وضع له السم ــ فانحنوا وبكوا وقالوا : أعوذ بالله ومن يجرؤ على هذه الخطيئة !

ولكن البابا كان يعلم طبيعة الانسان ، ان واحدا من الحواريين حول المسيح قد سلمه لاعدائه . . فليس غريبا أن يقتله واحد من الذين حوله . . وكان أحد الكرادلة أسرع الجميع الى فهم ما يدور فى رأس البابا فأسرع وأتى بمسحوق القرن . . ووضعه فى كوب من الماء . . ثم وضع كمية أخرى . . وظهرت السعادة على وجه البابا . . وشرب الكوب ومات . . وقد اهتدى الأطباء بعد ذلك عندما أرادوا

أن يعرفوا سبب وفاة البابا ، الى أن السبب الحقيقى هو مسـحوق القرن السحرى !

ومات البابا وسره معه .. ولكن الخرافات تعيش بعد ذلك أطول عمرا من البابا ، لانها تنبع من جهل الانسان بما لا يعرف ورغبته فى أن يعرف بسرعة . وكل عصر من العصـور له حقائقه الجديدة ، وأوهامه الجديدة .. فلا عصر بلا خرافات !



ذهب كل أرض تدوسها الأغنام!

يقال ان احدى اميرات الصين قررت ان تسعد شعبها . فظلت تفكر فى أحسن الطرق . ولم تهد الى شىء . يقال نامت وقامت وهى سعيدة جدا . ماذا رات فى نومها ؟ رات دودة صغيرة تمشى بين أوراق الشـــجر . ثم تاوى الى بعض الأوراق عندما يخرج من فمها خيط ناعم .. وتظل الدودة تفعل ذلك حتى يتكون من الحرير كفن تموت فيه هى التى دفنت نفسها . ثم بعد أن تموت تصحو مرة اخرى .. لتموت بعد ذلك .. وذهبت الأميرة الى احد رجال الدين تروى قصتها . طمانها رجل الدين قائلا : ستكون لك حماة قاســية القلب . تحاول ان تدفنك حية . ولكنها هى التى ستموت فى النهاية !

ولم تقتنع الأميرة بتفسير رجل الدين . فذهبت الى كبير الكهنة . وقال لها : ان الذى رأيت فى نومك حقيقـــة . اذهبى الى الغابات وابحثى عن هذه الدودة ففيها سر الصين كلها !

وعثرت الأميرة على دودة القز ..

واصبح دود القز سرا ملكيا منذ أكثر من أربعة آلاف سنة .. وكانت للصين أعياد للحرير . يتهادى فيها الناس دود القز وبعض شرانق هذه الدودة العجيبة ..

وانتقل السر من قصور الملوك الى بيوت الشعب . وظلت الصين تضن بهذه الدودة على كل الشعوب الاخرى وكان يكفى أن يقال أن مواطنا أخذ معه بعض الدود خارج الحدود ليصدر قرار بأعدامه فورا .

وتسللت الدودة الى كوريا .. ومنها الى اليابان . ومن اليابان اصبحت صناعة الحرير ونسيج خيوطه من أهم مخصصات الاسرة المالكة .. ويقال أن الامبراطورة اذا غضبت لسبب ما ، وكثيرا ما كانت تفعل ذلك مما ادى الى قصف عمر زوجها ، فانها تأخذ ديدان القز معها وتظل تتأمل قدرة الله ..

ويقال ان احدى الامبراطورات كانت تنظم الشعر . ومما قالته : « حياتى كهذه الدودة .. هادئة ناعمة راضية . وفى النهاية ماذا ؟أنا الذى أعمل وانا الذى أتغطى بأكفان من الحرير وأموت فى صمت فالصمت حياتى والصمت مماتى .. ولاأحد يدرى بذلك » مفهومطبعا انها تريد أن تقول انها تتعذب وتعمل وتموت دون أن يشعر أحد بوجودها ــ زوجها واولادها طبعا . والشكوى من الرجل والأولاد قديمة وتتجدد فى كل بيت ومن كل زوجة وأم !

ولم تعرف أوربا الحرير هذا الا بعد ذلك بألوف السنين.. فملابس الاغريق والرومان بسيطة جدا . وعندما عرفوا الحرير كان ذلك شيئا نادرا . ولم يقدر على شرائه الا الملوك والاباطرة . وفى نفس الوقت

كانوا يرون أن هذه الملابس الناعمة لا يصح أن يرتديها الرجال . لانها ناعمة لينة . ولا يصح أن ترتديها النساء لانها تكشف الجسم.

وفى القرون السابقة على المسيحية لم يكن الرومان والاغريق قد عرفوا الملابس الداخلية وانما ظهرت هذه الملابس الداخلية عندما اقبل الرجال على النساء . وفى بلاد الاغريق أيام الفلاسفة سقراط وافلاطون وارسطو ، كان المثل الأعلى للجمال هو جسم الرجل والرجل نفسه . وفى هذا العصر انشغلت المراة عن أرضاء الرجل . ولكن بعد أن اتجه اليها الرجل ، بدأت المرأة تختفى وراء ملابس داخلية وخارجية .. وكلما التفت الرجل الى المراة اكثر عرفت الملابس الضيقة التى تكشفها وفى نفس الوقت تغطيها أيضا . فمع الميول الجنسية الشديدة عرفت المراة الأقمشة الحريرية .. ولكن نساء الطبقة الغنية فقط . فقد كان الحرير غالى الثمن ..

ان الامبراطور يوليوس قيصر قد اشترى قماشا حريريا ليزين به احد المسارح . ولكنه لم يجرؤ على ارتداء ملابس حريرية . لا يسمح بها لنفسه ولا لغيره . بل اننا نقرأ فى احدى المحاكمات من يقول : ولكن كيف أصدق رجلا يرتدى ملابس حريرية .. انه ليس رجلا !

أما الامبراطور الشاذ جنسيا واسمه هليوجبالوس السورى ، فقد ارتدى ثوبا من الحرير الأحمر فى احدى الحفلات . والتفت اليه الناس بدهشة . ويبدو أن الامبراطور لم يلفت النظر بدرجة كافية فانسحب من الحفلة وارتدى الثوب على اللحم وراح يتمرغ على الأرض أمام النبلاء .

ولم يكن هذا الحرير الذىعرفته أوروبا فى أوائل العصور المسيحية

قد جاء من الصين . انه نوع ردىء من الحرير . ولكنه غالى الثمن . .
أما الحرير الصينى فلم يظهر الا بعد ذلك بألف سنة . ووصل الى اوروبا من طرق مختلفة . .

فالامبراطور جستنيان فى القرن السادس الميلادى قد اتفق مع اثنين من الرهبان على أن يخفيا الحرير فى ملابسهما . وجاء الراهبان وقد حمل كل منهما عصا مفرغة . اخفى فيها بيضات الحرير . ودخل الحرير الى بلاد الامبراطور وتولت زوجته الغانية الفاتنة الفاجرة ثيودورا صناعة الحرير . فقد كان لها فى قصرها عشرات الحجرات أعدتها لدودة القز . وكانت الامبراطورة تغزل الحرير . أو تأتى بمن يستطيع ذلك . ويقال أن الامبراطورة ثيودورا قد تعاونت مع أحد أمراء الحبشة على زراعة أشجار التوت فى تركيا القديمة . ونجحت الأشجار وانتشرت صناعة الحرير فى ذلك الوقت . واحتكرت الامبراطورة غزل الحرير وحرمته على كل الناس . وكانت الامبراطورة تستعين بالفتيات فقط فى تربية وغزل الحرير .

وكان من عادة الامبراطورة ثيودورا كلما فرغت من عمل ثوب حريرى اقامت حفلة خاصة للملك . وأتت بالراقصات والمغنيات ورقصت هى أمام الامبراطور فى ثوب من الحرير ثم اتت بثوبها والقت به فى برميل النبيذ . . وراحت تمشى عارية تعصر النبيذ فى أفواه الضيوف !

وكانت تسمى تلك الليلة « الحرير من النبيذ » . . أو « النبيذ من الحرير » . . وكانت لهذه الامبراطورة أيام اخرى كثيرة . ولكن أروعها هى ليلة : مصير الحرير !

وكانت هناك امبراطورة اخرى اسمها نيودويسيا . هى أول من ابتكر مسابقات الجمال فى العالم .. او اختيار ملكة الجمال . فقد كان لها ابن جميل وكانت تريد أن تختار له أجمل الفتيات . فكانت تدعو كل اسبوع أجمل عشر فتيات ليختار واحدة منهن . الفتيات جميلات طبعا وقد ارتدت كل منهن فستانا من الحرير . ويرحن ويجئن على ايقاع موسيقى . ومع الليل والموسيقى والشراب ترتفع اطراف الفساتين لتكشف كل منهم على أماكن الجمال . ويختار الفتى بنت الحلال ، ومن الغريب أنه لم يكن يفعل ذلك . ولم تكن الفتيات يضقن بما لايفعل الأمير . فقد اسعدهن جدا ان يقع عليهن الاختيار وأن يتعرين امام امراء وشبان آخرين ..

كل ذلك بعد ان تكون كل واحدة قد خلعت أكثر ملابسها الحريرية التي تدل على أنها من أسرة قادرة على شراء فساتين من الحرير الصينى !

وأصبح العالم كله يتحدث عن طريق الحرير ، أو طريق تجارة الحرير الذى يبدأ من بكين مارا بالهند وايران وتركيا .. وسوريا . وقد انتقل الحرير من شمال افريقيا الى أوروبا فى القرن الثامن عن طريق العرب . فالعرب أدخلوا صناعة الحرير الى ايطاليا وجزيرة صقلية والى اسبانيا . صحيح ان دودة القز لم تكن قادرة على الحياة فى الاجواء الباردة . فماتت بالملايين . وكذلك أشجار التوت لم تتحمل البرودة والجليد فذبلت . ولكن استطاع الانسان أن يتغلب على هذه الصعوبات .

وقد شهدت أوروبا الملكة اليزابث وهى ترتدى جوربا من الحرير،

صنعته احدى وصيفاتها . اسم الوصيفة أصبح ماركة للقمصان الانجليزية : مونتاجى . وكانت ملكة انجلترا تستورد خيوط الحرير من أسبانيا . وظلت انجلترا تستورد الحرير من أسبانيا فى أشد الظروف قسوة ، وفى نفس الوقت كانت انجلترا تحرم تصدير الصوف الى الخارج .. وبينما كانت أسبانيا تحتكر دودة القز كانت انجلترا تحتكر أغنام الصوف .

وفى سنة ١٥٩٨ اعلنت الملكة اليزابث فى احدى الحفلات الرسمية أن لديها ستة أزواج من الجوارب الحريرية . ويبدو أن هذا خبر شخصى جدا . ولكن الملكة أرادت أن تقول أن هذه هى البداية .. وسوف تظهر جوارب أخرى كثيرة ، ولم تظهر الا بعد ذلك بوقت طويل !

فى ذلك الوقت كان أحد المهندسين الانجليز واسمه « لى » يعانى من أزمة حب شديدة . انه يحب فتاة جميلة . ولكن اذا ذهب اليها تنشغل عنه تماما . فيظل هو وحده يتكلم . وهى لا ترد . واذا ردت فانها لا ترفع رأسها لكى يرى عينيها . ان عينيها تركزتا على شىء فى يديها . انها تغزل خيوط الصوف لعلها تصنع جوربا أو شالا .. ولكنها لا ترد . هو يحبها . وهى أيضا . ولكن الحب كلام ، ولا كلام بينهما . أو هو الذى يتكلم وهى التى تسمع دون أن تقول شيئا . وانكسر قلب هذا المهندس . واختفى عن العيون سنة . ثم عاد يطلب مقابلة الملكة اليزابث وأذنت له . وقدم لها جهازا من اختراعه يعفى المرأة من غزل الصوف بيديها . لانه لا يريد حبيبته أن تفعل ذلك . وان تتحدث معه بعض الوقت . وقالت الملكة : كنت أظنك قد اخترعت شيئا لغزل الحرير .

وقال المهندس : افعل ذلك حالا !

واختفى المهندس سنة ليعود الى الملكة بجهاز جديد لغزل الحرير حتى لا تنشغل عنه حبيبته . ولكن الملكة لم تفرح بذلك . لان هـــذا الجهاز سوف يجعل الحرير فى متناول كل الناس . وهى تريد الحرير خاصا بها وبالاسرة المالكة . ثم أن مغازل الحرير أو الصوف سوف تؤدى الى تعطيل الوف الأيدى العاملة . فذهب الرجل الى فرنســـا يعرض اختراعه الجديد . ولكن فرنسا كانت مشغولة فى الأحداث التى اعقبت اغتيال الملك هنرى الرابع .. وزاد حزن الرجل وعاد الى حبيبته فوجدها تتكلم وتنتظره .. انهـــا الآن لم تعد تغــزل لا الصوف ولا الحرير — لقد فقدت بصرها !

وفى عصر لويس الثالث عشر عرفت فرنسا التقشف والبهدلة فى اللبس . وكان هذا الملك متشددا ، فخربت مغازل كثيرة فى معظم المدن الفرنسية .. وتشرد الدود على الشـــجر . وماتت الشرانق وطرد الحرير من بلاد الاناقة !

ولكن اعيدت كل هذه الصـــناعات بعد ذلك . وأعلن الكاردينال ريشليو : أنه من الحماقة أن نحرم على أنفسنا ما أراده الله لنا من جمال — اعيدوا الدود الى الشجر ، والحرير الى الأزياء !

* * *

واذا كانت « دودة القز » هذه قد زحفت من آسيا ، فان «الأغنام» أيضا قد جاءت من آسيا ، ولكن فى عصور قديمة جدا . وربما كانت

الأغنام اكثر الحيوانات هجرة من مكان الى مكان .. ففى كل عصور التاريخ كان هناك رعاة ، لان الأغنام قد سبقت الانسان .. ولكن الأغنام التى ظهرت فى أوروبا كانت ضئيلة الحجم وكان شعرها خشنا جافا . اما الأغنام الجيدة فهى التى جاءت من آسـيا ، ومن شـبه الجزيرة العربية بصفة خاصة ..

وظلت هذه الأغنام يختلط بعضـها ببعض حتى كان هذا النوع الأسبانى اشهير باسم مرينو . وهذه الأغنام وصلت الى أسبانيا تماما كما وصلت دودة القز عن طريق شمال افريقيا .. وبوصول الأغنام الى اسبانيا بدأت حرب الخيوط بينها وبين بريطانيا .. خيوط الحرير وخيوط الصوف .. احتكرت أسـبانيا الحرير ، واحتكرت بريطانيا الصوف . وبدأت معركة السيادة على الأسواق .. ومعركة السيادة على البحار . واهتدت بريطانيا الى انه من الأفضل أن تنتقل الأغنام من بلادها الى المستعمرات . فانتقلت الأغنام الى المراعى الاكثر غنى فى مستعمراتها . وفى عصر حرب الخيوط ، اكلت الأغنـام الأرض المزروعة .. بل أن الناس فى بريطانيا كانوا يقتلعون الأشجار ويتركون الحشائش غذاء للاغنام التى تعيش عليها بريطانيا . بل أن رجال الدين الانجليز كانوا يخطبون فى الكنائس يطلبون من الله أن يرفع عنهم لعنة الأغنام التى اكلت الأشجار وحولت المدن الى مرعى تأكل عليه .. وكانوا يقولون : ان الله خلق الأرض للانسان فتركها الانسان للاغنام . فاستحق الانسان لعنة الله !

وكان الناس يقولون : ذهب كل أرض تدوسها الأغنام !

ولما اهتدت بريطانيا الى اماكن اغنى وادفأ خارج جزيرتها ،انتقلت اليها الأغنـام . وعادت الزراعة الى الأرض . وعادت الارض الى الانسـان !

واخترع الانسان الآلة لتعاون دودة القز وتعاون الأغنام ..

ثم عاد الانسان يخترع اجهزة اخرى لتاخذ مكان الديدان والأغنام، عندما اخترع الخيوط الصناعية ..

ولكن لا تزال هذه المنتجات الطبيعيـــة ـ خيوط الحرير وخيوط الصوف وخيوط القطن ـ اروع واجمل ..

ان دودة صغيرة ضعيفة قد طردت امامها ملايين الأغنام . فما اكثر ما تفعله دودة فى حياة الانسان .



الأكاديمية لتعليم الإنسان
كيف يكون حصانا بنيلا !

لم يفهم القــاضى طبيعــة الخــلاف بين رجل وزوجته . وعاد يسال الرجل :

ولكن لماذا أصبح هذا الخلاف حادا الى هــذه الدرجة . اليست هى زوجتك !

يقول الرجل : بلى واحبها !

تقول الزوجة : كذاب يا حضرة القاضى ! كان يحبنى فيما مضى . اما الآن فلا .. ضحك على حتى جعلنى اترك اهلى ودينى . وبعد أن تمكن منى ، وصلنا الى ما نحن عليه .

يقول الرجل : ولكن ما الذى نحن عليه .. انه خلاف اخترعته . وهى التى طلبت أن أجىء اليك وأن تكون مشــاكلنا فضائح . فاذا أصبحت فضائح ضعفت أنا أمام الرأى العام . ولكن لن أغير موقفى.

يقول القاضى : كنت تحبها ؟

— نعم . ولا ازال .
هى تقول : كان يحبنى !

القاضى : فى وقت من الأوقات كان هناك حب .. وفجأة تغير كل شىء .

الاثنان يقولان فى نفس واحد : نعم ! .

القاضى : منذ متى ؟

الاثنان : منذ أسبوع .

القاضى : وانتما متزوجان منذ متى ؟

الاثنان : منذ أسبوع !

والقضية ليست عاطفية . وانما جلس هذان الزوجان من ابناء البرتغال يحلمان بعدد الأطفال الذى سوف يكون . قالت الزوجة : اريدهم جميعا من البنات . وقال الرجل : بل من الأولاد ..

واتفق الاثنان على ان يكون ثلاثة من الأولاد واثنتان من البنات . وجلس الزوجان يحلمان ويفكران فى أحسن الأسماء . وقالت الزوجة: أنت الذى تحسن الكلام والتعبير . وهذا هو الذى جعلنى أموت فيك هياما .. أنت تختار الأسماء . انا آتى لك بالأولاد والبنات وأنت الذى تسمى هذه الذرية الصالحة ان شاء الله ..

وفجاة صرخ الزوج : وجدت الأسماء ..

وسمعت الزوجة الأسماء وصرخت . ولطمت خديها . وشقت ثوبها .

وقالت : الطلاق .. لا حياة معك . انت رجل مجنون !

اما لماذا هو مجنون فقد أختار هذه الأسماء لأولاده : النمر .. الفيل .. الخرتيت ــ للذكور . أما الاناث : الغزالة .. النسناسة!

ولم يكن الرجل يداعب زوجته . ولا يريد أن يطلقها . وانما هو « ابن عصره » . وفى ذلك العصر انشــغل ابناء أوربا بالحيوانات القادمة من الشرق . ورأوا فيها أجمل وأروع ما خلق الله .

صحيح أن كولمبوس اكتشف أمريكا ولكنه فتح ابواب الشرق :الى افريقيا وآسيا .. والى الهند .. واصبح كل الذين يرتادون الطرق الى الشرق السحرى ، اهم من الذين يزحفون على أمريكا ، بل ان الرحلة فاسكو داجاما اهم من كولمبوس .. وافريقيا اهم من أمريكا .. وهزيمة الاسطول التركى فى المياه اليونانية ، اروع عند الاسبان من كل معاركهم وفتوحاتهم .. واصبحت هدايا قبائل افريقيا أعظم واغلى عند اهل البرتغال من كل ما يجىء من مستعمراتهم الكبرى : البرازيل ..

وفى القرن السابع عشر اعلن أديب اسبانيا العظيم سرفانتس :ان مدينة لشبونة هى مركز الدنيا . اليها يجىء الذهب . ومنها يخرج الرجال الى مجاهل الشرق الساحر الباهر ..

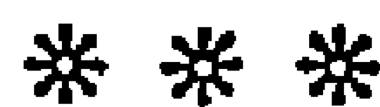
وأصبح من مظاهر الثراء عند الناس فى أوربا أن يستعرض كل منهم ما لديه من حيوانات غريبة .. فكان الذى يمشى فى شــوارع مدريد يرى الحيوانات من نوافذ البيوت .. ويرى الطيور الملونة .. وبسرعة تحولت القصور الى حظائر للحيوانات الافريقية ..

ومن الغريب أن هذه الحيوانات لم تظهر فى لوحات الفنانين . ولكن فى حالات نادرة ظهرت بعض الطيور بألوانها الزاهية .

وكانت اشهر الحيوانات التى لفتت الاوربيين وشغلت الصيادين: الأسد والفيل والنمر والضبع والنعامة والخرتيت .

وكان الامبراطور الألمانى فريدريش الثانى (١١٩٤ — ١٢٥٠) من اكثر الناس حبا للحيوانات . وكان يقيم لها حديقة ملحقة بقصره . وحدائق الحيوانات عادة استعارتها أوروبا من ملوك الشرق .

وبعد ذلك تعود الناس فى أوروبا أيضا أن يجدوا حدائق للحيوانات ملحقة بقصور الملوك والنبلاء . وربما كانت أشهر حدائق الحيوان فى أوروبا يملكها البابا بيوس العاشر (١٨٣٥ — ١٩١٤) وهو واحد من أسرة مديتشى الشهيرة العريقة . وكان هذا البابا يحب الحيوانات ويرعاها ويدعو الى الرحمة بها والعطف عليها . وكان يعطف على الفنانين . « فالفنان حيوان يحب الحيوان . لانه يحب الحياة وجمال الحياة وحكمة الله » .



وحدث قبل ذلك عندما زار البابا بيوس الثانى (١٥٠٤ — ١٥٦٤) احد النبلاء من اسرة مديتشى أن اقام له موكبا فخما .وجعل الحيوانات تتقدم هذا الموكب . ووقف الناس يتفرجون على هذه المخلوقات العجيبة . وكان عدد هذه الحيوانات كبيرا . ولكن لم تكد الاسود ترى بعضها البعض حتى افلتت من قيودها . وتحولت الى اشلاء ودماء .. الا زرافة . هذه الزرافة كانت هدية من احد سلاطين مماليك مصر الى أسرة مديتشى . ويقال ان احد الشعراء قد ارتجل قصيدة عندما جاءت هذه الزرافة الى مدينة فلورنسه .

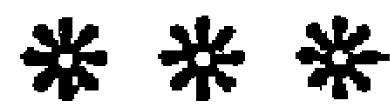
يقــول فى قصــيدته : طــال كل شىء فيــك . عنقــك وسيقانك الاربع واذنك وانفــك .. امـــا عينـــاك فهما مسروقتـــان من وجه حبيبتى .. اما لونك فمســـتعار من براكين صــقلية .. أما مقامك العالى فلا يعيبه الا أن رأسك صغير وعقلك ايضا .. ولكن ليس من الضرورى ان يكون الجميل عاقلا .. يكفى أن يكون الجمال والجميل اكبر لصين لكل العقول » .

وهناك يوم فى تاريخ الانسان أو فى تاريخ المغامرات أو فى تاريخ الحيوان لا ينساه احد عندما أرسل ملك البرتغال مانويل هدية الى بابا الفاتيكان بيوس العاشر . الهدية : فيل واثنان من النمور وضبع قد ركب حصانا عربيا . أما الخرتيت الذى أرسله الملك مانويل فقد غرقت به السفينة فى البحر الأبيض .. ويقال أن الخرتيت ظل يضرب السفينة حتى خرقها واندفعت المياه . والقى الخرتيت بنفســـه فى البحـــر ..

ومشى الموكب فى شوارع روما .. والناس يتفرجون على أعاجيب الهدية الافريقية . ودقت أجراس الكنائس .. ووقف البابا يشير الى أن تضرب المدافع .. وانطلقت المدافع ووقف الفيل على رجليه الخلفيتين ورفع زلومته الى أعلى يحيى البابا والكرادلة أمراء الكنيسة .. وبسرعة تقدم احد الحرس الملكى البــرتغالى بثلاثة جرادل من الماء المعطر .. ووضعها أمام الفيل .. ومد الفيل خرطومه وملأه بالماء وراح يرش البابا والكرادلة والناس يصرخون من الفرحة .. وكان يوما مشهودا فى تاريخ الحيوان ، والعلاقة بين عرش البرتغال وكنيسة روما !

وارهق رجال الدين انفسهم فى شرح ما حدث . قالوا : ان الفكرة

هى أن يدرك الانسان بوضوح انه مهما كانت الحيوانات قوية ، فان الانسان هو الأقوى بذكائه . ان هذه الحيوانات قادرة على سحق أقوى الرجال ، ولكن الحيلة تغلب القوة . والذكاء يقهر الوحوش . . فهذه الحيوانات كلها قد احتال عليها الانسان وأتى بها من غابات لتكون ذليلة ذلولا أمام أصغر الأطفال . ثم أنها مخلوقات الله . ومن الواجب العطف عليها ومحبتها !



وأول مظهر من مظاهر الحب والعطف والاعجاب كان بالحصان. ان تاريخ الحصان والانسان طويل . فالحصان فى العصور الوسطى كان « أداة » عسكرية يركبه الجندى المغطى بالحديد ، ويتغطى الحصان بالحديد ، ويدخل الاثنان المعارك حتى الموت ــ الحصان هو الذى يموت غالبا . وكان من الصعب على الانسان أن يرى ملامح الحصان فهو مثل دبابة ذات أربع أرجل . ولكن أحدا لم يلتفت الى جمال ورشاقة هذا الحيوان النبيل . فهو وسيلة لشىء ، ولم يكن غاية . فلا أحد قد فكر فيه ، أو التفت اليه . . أو نظر الى تركيبه الجسمى الجميل أو الى خطوته . . وانما كان الحصان مصفحة أو قذيفة يركبها المقاتل .

ولكن بعض النبلاء الايطاليين فى القرن السادس عشر تنبه فجأة الى أن هذا الحيوان الجميل.يقول النبيل الايطالى فدريكو جريسونة فى مذكراته : « كل شىء حدث فجأة . وكأننى لم أر الحصان فى حياتى قط . . لقد نظرت اليه . . وتأملته . . واحسست كأننى نبى مكلف بانقاذ هذا الحيوان من الانسان . . فهذا الحيوان شكله جميل ،

وخطوته قوية ناعمة . وحركته رشيقة .. وهامته مرفوعة .. انه واحد من النبلاء هجر حياة الانسان واحتبس فى هذه القلعة الفخمة من اللحم والشحم . ان هذا الحيوان أسير، وأنا الذى سوف أحرره»

وبدأ النبيل جريسونة يعلم الحصان كيف يخطو . وكيف يقفز من فوق الحواجز .. وافتتح مدرسة لتعليم الخيول . أو على الأصح ليعلم الناس كيف يعاملون الخيول، بما تستحقه من التقدير والاحترام والحب ..

وانتشرت اخبار هذه المدرسة . وجاء النبلاء . وجاءت الخيول وتعانق الانسان والحيوان فى اطارات من الحركة الجميلة . ويمكن ان تسمى هذه الحركة الفروسية : أى أن يكون الانسان فى سمو الحصان وفى جماله .. وان يكون شهما نبيلا . محبا للحياة والحيوان والانسان ..

ومن بعده جاء رجل ايطالى آخر اسمه بنياتللى . هذا الرجل هو الذى وجه الدعوة الى بلاط الملوك والامراء وهو الذى وجد الشجاعة ليقول : « مولاى » صاحب الجلالة يجب ألا يكون القصر الملكى زريبة للخيول . وانما يجب أن يكون مقرا شتويا وصيفيا لعدد من الأصدقاء الأوفياء لهم أربع أرجل وذيل وعنق وبشرة حريرية لامعة .. يجب ان يكون النبلاء والامراء أصدقاء للخيول ، أى أصدقاء لطراز من الكائنات تعلمت منها معنى الشرف والشهامة والشجاعة والجمال والاناقة .. مولاى صاحب الجلالة .. ان كل قصر يضم خيولا تأكل وتشرب من اجل أن تموت فى القتال ، ليست الا مجزرة الا زريبة ملكية .. مولاى انت حر فى اختيار أصدقائك واصفيائك .. ولكن

يجب ، يا مولاى ، الا تنسى هذه العبارة التى تعلمتها من الخيول :قل لى كيف تعامل حصانك اقل لك من أنت » .

وجاءت الخيول بالمئات والنبـــلاء بالالوف الى « أكاديمية تعليم الانسان كيف يمشى كالحصان » فى مدينـــة نابلى الايطالية . وكان بنياتللى يعلم الخيـــول كيف تمشى على الايقاع الموســـيقى . وكيف ترقص وحدها .. أو قد امتطاها أحد النبلاء .. ان عصرا من احترام الانسان للانســان أو للحيوان قد بدأ .. وكانت البداية هذه المعاملة النبيلة لحيوانات اكثر نبلا هى : الخيول !



ولاسباب متعلقة بمزاج الشعب الاسبانى ، لقيت الثيران نوعا آخر من المعاملة . فمصارعة الثيران قديمة . ويقال قديمة جدا لدرجة أن علماء الآثار يجدون نقوشا على الكهوف القديمة لثيران قدأصابتها السهام . رهى تنزف وتجرى .. والانسان لم يظهر فى هذه النقوش. اما لانه من المفهوم انه هو الذى أصابها ، أو لان رسام النقوش أراد أن يقول أن الثيران كانت اسرع منه فى الهرب لدرجة أنه لم يستطع أن يلحق بها فيظهر فى هذه النقوش !

ويقال أن هذه الثيران متعددة الاصـــول . بعضها ثيران أوربية وحشية .. وبعض هذه الثيران جاء من افريقيا ..ومن مصر . وبعض الثيران تشبه الأبقار الفرعونية القديمة .

وقصص ،الثيران ونوادرها فى تاريخ أسبانيا والبرتغال كثيرة جدا،

ولاتزال .. يقال أن الملك الفونسو السابع ، أحد ملوك البرتغال أقام مصارعة للثيران بمناسبة تتويجه . ولم يكتف بالدماء التى سالت فى هذه الحفلة ، فقرر أن يتولى هو اطلاق السهام على عشرين ثورا حتى قتلها والجماهير سعيدة بمهارة مليكها !

وعندئذ ولد للملك الاسبانى كارلوس الخامس ابنه فيليب الثانى سنة ١٥٢٧ قرر الملك بهذه المناسبة السعيدة أن تقام مصارعة للثيران . وان يكون هو فارسها الأوحد . وظل يقتل من الثيران حتى همسوا فى أذنه بأنه لم تبق فى المملكة ثيران . قال : اذن تؤجل الحفلة يا سادة الى أن تجىء ثيران أخرى من بلاد أخرى !

ويقال أن السياسى الايطالى الكبير الاسبانى الاصل شيزاره بورجيا (١٤٧٦ ــ ١٥٠٧) قرر أن يتسلى فى احدى الليالى . وكان له عشرون ثورا فى احدى القلاع .. فظل يطلق عليها السهام حتى قتلها فى ليلة بدأت بغروب الشمس حتى مطلعها . فنقلوه الى فراشه مرهقا وهو يقول : لقد كان عملى شاقا هذه الليلة !

وكان من عادة النبلاء فى أسبانيا أن يصارعوا الثيران وهم على ظهر الخيل . حتى اذا هاجمتهم الثيران أفلحوا فى الهرب منها . وفى عصر الملكة ايزابيلا غطيت قرون الثيران . ولكن الجماهير لم تسعد بذلك .. فاهتدى الأسبان الى طريقة جديدة تجعل قرون الثيران حادة مدببة لكى تكون مفزعة لمصارعى الثيران وللمتفرجين ..

وفى البرتغال كانوا يضعون طبقة من الجلد على قرون الثيران ..

وعلى الرغم من أن مصارعة الثيران نوع من الرياضة العنيفة ،

فان شكلها أقرب الى الصيد منه الى الرياضة. فالمصارع لايداعب الثور بعنف ، وانما هو يصيده ، ويقتله فى النهاية .. فهم يضعون الثور فى حظيرة مظلمة لبضعة أيام ثم يفتحون الحظيرة فجأة ويخرج الثور الى النور . ثم يجيء من يمسك له غطاء أحمر داميا .. ثم من يضربه بالرماح .. ثم يصيب كتفيه ويسيل دماؤه .. كل ذلك لكى يثور الثور . فاذا ثار وهاج ، تقدم الفــارس أو « المتادور » — ومعناها الجزار — وراح يعاكس الثور ويدور به حتى يدوخ . فاذا داخ انقض عليه .. ومن العجيب أن الثور يخرج من الحظيرة مرهقا. وكأنه يعرف ما سوف يحدث له ، فانه لا يريد أن يشترك فى صراع مع أحد .. بل انه يريد أن يهرب من النور الى الظلام ، غير أن باب الحظيرة قد أغلق .. وليس له الا أن يقاوم ، وهو مرهق تماما .. فكأن المصارع قد خرج يصارع حيوانات مكدودة . ولكن الجماهير تصرخ .. وأحيانا الأعيرة النارية .. ولابد أن يقتله ، سواء صارعة أو لم يصرعه .. لان الجماهير لا ترضى بما دون الدم وموت الثور. والرقص والغناء للبطل الذى قتل الثور أمام ملايين العيون فى كل مكان.

وأصبحت مصارعة الثيران مهنة . حرفة .. غالية الثمن .. ومربحة . واصبح للثيران تاريخ . وهم يحرصــون على اختيارها وتربيتها . وهم لا يطلقون سراح الثور بعد المعركة ، ولا يحيلونه الى التقاعد ثم يأكلون لحمه بعد ذلك .. لابد أن يموت !

وحاولت أسبانيا كثيرا أن تشغل الناس بمصارعة الديوك .. ولكن هذه المصارعة موجودة فى المستعمرات الاسبانية القديمة .. نجدها فى الفيلبين ، وبعض الجزر الآسيوية .. وهذه المصارعة تلقى نفس الاهتمام ، ولكن أحدا لا يستطيع أن يقيم مصارعة للثيران لانها غالية الثمن .. ولكن هناك مقامرات على الديوك التى تشترك فى

المصارعة أو فى القتال .. ويضعون الأمواس والسكاكين القاطعة فى ارجل الديوك . فلا يكاد يبدأ الشجار بين الديوك عندما ترتفع فى الهواء وتضرب الخصوم بأرجلها ، حتى تسيل الدماء ..

وبقيت مصارعة الثيران هى « الرياضة » العنيفة التى يقبل عليها الأسبان .. ويعرفون تاريخ ثيرانها وابطالها .. هؤلاء الأبطال الذين اثاروا الفزع بين المتفرجين : وفازوا بالمال والمجد فى النهاية ، من مئات السنين ، وحتى اليوم !



من يعرف الإنسان كثيراً يحترم الحيوان أكثر !

ه على باب احـــدى خلايا النحل وقف رجل انجليزى فى دهشة . وانتهت دهشته بان صرخ، فقد لسعته نحلة . وعاد الى البيت ليقول : شىء فظيع . كذب كل ما قاله الشعراء . الحقيقة شىء آخر .. ان هؤلاء الشعراء قد أخروا الحضارة الانسانية الوف السنين . لو أستطيع أن أجمعهم فى مكان واحد وأطلق عليهم النحل .. لو أستطيع ذلك لأرحت الانسانية كلها ! ..

ولم يستطع هذا الكاتب مندفيل أن يحشر الشعراء فى خلية واحدة ويستريح منهم . ما الذى حدث لهذا الكاتب الانجليزى سنة ١٧٢٠؟ لقد رأى احدى خلايا النحل . ووجد بها حركة ونشـــاطا عظيما . وفجأة وجد النحل يتزاحم على دبور ، طردوه . ثم عاد الى الخلية. طردوه وعاد مرة ثانية وأخيرا تكاثر النحل عليه .. وســـقط الدبور ميتـــا !

واندهش الرجل كيف يحدث هذا فى مملكة النحل . كان رأيه مثل

الشعراء انها مملكة تصنع العسل بالدموع . مملكة تكرم المرأة وتقبلها حاكمة عليها .. وان خلية النحل تطعم الملكة لتكبر الملكة ويتحول الجميع الى خدام لها .. كل ذلك يتم فى هدوء وسلام .. والنتيجة عسل . ولكن هذا الحادث الاليم جعله يعاود التفكير فى أحوال هذه الخلية .. واصدر الكاتب الانجليزى كتابا عنوانه « خلية النحل أو كيف تتحول الرذائل الشخصية الى فضيلة عامة » يقول:

هذه الخلية قائمة على الظلم . فالنحل الشغال يعمل . وهناك أنواع أخرى من النحل لا تعمل . وانما تدور حول الملكة ونحميها وتتابعها . النحل الشغال يجمع الرحيق من كل مكان ويفرزه ولا يذوقه . والملكة لا تقوم بأى دور سوى أن تأكل وتشرب وتبيض ويقول فى كتابه ايضا ان النحل طلب من آلهة الاغريق أن تعاونه ولكن الآلهة تعبت من انقاذ النحل من نفسه وخربت الخلايا وماتت الملكة واحترق النحل الشغال . أما الدبابير فقد أوت الى جذع نخلة وعاشت أياما لتموت بعدها بقليل .

وهاجت الحكومة الانجليزية ولعنت هذا الكتاب واتهمت المؤلف بأنه يريد افساد الاخلاقيات العامة .. وانه يهاجم النظام الملكى .. وانه يريد أن يشوه كل شىء جميل فى هذه الدنيا .. وانه هو الذى يقوم بدور الدبور وانه سوف يلقى نفس المصير .. ولم يلقى الرجل نفس المصير ، وانما عاش الكتاب بعد ذلك مئات السنين كصورة جميلة لمحاولة اصلاح الانسان !

وبعد ذلك بسنوات ظهر قسيس ايرلندى اسمه سويفت . وقد وضع فى جيبه نسخة من كتاب مطبوع تحت اسم مستعار ، اسم

ابن أخيه . الكتاب اسمه : « رحلات فى بلاد بعيدة لجيلفر ، كان طبيبا أول الأمر ثم بحارا لعدة سفن بعد ذلك .. » ومن مغامرات جيلفر هذا أن سفينته قد رست عند أرض سكانها من الخيول ان الخيول أذكى واشجع واعقل واكثر نبلا . ولكنها تجد صعوبة فى الكلام . وفى هـــذه الأرض ســـمع عن حيوان منحط غبى . وان هـــذه الخيول تحاول أن تروضه وان تعلمه ولكن يبدو انه لا أمل فى ذلك .. هذا الحيوان الذى تسميه الخيول « ياهوه » ليس الا الانسان نفسه !

كان جيلفر يريد ان يقول : أن الانسان ليس اسمى الحيوانات . وانما هو حيوان من نوع ردىء ولكنه لن يتأكد من ذلك الا اذا سافر الى بلاد أخرى .

وعلى الرغم من أن رحلات جيلفر من اروع الاعمـــال الأدبيـــة والفلسفية ، فان هذه الرحلات قد أصبحت قصصا للاطفال ذات دلالة أخلاقية . أو ذات مغزى فلسفى .. ولكنهارغم ذلك من الاعمال الأبقى والأمتع .

وقبل هذه المقارنات الســـاخرة بين الانسان والحيوان ، أو بين الانسان والحشرات ، وجدنا فى عصر النهضة تساؤلا استغرق مئات السنين : لماذا نجد الانسان يقتل الانسان ، ان الحيوانات لا تفعل ذلك ؟ أيهما الحيوان : الانسان أم الحيوان ؟

وكانت الاجابات كثيرة .

فمن بين الاجابات فى عصر النهضة ان الانسان حيوان لانه قليل

الدين . ولو عرف الدين ، لارتفع بالايمان عن مستوى الحيوان .ولكن الانسان حريص على كفره ، فأصبح هـــذا الحيوان الكريه . وان الانسان قد حلت به لعنة الخطيئة الاولى . خطيئة آدم فى الجنة عندما اكل من الشجرة التى حرمها الله عليه وعلى زوجته .

ثم ظلت المقارنة بين الانسان وبين الحيوان فترة طويلة . فاذا أراد الانسان أن يفهم نفسه نظر الى هذه الحيوانات . لان هـــذه الحيوانات ليست الا نوعا من الانســـان عاجزة عن التعبير ولانهـــا عاجزة عن التعبير فهى عاجزة عن الكذب واخفاء مشاعرها . فهى اصدق من الانسان . اى ان الحيوان هو الانسان قبل أن يتعـــلم الكذب . فالحيوان افضل من الانسان .

واكن المعنى فى كل عصر النهضـــة الاوربية هو هذه العبـــارة البليغة التى قالها الفنان بأوبوتس من الوف السنين : الانســـان ذئب لأخيه الانسان Homo homini Lupus .

وحتى عندما قال الفيلسوف العظيم ارسطو : ان الانسان حيوان سياسى Zooir Politikon.
لم يكن بذلك يرفع من قدر الانسان وانما اراد ان يقول أنه حيوان لايستطيع أن يعيش بمفرده . ولكن لابد أن يعيش مع الآخرين وبهم— والحيوانات تفعل ذلك أيضا !

فقط عندما ظهر الساخر الفرنسى الكبير مونتنى بدأ الفكر الانسانى كله يتجه ناحية أخرى . فهذا الفيلسوف الفرنسى يقول : لا أظن أن الانسان افضل من الحيوان . انه أحط من الحيوان . واعتقـــد

اننى تجنيت على الحيوان عندما وصفنه بأنه منحط . فالانسان هو الذى قال انه اسمى من الحيوان . وهو قال ذلك لانه مغرور فقط .

فلا توجد صفة واحدة عند الانسان لا نجد صفة أفضل منها عند الحيوان فالحيوان أقوى وأشجع . وأكثر تضحية من أجل الزوجة والابن . أن ذكور الذئاب تفدى اناثها وصغارها بالموت فى مقدمة القطيع ودفاعا عن الجميع .. وان الحيوانات أكثر نبلا من الانسان .. ان الطيور تفرغ بطونها فى بطون صغارها وتكاد تمـــوت من الجوع .. ان الاسد يصيد الفريسة ثم يتركها لبقية الحيوانات فى الغابة ويجد المتعة الكبرى فى ان يرى الجميع نفعل ذلك .. أرونى حاكما يفعل ذلك من أجل شعبه !

ثم ان الحيوانات محبة للسلام . انها لا تشن الحروب . ولاتعتدى على أحد . كل ما تريده هو أن تظل فى مكانها تأكل وتشرب فى هدوء .. الا اذا هاجمها أحد . ويكون هذا الاحد هو الانسان عادة . فهو الغاشم المعتدى والحيوانات هى الضحية !

واذا اشتبكت الحيوانات مع الانسان فى عراك فلبعض الوقت ، وبعد ذلك تهدأ أو تسكن كأن شيئا لم يحدث ، وكأن دماء لم تسل ، وكأن صغارا لم تمت .

وتوجد حيوانات يساعد بعضها البعض .. يقول مونتنى : انه رأى عددا من الطيور المهاجرة قد تقاربت وتلاحقت لانها تحمل طائرا مهيض الجناح . ورأى هذه الطيور تقوم بعملية تدليك لعضـــلات الطائر .. فهى تشد ريشه بمنقارها .. ثم ترخى هذا الريش مرة

بعد مرة .. ثم تبلل جراحه بريقها .. يوما بعد يوم .. حتى تمكن الطائر من الارتفاع فى الجو .. ولما لم يستطع أن يطير ، عادت فحملته على أجنحتها وركبت الهواء !

ويروى الفيلسوف مونتنى ان هناك حيوانات لها ذكاء الانسان . ولها خبثه ايضا . ولكن الانسان قد تفوق على الحيوان بخياله وقدرته على الابداع ..

والفضل الوحيد للفيلسوف الفرنسى مونتنى هو أنه لفت العيون والافكار الى الحيوان والى الانسان .. والى تقريب المسافة بين الاثنين .

واهم من ذلك يقول مونتنى : كل ما عملته هو اننى سحبت الانسان من أنفه ووضعته فى اقفاص الحيوان وتركته هناك . ثم نظرت الى الناس جميعا لاقول لهم : تعالوا نختبر ذكاءنا جميعا : اين هو الانسان واين هو الحيوان !

ومونتنى هو أول من وضع أسس « علم النفس الحيوانى » أو علم نفس الحيوان .

وكثير من أفكار الفيلسوف الفرنسى مونتنى ليست جديدة ولكنه استطاع بسخريته الشديدة وذكائه الحاد ان يضعها فى عبارة جميلة .

ولكن هل للحيوان « نفس » كالتى للانسان ؟ هل الانسان فقط

هو الذى له نفس وله روح .. اى ان الحيوان بلا نفس ولا روح وانما مجرد حياة : ان يولد ويكبر ثم يموت دون أن يدرى من هـــذه الدنيا شيئا ؟

مفكرون كثيرون قالوا : الحيوان ليس له نفس .. الانسان فقط هو الذى له نفس عاقلة . انه يتكلم . يكتب . يتخيل . أما الحيوان فليس « له نفس . واذا ضربته على رأسه فلن يقول : آه .. وما دام لم يتوجع هكذا فليس له احساس !

وهناك فرق كبير جدا بين كلب يقف امامك يلعب بذيله يريد منك قطعة لحم ، وبين طفل ينظر اليك يريد نفس الشيء .. الطفل فقط هو الذى يعرف معنى اللحم والفرق بين اللحم والعظم !

وجاء فيلسوف المانى كبير اسمه ليبنتس يقول : لا فرق بين الشاعر والحمار .. كل واحد منهما جسمه مكون من ذرات . هذه الذرات هى بذور الحياة نفسها . فالانسان هو هذه الأشـــياء الصغيرة . والحيوان كذلك . ولكن ذرات الانسان أو « بذور حياة » الانسان احسن او اعقل من (بذور حياة) الحيوان .. ولكن كل انســـان وحيوان مكون من بذور الحياة أو زرات الحياة . أو من الحيـــاة البذرية او الحياة الذرية .

ولما ظهر الميكروسكوب ونظرنا الى الخليـــة الحية الميتة .. أو الحيوان المنوى للانسان والحيوان كانت النتيجة واحدة .. فتحت الميكروسكوب توجد حياة تروح وتجىء هذه الأشياء الصغيرة الحية

هى « فتافيت الحياة » وكل شىء فى الدنيا يبدأ من هنا .. ولا فرق بين الخلية لانسان أو حيوان أو نبات .. فالكل واحد . والله اراد أن يكون كل شىء واحداً . هذا الكل الواحد دليل على قدرة الله .. فالكل أمام الله صغير جدا .. فالانسان ليس اكبر من الحيوان ، والحيوان ليس ارفع من النبات .. الكل ليس الا كلمات او مفردات فى قاموس الكون الأعظم من تأليف الله جل جلاله !

ومن ستة قرون فى أوروبا وصفوا الحيوان بأنه آلة .. مجرد تكوينات فوق بعضها البعض تروح وتجىء .. انظر الى الكلب .. انه ظلك .. يمشى وراءك ولا يفكر فى هذا الذى يفعله .. والقطة .. والحيوانات المفترسة تراك فتهرب .. أو تراك فتهجم عليك دون أن تقدر أن كان الذى فى يدك عصا أو مدفع .. انها آلات مندفعة ــ فلا عقل لها !

واصبحت كلمة « الآلة » صفة للحيوان ، واهانة للانسان طبعا. حتى تقدمت صناعة الآلات فى القرن الثامن عشر .. واصبحت الآلات دقيقة ومعقدة . وقائمة على كثير من النظريات الهندسية . هنا فقط أصبحت كلمة الآلة شرفا للانسان اذا وصفناه بها . بل الانسان يتمنى لو كان آلة دقيقة مضبوطة . تعمل باتقان ولا تحابى أحدا . وأصبح المجتمع كله جهازا ضخما ، او يجب ان يكون كذلك .. ولذلك لم يعد الحيوان آلة . ولم يصبح الانسان آلة ، وانما هو يحلم بان يكون فى استمرارها ونزاهتها !

وكانت فلسفة القرن الثامن عشر ردا عميقا عمليا على فلسفة رجل فرنسى اسمه « لا مترى » . هذا الرجل يقول ان الانسان

والحيوان كليهما آلة . وانه لا فرق بين انسان وحيوان . وانما الحيوان كان من الممكن أن يكون انسانا لو اعطى الفرصة .. تماما كما أن الخادم كان من الممكن أن يكون السـيد ، وان يكون السيد خادما لو تغيرت الظروف . اذن : أعطوا الحيوان الفرصة لكى يكون انسـانا ايها الناس !

ويقول لامترى أيضا : القرود : مثلا ما الذى ينقصها ؟ الكلام ! لو روضناها لو دربناها لقالت كثيرا كالانسان !

ويقول أيضا : أن هناك انواعا مختلفة من الحشرات اذا حطمتها دبت الحياة فى كل جزء من أجزائها .. الدودة تقسمها نصفين .. كل نصف يتحرك وكأنك لم تفعل شيئا .. ولكن الانسان اذا قطعت يده أو ساقه .. ماتت اليد والساق .. واذا انكسر رأسه او نزعت قلبه مات .. ومعنى ذلك ان حياة الانسان أضيق نطاقا .. وانه أسهل كسرا وموتا من أحقر الحشرات .

والذى قاله هذا المفكر الفرنسى ليس دقيقا . ولكنه اثار الكنيسة واغضب المجتمع السياسى فى فرنسا واستدعاه الامبراطور الالمانى فريدريش الاول وطلب اليه ان يبقى بعيدا عن الغضب الفرنسى على كل المستويات . والمفكر لامترى لا يعرف أن عددا كبيرا من العلماء حاول يائسا أن يعلم القرود كيف تنطق ، فلم يفلحوا . فالقرود عاجزة تماما عن الكلام .

ثم ان ما تحتاجه الدودة من مراكز عصبية بسيطة يجعلها تتحرك

يمينا وشمالا بنصفها أو ربعها .. ولكن الانسان جهاز شديد التطور وشديد التعقيد .

وكانت وفاة هذا الفيلسوف نكتة ضحكت لها أوروبا وشمتت فيها الكنيسة وقتا طويلا . أن وفاته تذكرنا بوفاة الخديو المصرى اسماعيل فقد جلس هذا الكاتب مع بعض اصدقائه . وكانت أمامه فطيرة محشوة بالتفاح وزجاجة من الشمبانيا . وكان يملأ فمه من الشمبانيا وتراهن مع اصدقائه انه يستطيع أن يدخل الفطيرة فى فمه دون ان تسيل قطرة شمبانيا من بين شفتيه .. وفعلها مرة وفى المرة الثانية ، مات مختنقا اما الخديو اسماعيل فكان يضع زجاجتين من الشمبانيا فى فمه وقد استلقى على ظهره وجعل يفرغ الزجاجتين فى وقت واحد — ومات هو أيضا !

ولكن الشعور العام فى اوروبا فى العصور الحديثة : أن الحيوان اكثر نبلا من الانسان — منتهى اليأس من الانسان !

ولم يكن الفيلسوف الالمانى المتشائم شوبنهور مبالغا عندما فكر قبل أن يموت بقليل ان يلقى بأمواله فى البحر ولما سئل عن ذلك قال : ان احدا لا يستحقها من بعدى !

ولما سئل مرة اخرى : ولا حتى كلبك !

فنهض واقفا : انا الكلب حقيقة . فقد نسيت هذا الذى اخلص لى فى كل الظروف !

ثم اوصى بأمواله كلها الى كلبه !

والفيلسوف الالمانى نيتشه كان يحب الفتاة اليهودية سالومى وكان ينافسه فى حبها العالم اليهودى فرويد والشاعر الالمانى ريلكه .. ولم يتفق الثلاثة على شيء لانهم جميعا مختلفون تماما .. واخيرا قرروا أن يقيموا لها حفلة تكريم .. فأتوا بعربة واركبوها العربة واعطوها كرباجا .. ثم سحبوا العربة .. كأنهم خيول أو حمير لها !

وعندما ذهب الفيلسوف نيتشه الى مدينة ميلانو الايطالية رأى فى ميدانها العام حصانا جميلا .. فراح يجرى وراءه ويصرخ ويعانقه : يا انبل كائن يمشى على أربع أو على اثنتين !



هو يسقط والريش يطير !

« لو كان يقول أى شىء » — ولم يقل حيوان الكانجرو اى شىء . وانما ظل الكابتن كوك الذى اكتشف استراليا وعشرات الجزر يتأمل هذا الحيوان العجيب الذى ليس له نظير فى القارات الأربع . وكتب فى مذكراته يقول : له رأس غزال وله ذيل طويل واذا مشى فانه يقفز كالضفدعة .

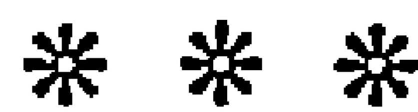
ثم مضى الكابتن كوك فى وصف هذا الحيوان . كيف يأكل وكيف يشرب . ورغم قدرته الهائلة على الملاحظة فانه لم يتنبه الى أن هذا الحيوان يحمل صغاره فى جيب فى بطنه . ولم يعرف ان هذا الحيوان الذى يصل طوله الى عشرة أقدام عندما يضع صغاره فان الواحد منها يكون طوله بوصة فقط !

ولم يكن هذا هو الحيوان الوحيد فى استراليا او القارة الجديدة ، وانما هناك حيوانات أخرى انقرضت مثل هذا الحيوان الذى كان يصيده البدائيون ليأكلوا لحمه ويصيده الأوروبيون ليسلخوا

جلده .. والبدائيون هم الذين أطلقوا عليه هذا الاسم . ويقال أن سبب هذه التسمية أن هذا الحيوان عندما يولد فانه ينطق كلمة : كانج .. وعندما يموت فآخر كلماته كلمة : رو ..

ومعنى ذلك أن البدائيين يريدون أن يقولوا أن الحيوان يولد ليموت! ـ هذه العبارة قالها الفلاسفة الوجوديون فى خمسينات هذا القرن وصفقنا لهم طويلا لاكتشافهم هذه الحقيقة المؤلمة !

وعندما زرت حديقة الحيوانات فى مدينة سيدنى باستراليا لم أجد الا ثلاثة من الكانجرو . وسألت ان كان هذا الحيوان قد أصبح نادرا . فكان الرد نعم . حتى أن جزيرة فى مدخل خليج سانت فنسنت اسمها « جزيرة الكانجرو » أصبح الآن اسمها : جزيرة الكانجرو سابقا .. أو جزيرة الـ .. حيوان الذى كان هنا !

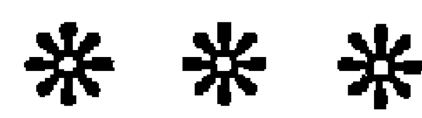


وأهم ما جاء فى مذكرات الكابتن جيمس كوك فى سنة ١٧٧١ هذه العبارة : انشغلنا جدا بهذه الحيوانات الغريبة والطيور العجيبة ومن أين جاءت وكيف جاءت .. ولكن لم يتسع وقتى لفهم أشياء كثيرة فمن الاشياء التى الاحظها ان حيوان الكانجرو هذا اذا مرض امتنع عن الطعام ، وانزوى وحده وأبعد صغاره عنه .. وأحيانا تجىء اناث أخريات وتتولى كل واحدة اطعام هذه الصغار .. واذا أحس هذا الحيوان بأنه سوف يموت ، فانه يحفر الارض بقدميه الاماميتين .. وكلما كانت الحفرة عميقة كان اقترابه من الموت .. فاذا مات فانه يتمرغ فى حفرته .. ولا يسكن تماما الا وقد

انهال عليه التراب كله . . كأنه حفر قبرا ثم دفن نفسه فيه تماما . »

والكابتن كوك يكرر ما شغل العلماء والاطباء من الوف السنين . فهم جميعا كانوا ينظرون الى الحيوان بهيام ويقـــارنون بينه وبين الانسان . وعندما يريدون أن يعرفوا الانسان يفتحون بطن الحيوان . يريدون أن يعرفوا جلد الانسان فيسلخوا جلد الحيوان . يريدون أن يعرفوا ما الذى يضخه قلب الانسان فيفتحوا قلب الحيوان . . ان العالم الفرنسى هارفى عندما اهتدى الى الدورة الدموية كان ذلك عن طريق تأملاته وتشريحاته للحيوانات . . والعالم الكبير مالبيجى عرف التنفس عند الحيوان عندما اخذ يكتم انفاس الحيوان . بل انه قد اهتدى الى الكريات الحمراء عندما رأى ذلك فى حيوان القنفذ . وكان يظن أن هذه الكريات هى أنواع من الدهن . . ثم انه نقل دم الكلاب بعضها الى بعض ، قبل أن ينقل دم الاغنام الى الانسان .

وعندما اهتدى الانسان فى أوائل القرن الثامن عشر الى الجهاز العصبى كان ذلك عن طريق تعذيب الحيوانات بالابر والنـــار ، ليلا ونهار . . هنا أدرك الأطباء والعلماء ، أن الاجهزة التى تحرك الانسان هى نفسها التى تحرك الحيوان . . وان للجميع أعصابا وان هذه الاعصاب تمسك كل اعضائه وعضـــلاته . . وتؤثر على وظائفه ـــ يكفى أن ننظر الى هذه الحيوانات !



ولا شىء يدل على طموح الانسان ورغبته المستمرة فى العـــلو والتخلص من متاعب المسافات بين الناس وبين البـــلاد ، مثـــل اعجابه بالطيور وخفتها ورشاقتها فى الحركة وركوب الهواء . . كل

النقوش القديمة تدل على هذا الاعجاب بالصقور والنسور . ولكن الانســـان نفســـه لم يعجب بالذباب مع انه اعجوبة الحشرات . ! لان الذباب مرتبط فى ذهنه بالقذارة وبأنه يضايقه عند النوم والاكل. واذا نظرنا الى تكوين الذبابة لوجدنا انه يفوق فى اعجازه تكوين النسر .. ان جناح الذبابة تحفة هندسية حيوية . ان سرعة الذبابة فى الطيران والانقضاض تذهل أعظم المهندسين . فسرعتها لا تتناسب مع طول الاجنحة ومع جسمها . ولكن احدا لم يلتفت الى ذبابة . وانما كان الانسان مشـــغولا بالطـــيران .. وعند الاغريق ، وفى اساطيرهم الرائعة حكاية ديادلوس .. كان فنانا قادرا على صناعة الكثير من الادوات التى استخدمها الفلاح والطبيب والمهندس .وهو الذى اخترع شراع الســـفن . هـــو ايضـــا الذى اخترع المدفة والسنارة والمصيدة . وكان عبقرية عظيمة . يكره أن ينافسه أحد . ويبدو أن له ابن اخت سوف يكون أعظم ، فألقى به من النافذة ومات الشاب قتيلا . وهرب العبقرى الشرير الى احدى الجزر . وصنع لاحدى الملكات سجنا لا يمكن أن يهرب منه احد ، لكثرة سراديبه . ولكنها لم تأمن اليه . وخشيت أن يهرب ويصنع سجنا مماثلا فى جزيرة اخرى ولملكة اخرى . فحبسته فى هذا السجن . واستطاع ان يصنع لنفسه ولابنه الصغير ايكاروس جناحين من الريش الطويل والصق الريش بالشمع . وهرب الاب وابنه .. ويقال ان ابنـــه ارتفع فى السماء فأذابت الشمس الشمع من جناحيه وسقط الابن ميتا .. اما الاب فنزل فى احدى الجزر . ويقال انهم وجدوه ميتا ووجدوا حبالا طويلة فى عنقه .. ووجدوا فى هذه الحبال عشرات من النسور .. يبدو انه كان يريد هذه النسور أن تحمله .. ان تطير به الى مكان بعيد . ولكن النسور حملته بعض الوقت وشدته جاذبية الارض ، فمات وماتت النسور !

وقد حاول احد علماء الاندلس واسمه عباس بن فرناس أن يطير

ه‍ؤ أيضا . وكانت محاولته فى القرن التاســـع الميلادى . وغطى جسمه بالريش وألقى بنفسه من جبل .. وحمله الريش قليلا .. ثم سقط ميتا وارتفع الريش فى الهواء ..

ولم تمت فكرة الطيران عند الانسان وانما تجددت فى كل العصور .. ففى القرن الثامن عشر فى فرنسا ، حاول كثيرون ان يستخدموا بالونات الورق فى الطـــيران . ولم يفضـــلوا على الورق بالون الحرير . وارتفع الورق وهبط على مدى قريب . وفى سنة ١٧٨٣ ارتفع من باريس بالون ورق . وهبط البالون بعد مسافة عشرين كيلو مترا . ولم يكد الفلاحون يرون البالون الطائر ، حتى ظنوا أن القمر نفسه قد سقط من السماء . واقتربوا منه . ومزقوه . وربطوا البالون المحطم فى ذيل احد الخيول ، وراحوا ينقلونه بين القرى ، احتفالا بالنصر . فأصدرت الحكومة الفرنسية بيانا تصف فيه هذه التجربة وتؤكد اهميتها للانسانية . وانه لا خوف على أحد ولا ضرر له فى ماله وعياله .

وفى ١٩ سبتمبر ١٧٨٣ ارتفع بالون اكبر ومن الورق أيضا . وكان صاحب البالون أكثر خيالا واعنف طموحا . فعلق فى البالون صندوقا من الخشب . وفى الصندوق خروف ودجاجة وبطة . وارتفع البالون . ومضى تحمله الريح بعيدا . ثم هبط . ونزلت الحيوانات منه سالمة .. وبعد ذلك بسنوات ركب البالون بعض المغامرين وعبروا به المانش . واتجه الانسان الى اساليب وحيل جـديدة فى صـــناعة الاجنحة الهندسية لكى تطير به من مكان الى مكان ابعد وأسرع من الطيور نفسها . ويكفى ان ننظر الى ماركات شركات الطيران العالمية لنجد أن هذه الماركات ليست الا مباراة رائعة فى تصوير معنى الطيران والطيور . فكل هذه الماركات تشير الى خفة الحركة ورشاقتها

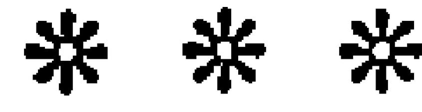
وسلامتها هبوطا من الجو وصعودا اليه .. كأنها طيور آمنة مطمئنة لا خوف عليها ، ولا خوف منها على أحد !

فالاعجاب بالطيور وتقليدها ومحاولة فهمها ليمكن فهم الانسان هو هدف العلماء من الوف السنين . وليست الطيور وحدها التى يريد الانسان أن يتخذها وسيلة لفهم الانسان . وانما كل الحيوانات . ومن أقدم العصور كان الملوك يهدون أطباءهم أناسا مجرمين ليجربوا فيهم المشارط والسكاكين . فالملك كان يفتح السجون للطبيب الخاص ليختار واحدا من هؤلاء النزلاء ليشرح جثته ويعرف ما هى هذه الحياة .. ما القلب ما الكبد ما الامعاء .. ما المعدة .. وكان يحدث ذلك فى مصر الفرعونية وفى فارس القديمة ..

وكان رجال الدين فى كل العصور يحرمون قتل الحيوان بقصد البحث العلمى . وانما يرون القتل للصيد أو للأكل ممكنا .. أما اسالة دم الحيوان وتقطيع أطرافه ، مهما كان الهدف نبيلا فشىء حرام . ولعل الفنان العظيم ليوناردو دافنشى قد هرب الى روما لهذا السبب . فقد كان يريد أن يشرح جثة خنزير أو بقرة ليعرف تكوين السيقان والرأس . وكان يعلم أن رجال الدين يرفضون هذه النظرة العلمية الواقعية للاشياء . ولا يرون فيها الا خروجا على الدين ..

وعندما انتشر القتل بالسم كان الملوك ، وخصوصا لويس الرابع عشر ، يطلبون الى الاطباء أن يذوقوا الطعام قبلهم .. وأحيانا يموت الأطباء ، ثم لجأ الملوك الى استخدام المجرمين واللصوص الذين يعتقلونهم فى مكان خاص بالقرب من القصور .. وأخيرا اهتدى

الاطباء الى وسيلة لانقاذ أرواحهم هم ، فأتوا بالحيوانات يطعمونها ما يقدمونه للملك .. وكان السم أحيانا شديدا فيتلوى الحيـوان تحت قدمى الملك .. فيرفض الملك الطعام أياما من شدة الخوف ..



ومن حوالى مائة سنة فقط ، ظهر شعور انسانى يغمر أوروبا كلها ويدعو الى الرفق بالحيوان والرحمة به . فهو أيضا يتألم ويتعذب مثلنا . والذى يرحم الانسان ، هو نفسه الذى يرحم الحيوان . والذى يقسو على الحيوان هو نفسه الذى يعذب الانسان . ولذلك يجب أن نتواصى بالرحمة بهذه المخلوقات لنكون رحماء بأنفسنا .. والاطفال يجب أن نعلمهم حب الحيوانات ليحبوا بعضهم بعضا .

بل اننا رأينا الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو يدعو الى أن نعلم الاطفال الرحمة بالحيوان حتى اذا كبروا كرهوا القسوة على أحد من الناس ..

وقبل روسو بعشرين قرنا اقام الملك الهندى اشوكا أول مستشفى للحيوانات المريضة ، وجعل علاجها اجباريا . وكان يقول : لا اصدق أن أبا يحب أطفاله ، اذا رأى كلبا مريضا ولم يساعده بلقمة أو قليل من اللبن .. لا أصدق ان الأم لا تأكل بنيها ، اذا رأت هرة تلد ثم القت عليها بالتراب ، لانها تتشاءم من منظر الحيوان وهو يلد !

وفى أيام الحروب كانت تقام الحظائر للخيول . ولكن اذا مرض حصان قتلوه . حتى لا تنتقل عدواه الى بقية الخيول !

حتى كانت سنة ١٧٤١ . فى هذا العام اقام رجل فرنسى اســمه كلود بوجيلا مدرسة يعلم الناس فيها كيف يعالجون الحيوانات . مدرسة للطب البيطرى . صحيح كانت هناك محاولات مماثلة وضيقة النطاق فى هولندا او سويسرا أو بروسيا . ولكن هذه المدرسة الفرنسية اكتسبت شهرة عالمية . وجاءها طلاب الطب والعلاج من كل مكان. وكانت هذه المدرسة تنصح الطالب : بأن يكون انســانا فى معاملة الحيوان .. وان يؤمن ايمانا مطلقا بأن هذا الحيوان ، لأسباب لا نعرفها ، عاجز عن الكلام .. أى عاجز عن الشكوى من العطش والجوع أو الالم .. وان هذه الحيوانات تحب من يحبها ـــ والكلب اكبر دليل على ذلك . وأن فى هذه الحيوانات شهامة ونبلا ـــ الحصان اقوى دليل على ذلك ..

وظهر من هذه المدرسة عدد كبير من الاطباء لعلاج الحيوانات التى تنفع الانسان : الحيوانات التى نأكل لحمها او نبيع جلدها او تجر العربات أو تحرس له العربة والحصان والبيت ..

ولا تزال فى العالم عشرات الالوف من مستشفيات الحيوان .. والوف المجلات للحيوان .. ومئات الشركات تعد الطعام الخاص للحيوان والطيور . وعشرات من أصحاب الملايين يتركون ثرواتهم للحيوان ـــ حبا فى الحيوان ، او كرها فى الانسان !

ويوم ارتفعت الكلبة لايكا فى احدى سفن الفضـــاء تدور حول العالم ثارت جمعيات الرفق بالحيوان . تقول : وحشية .. جريمة! ..

مع أن فى المعامل فى كل مكان الوف الحيوانات تموت فداء للانسان. ولكن هذه القلوب الرحيمـــة بالكلبة لايكا نسيت الانجـــاز العلمى

العظيم الذى رفع الكلب تمهيدا لارتفاع عشرات من رواد الفضاء .. فماتت الكلبة لايكا ودفنت فى قبر من نوع غريب ، قبر يدور حول الناس وعلى ارتفاع مئات الكيلو مترات من الارض وبسرعة عشرات الألوف من الاميال فى الساعة ..

وكانت هذه الجنازة العجيبة التى اشترك فيها كل سكان الارض : جنازة حارة والميت كلب !



لو نام الأرنب قليلاً لأدركته السلحفاة !

*** فى القرن الثامن عشر تاكد لدى الناس ذلك المعنى الذى جاء فى الكتاب المقدس : ان الناس ولدوا ليندموا على انهم ولدوا .. فقد كانت الحياة قاسية : ارهاق ومرض وموت بعد ذلك. ولا يتسع وقت الانسان ليسأل نفسه : صحيح ما معنى هذا كله ؟ ماذا أخذت ؟ ماذا أعطيت ؟ ما الذى يتبقى منى لاحد من الناس . والجواب عادة : لا شىء ! كان الناس ولدوا ليكونوا بعد ذلك : لا شىء ، كما كانوا قبل ان يولدوا — انها نظرة مثل الحياة ومثل مداخن المصانع الجديدة: سوداء ! ..**

وفى سنة ١٣٨٤ أعلن البابا كلمنس السادس أن عدد الاوروبيين الذين أبادهم « الموت الاسود » ذلك المرض اللعين قد بلغ ٤٢ مليونا! ولم يكن المرض هو الحاصد الوحيد للأرواح . لانه اذا لم يكن مرض اخترع الانسان الحروب . واذا لم تكن حروب اخترع الانسان

الكراهية التى تؤدى الى القتل ــ اثنان من أولاد آدم قد فعلا ذلك وكان عدد سكان الأرض أيامها ستة أشخاص !

كما أن حرب المائة عام هدت حيل فرنسا .. وحرب الثلاثين عاما مزقت قلب ألمانيا ..

وفى انجلترا جاءت حرب الخمسين عاما فأطاحت بالكثير من الرجال والشباب ..

ولم تفت هذه الظاهرة عددا من المؤرخين ، الذين وضعوا ساقا على ساق وقالوا : ان هذا يحدث كل عشرسنوات ، ويجب أن نتوقع ذلك ، فالنساء يلدن والرجال يحصدون ماوضعته النساء .. وبذلك يظل عدد سكان العالم رقما ثابتا . انها حكمة السماء منذ نزل ثمانية من البشر من سفينة نوح فوق جبل أرارات !

ولكن ما هذا الذى يجرى بين الناس .. انهم يتزايدون رغم ذلك، والطعام لا يكفيهم ، ولابد أن يجد الانسان وسيلة ليكون هناك طعام من النباتات ومن الحيوانات .. ليكون هناك كساء وغطاء ومشروبات ومساكن ليوالى الانسان زيادة عدده ورفاهيته ، ويموت من أبنائه أقل عدد ممكن .

وفى احدى القصص التى ظهرت فى أواخر القرن الثامن عشر يقول الكاتب : لم نعرف بالضبط كيف يجىء هؤلاء الأطفال ، أن الرجال عادة يخطئون فى عدد أولادهم الشرعيين وغير الشرعيين .. ولكن

الامهات لا يخطئن ، ويستحيل عليهن ذلك .. فالام تحمل طفلها تسعة شهور ، ولكن الرجل يحمل ذلك الطفل ساعة او اقل من ذلك كثيرا، فالرجل لايدرى به ولكن الام تعرف ذلك جيدا ولن يتحمس الرجال لان يكون عندهم أولاد أقل .. ولكنهــا المــرأة هى التى يجب أن تفعل شيئا ــ ن نساء الاغريق ضربن أزواجهن لان الرجال يدخلون الفراش دون أن يضعوا فى شعورهم شيئا من العطر ، او على أجســادهم شيئا من الزيت الذى يكسب الرجل حيوية وقدرة على امتاع المرأة.. فلتفعل المرأة شيئا .

والمعنى هو أن الكاتب يطلب الى المــرأة أن ترفس الرجل حتى لايقربها وحتى لايزيد عدد الناس فى كل مكان .. ومن حقها أن تفعل ذلك فهى التى تتعب وهى التى تتعذب . أما الرجال فلا يشعرون بشىء .. وهذه القصة الانجليزية تذكرنا بموقف قديم قبل ذلك بألف سنة . عندما اختلف ابو الاســود الدؤلى مع زوجته على الطلاق وحضانة الأطفال قالت الزوجة أمام القاضى : أنا تعبت أنا حملت أطفالى . أنا أولى بهم .. قال الزوج : انا حملت الطفل قبل أن تحمليه انت . قالت الزوجة : انت حملته فى ظهرك خفيفا ، وأنا حملته فى بطنى ثقيلا .

وحكم القاضى للزوجة بحضانة الأطفال !

واستطاع قسيس انجليزى أن يحدد بالضبط مشكلة تزايد السكان فى العالم انه القسيس مالثوس . وكان ذلك سنة ١٧٩٨ عندما أصدر كتابا بلا امضاء .. انه يقول : ان الطعام فى العالم يتزايد بصورة حســابية : ١ ــ ٢ ــ ٣ ــ ٤ بينما يتزايد عدد ســكان العالم بصورة هندسية ٢ ــ ٤ ــ ٨ ــ ١٦ وهكذا .

ومعنى ذلك أن الطعام لن يكفى الانسان ، وان الانسان يعيش ويكبر ليموت جوعا ، الا اذا توقف الانسان عن النمو ، أو الا اذا ضاعف طعامه وشرابه بنفس السرعة ، ويبدو أن هذا غير ممكن فالمطلوب من الانسان أن يتوقف عن التكاثر .

وهذا القسيس يقول : وليس من مصلحة الانسان أن يوغر الطعام الكثير لانه كلما زاد الطعام تزايد عدد الناس فكأن الطعام يؤدى الى النتيجة غير المطلوبة .. فالأفضـــل هو الا نزيد الطعام حتى يموت الناس من الجوع . ويكون الجوع هو أول منظم للنسل ومحدد له، أو يبحث الناس عن طريقة لانقاص عددهم .

يقول القسيس مالثوس : صحيح أن الارنب والسلحفاة لو دخلا فى سباق فمن المؤكد أن الأرنب هو الذى سوف يصـــل الى الهدف أسرع . لا شك فى ذلك ولكن لو طلبنا من الأرنب أن ينام قليلا فى الطريق فان السلحفاة سوف تصل قبل الأرنب ، أو تصل معه فى وقت واحد !

وســـــارعت الهيئات الدينية بتفسيرات جديدة لتحديد النســـل ، فالانسان حيوان تحكمه الغريزة ، ولذلك لا يستطيع أن يحدد عدد صغاره . ولكن الانسان يتصرف بالعقل ولذلك يجب أن يستخدم عقله ، وقال القساوسةفى أوروبا فىذلك الوقت : الطهارة يارجال.. الطهارة . فالذى يعف عن الجنس هو الذى يجد الرغيف فجزاء العفة أن تجد الطعام والشراب .. والنزوات عقابها الجوع !

أما رجال الصناعات وأصحاب رءوس الأموال فقد انزعجوا ،لان

تحديد النسل معناه أن يصـــبح عدد العمال اقل . فاذا قل عددهم ارتفعت أجورهم ، واذا ارتفعت اجورهم نقص ما يكسبه اصحاب المصانع والمتاجر .. ولذلك وقفوا ضــد القسيس مالثوس الذى يدعو الى تخريب بيوت المال فى أوروبا كلها !

وقال السياسيون المحافظون : بل يجب ان يحدد الناس نسلهم، والا زاد عدد الجياع ، فاذا زاد عددهم قاموا بثورة كثورة فرنسا، واطاحوا بالملكية فى انجلترا . وقلبوا الأوضاع واختلت الموازين والقيم الاجتماعية .. ولذلك فنظرية القسيس مالثوس هى أعظم ما اكتشف الانسان فى كل العصور !

واخذت الجامعات تلقى عليه نياشينها العلمية ، وتطلب اليه أن يحاضر فيها ، فهو الذى وضع أصابعه على داء البشرية ، وأقوى قوى التاريخ الانسانى !

ولو نظرنا الى عالم الحيوان لوجدنا شـــيئا مخيفا ، ففى عالم الأسماك مثلا : نجد أن انثى سمك الرنجة تضع أربعين الف بيضة بينما تضع ســـمك موسى تسعة ملايين بيضة والسلامون تضـــع ثمانية وعشرين مليون بيضة .. وسرطان البحر الأمريكى يضع مائة مليون بيضة ، وهذا يتكرر خمس مرات فى السنة .

وفى عالم الحشرات : نجد أن ملكة النحل تضع فى السنوات الثلاث الاولى خمسة ملايين بيضة .

أما الضفدعة فانها تلقح ٥٤ الف مليون بيضة فى السنوات الثلاث

الاولى من حياتها ، وربما كان هذا هو السر فى أن عدد الضفادع فى العالم يتوازن دائما ـــ هناك الكثير فى كل مكان فى اى وقت !

***

وهناك مسافة كبيرة جدا بين عدد البيض وعدد البيض الذى تم اخصابه .. وهذه المسافة تصبح أوضح واكبر فى الانسان ، فعدد الحيوانات المنوية عند الرجل طول حياته تقدر بألوف الملايين وعدد البويضات عند المراة مئات الالوف .. ولكن لابد من حيوان واحد من الرجل لبويضة واحدة من المرأة ليكون هناك طفل .

ولان المراة لاتقوى على حمل اكثر من طفل فان هذه الحيوانات المنوية والبويضات لا ضرورة لها .. وفى عالم الحيوان والحشرات نجد أن الذكر ليست له أهميته . فاذا قتل او اكلته الانثى فان الطبيعة لاتخسر شيئا بالمرة ، بلان الملايين منالبويضات المخصبة تحل محله بسرعة ، فالذكر ليس شيئا هاما لكى تستمر الحياة .

ولو كانت كل الحيوانات المنوية عند الرجل تلتحم بكل بويضات المرأة لكان عدد سكان الأرض ضعف هذا العدد بألوف الملايين من المرات . ولكن انثى الرجل هى التى تحدد النسل . ومن المعروف انالمراة لاتستطيع ان تحمل اكثر من عشرين مرة فى العمركله .. وهذه هى الحالة النادرة ، ولكنها عادة لا تتجاوز الثلاثة اوالأربعة الا قليلا .. وهذا ينطبق أيضا على كل الحيوانات الاخرى التى يأكلها الانسان !

والأغنياء وحدهم هم الذين انشغلوا كثيرا بعدد أطفالهم وبالجوع . فهم لا يريدون لاطفالهم أن يجوعوا . أما الفقـــراء فان الجــوع لا يشغلهم . لأنهم الجوع نفسه ، والفقراء كلما اشتد بهم الجوع ، احسوا باقتراب الموت ، وأصيبوا بحالة نهم جنسى ، فيزداد عددهم .. لهذا زاد عدد الفقراء الذين ازدادوا فقرا !

ولابد أن ينشغل الناس عموما بالبحث عن موارد للطعام ،لتوسيع رقعة الأرض المزروعة عشبا ، أو بالهجـــرة الى بلاد اخــــرى ، الايرلنديون هربوا من ارضهم القاحلة الى أمريكا ، الانجليز رفضوا أن يتركوا أرضهم ، ولذلك زاد عددهم وزادت مصانعهم ، ولكن حدث شىء غريب : زادت الأقمشة أمام الناس ، فكانوا يجدون الكساء ولا يجدون الغذاء وقالوا عن انفسهم : أننا وجدنا الشىء الذى يدفىء الجلد ، ولا يدفىء المعدة !

ولكن الانجليز وجدوا الأيدى الكافية لادارة مصـــانعهم ، وكانت هذه المصانع للنسيج ، ولم يتوافر لديهم نفس هذا العدد من مصانع الطعـــام .

بدأ الانجليز ــ مثلا ــ يستوردون طعامهم من الخارج ، أما ملابسهم ، فمن الداخل .

وبعض أصحاب الأغنام ارسلوها الى الأرجنتين حيث الجو افضل والطعام أوفر ، وبعضهم أرسل مئات الأغنام التى أصـــبحت مئات الالوف ، الى استراليا ..

وكانت المشـــكلة هى نقل هذه الحيوانات بعد أن تعبت وسمنت الى اوروبا ، ولكن اكثر هذه الأغنام كان يموت فى الطـــريق وكانت امراض الحيوانات تتفشى بسرعة ــ وتهلك سفنا بأكملها .

وفى ذلك الوقت اخترع رجل استرالى سفينة تنقل لحوم الأغنام والأبقار الى أوروبا ، وكانت السفينة تقوم بتبريد اللحوم ، وكان ذلك انقلابا فى صناعة التغذية ولكن النـــاس فى أوروبا لم يستسيغوا اللحوم الباردة .. وكانت هذه اللحوم طعام الفقراء . أما الأغنياء فيفضلون اللحوم الحية .. يرونها ويذبحونها ..

ولكن رجلا فرنسيا اسمه تلييـــه سنة ١٨٧٧ اخترع « ثلاجة » وكانت الثلاجة على شكل سفينة ، فهذه السفينة تنقل اللحوم مجمدة من الارجنتين الى فرنسا وانجلترا . وكانت رحلة السفينة تستغرق مائة يوم ، وتظل اللحوم متجمدة سليمة . وكان ذلك هو أعظم اختراع انقذ أوروبا كلها من الجوع..وانتشرت الثلاجات العائمة فى الموانى الاوروبية والموانى الأمريكية ، وانحلت مشكلة اللحوم الى حين وبقيت اللحوم المجمدة طعام الفقراء !

واذا كانت الثلاجات قد أنقذت الفقراء فان الآلات الحديثة التى ظهرت فى ذلك الوقت قد خربت بيوت الفقراء فالآلات البخارية التى استخدمت فى المواصـــلات وفى المصـــانع قد استغنت عن الأيدى العاملة ، وكان أصحاب المصانع حريصين على الآلات لأنها تختصر الأيدى العاملة وتوفر لهم المال ، وظل العداء قائما بين الآلات وبين الأيدى العاملة .. ولا يزال ..

***

وفى ذلك الوقت من أوائل القرن التاسع عشر ظهر سباق الخيل . وكأن الانسان لايريد أن يصدق أن القطار أسرع من الحصان ، ولذلك بدأ الانسان ينظم مسابقات الخيول ، وقبل تنظيم المســـابقات كان يحرص على اقتناء أحسن سلالات الخيول . واحسنها بالفعل تلك

التى جاءت من أصل عربى ، وهناك خيول اخرى مولدة : اضخم واثقل واطول سيقانا واضخم عنقا وراسا ، ولكن افضل الخيول جميعا هى العربية الرشيقة .

وفى الوقت الذى اخذت انجلترا بلعبة سباق الخيول ، اتجهت أسبانيا الى مصارعة الثيران ، حتى ثيران أسبانيا هى الاخرى قد جاءت من الشرق . بعض هذه الثيران مصرى فرعونى .

والقرن التاسع عشر يعرف اسماء عدد من الخيول قد غيرت الحياة الاجتماعية ، فهناك الحصان الشهير « دارلى » الذى كسب ثلاثين سباقا وفاز بعشرين كأسا فضية ، ولم يسبقه حصان واحد . . بل أن أبناءه من الخيول وهى معروفة الاسم ، قد بلغ عددها ٣٤٤ حصانا ، قد عادت الى أصحابها بمليون جنيه ! .

واصبح من المألوف جدا فى أوروبا كتابة تاريخ حياة الحصان ، أصله ومن أين جاء ، وأولاده بالاسم ، وأماكنهم واحجامهم ، والسباقات التى اشتركت فيها .

وفى انجلترا تأسس نادى الجوكى سنة ١٧٥٠ ، وبعد ذلك بثلاثين عاما بدأ اللورد دربى السباق المشهور المعروف باسمه حتى الآن . . وكان هذا السباق متعة كبرى وفرصة دولية لنشترك أجمل واقوى الخيول فى السباق والمراهنة .

وربما كان نابليون بونابرت هو اول من اخترع فكرة ارض السباق، وأن تكون الأرض ناعمة وأن يكون الطريق أمام الحصان ممهداً . فقد ارسل له أخوه لوسيان خطابا يستأذنه فى اقامة سباق العربات . ولكن نابليون اعترض على سباق العربات التى تجرها الخيول لانها لعبة اغريقية قديمة ، وان العربة تعوق الحركة وان الأغريق كانوا

يتسابقون بالعربات لانهم كانوا يحاربون من فوق العربات وبها .. أمام على أيام نابليون فكانوا يحاربون من فوق ظهـــور الخيول ، فالسباق بالخيول هو مناسبة للتدريب على القتـــال ولذلك . أمر نابليون بعمل ارض للسباق وتسويتها وتغطيتها بالعشـــب فيتمكن الحصان من الانطلاق ، واذا سقط من فوقه الفارس فلا تكون اصابته خطـــرة !

وانتشرت لعبة السباق فى أوروبا كلها ، واصبح الأغنياء يتباهون بأن لديهم احسن الخيول واكثرها عددا وبأن لديهم اصطبلات فخمة.. واذا كان الاغنياء قد انشغلوا بتربية الخيولفان الفقراء قد وجدوا لهم لعبة أخرى : السيرك .. ففى السيرك تلعب الخيول والحيوانات الاخرى ... فالسيرك متعة أرخص ، وفى نفس الوقت فرصة لان يتفوق الفقراء على الاغنياء بالبراعة والصبر فى مواجهة الاســـود والنمور وركوب الخيول .. والتصفيق للاعبين المهرة : أى للفقراء من أمثالهم ..

وعندما يتعب الفقراء من الفرجة على الســـيرك ، فانهم يذهبون الى حديقة الحيوانات ، ففيها الحيوانات من كل نوع جاءت من آخر الدنيا لتكون جاهزة لتسليتهم فى أى وقت !

« وبعد ذلك يذهب الناس الى بيوتهم سعداء بما رأوا ، وبأنهم قد عوضوا ما فاتهم من امتلاك الخيول ، بالنظر اليهم والاعجاب بأصحابها .. وينامون فى الليل ، ويولد الأطفال فى الصباح » — كما يقول الكاتب الايطالى البرتو مورافيا .

ففى احـــدى قصص مورافيا يجىء الرجـــل الذى يعد السكان ويسأل : كم عدد الأطفال عندكم ، فتقول الأم : عشرة .

ويقول موظف التعداد : تقولين عشرة ؟ .. ياه ! عشرة ؟

ويرد الزوج : نعــم يا ســيدى عشرة .. ليس عنــدنا راديو ولا تليفزيون ، ولذلك فنحن ننام فى ساعة مبكرة !

ــ معقول .. ويمضى الرجل يدق ابواب البيوت الاخرى عينه على الباب والعين الاخــرى على الســطح ، ليرى ان كان عندهم تليفزيون !

وفى نفس الوقت تتزايد الحشرات بالوف الملايين ويصرخ الانسان من الجوع فى آسيا وافريقيا !



نظرية التطور!

رد لاعتبار الحيوان!

كانت محاكمة العصر كله . فقد اجتمع العلماء ورجال الدين وكانت الراهبات يمسكن المناديل ويشرن بها الى ذلك القس الوسيم الرشيق الذى جلس متحفزا ليدافع عن الدين عن كل سطر جاء فى الكتاب المقدس . عن أن الانســـان الأول كان اسمه آدم . وأن البشرية كلهـــا قد جاءت من سلالته .. وأمام هـــذا القس واحد من العلماء اسمه هكسلى جاء يدافع عن نظـــرية تقول أن الحيوانات تتطور .. وربما كان الانسان أصله قرد . وليس ذلك بعيدا فالتشابه شـــديد جدا بينهما .

دخل العالم الكبير وجلس فى مواجهة القس . فقال له القس متسائلا مستنكرا : أريد أن اعرف منك ان كان جدك لأمك أو لأبيك قردا ؟ ..

وضحك الحاضرون وهنأوا بعضهم البعض . ولكن العالم الكبير

قال له : يشرفنى أن يكون جدى من الناحيتين قردا .. ولا يشرفنى ان يكون واحدا مثلك يستخدم ذكاءه وعقله فى مناقشة قضــايا علمية لا يفهم فيها شيئا !

وانتهت المناقشة فجأة بانتصار العالم الكبير هكسلى . أى انتصار فلسفة دارون التى كانت قد هزت الفكر والحياة فى أوروبا كلها فى منتصف القرن التاسع عشر !

وعندما سمع دارون هذه المناظرة قال : كان من السهل جدا أن أموت لمجرد أن اتصور أن احدا سوف يحاكمنى هكذا ..

فلم يكن دارون ذلك الرجل القوى القادر على المناقشة والمناورة. وانما كان رجلا هزيلا مريضا .. فعندما سافر فى رحلته الشهيرة لمدة خمس سنوات الى أمريكا واستراليا كان عمره ٢٢ عاما . وكان اضعف المســافرين . وكان يعمل فى هذه الباخرة العلمية باحثا فى الحيوانات والنباتات . ولميكن أحد يتصور أن تشارلز دارون هذا من الممكن أن يكون شيئا هاما فىالتاريخ . ولم يخطر على بال أحد أن دارون هو كولمبوس الجديد .. فاذا كان كولمبوس قد اكتشف قارتى أمريكا ، فان دارون قد اكتشف قارات من المعلومات العجيبة فى تاريخ النباتات والحيوان والانســان . بل أن كل العلماء راحوا يدرســون من بعده تاريخ الحجارة والتــراب .. لان كل شىء له تاريخ وكل شىء على الأرض قد تغير وتطور .. فالتطور هو قانون الأشياء كلها ، كما انه قانون الحيوانات كلها كما قال دارون .

وفى هذه الرحلة التى غاب فيها دارون عن بلاده قد درس عينات

كثيرة جدا من النباتات والحيوانات .. واهتدى الى مجموعة من الأفكار .. ولكنه لم يجرؤ على أن يعلنها . فهو أولا ما يزال صغيرا، ثم أن هذه الأفكار مختلفة تماما عن الافكار السائدة او «المتسيدة» للهيئات العلمية كلها . ولذلك عندما أرسل لبعض اصدقائه عن اكتشافاته جاءت عباراته خائفة مرتجفة ، كأنه يعترف بجريمة ارتكبها ، ولم يكن ذلك قصده . وانما وجد نفسه أمام شيء جديد مختلف . وكان لابد أن يقول .. وقال .

وفى سنة ١٨٥٩ أصدر داروين كتابه عن « أصل الانواع » ..

وكان هذا الكتاب نقطة تحول فى التاريخ الانسانى والحيوانى .

ولم يكن داروين أول من تحدث عن التطور تماما كما أن خريستوف كولمبس ليس أول من اكتشف أمريكا . وانما تحدث عن تطور الكائنات كلها أناس كثيرون . بل أن عددا من الفلاسفة والعلماء تحدثوا عن التطور قبل داروين . وقبل أن يعرفوا انه أصدر كتابا يشرح فيه خطوات تطور الحيوانات بعضها الى بعض حتى اقتربت من الانسان.

وربما كان الفيلسوف الألمانى هيجل هو اول من رسم خطوط التطور لكل شيء فى الكون وأول من قال ان الأشياء تتطور بعضها . الى بعض . وان الله قد وضع خريطة وسلالم تصعد عليها الكائنات وفقا لهذه الخريطة . وأن التطور من حالة الى حالة هى سنة الكون كله ..

وربما كان الفيلسوف الألمانى شوبنهور هو أول من قدم للانسانية

نظرية التطور التى تحدث عنهـا دارون . وكان شوبنهور أمتع وأوضح من دارون . ولم يشك شوبنهور لحظة واحدة فى أن الانسان أصله قرد . قال أن أبناء آسيا أصلهم أورنج تان .. وأبناء أفريقيا أصلهم من الشمبانزى .. ومات شوبنهاور بعد صدور كتاب دارون بعام واحد دون أن يقرأ منه أو عنه سطرا واحدا . !

وكانت هنـاك نظريات كثيرة تفسر هـذه التغيرات فى تـكوين الحيوانات نفسها .. لمـاذا رقبة الزرافة طويلة مثلا ؟ يقول عالم فرنسى اسمه لامارك : ان الزرافة تنحدر من سلالة كانت تعيش فى غابات . وكانت الغابات أشجارا طويلة . فاضطرت الزرافة الى ان تمد عنقها الوف السنين لكى تأكل الأوراق من قمم الأشجار .. وطال عنق الزرافة لهذا السـبب .. ومعنى ذلك أن الحيوانات « تتكيف » مع البيئة . او يجب أن تتكيف مع البيئة والا ماتت من الجوع . فالبيئـة هى التى تؤدى الى تغير تكوين الحيوانات . او حرص الحيوانات على ان تعيش هو الذى يرغمها على أن تتغير وان تتغاير والا ماتت !

ونحن الآن لسنا بعيدين عن دارون وفلسفته . فهو يرى أن الحياة صعبة على الجميع . وان الحيوان يجب أن يقاوم العقبات . ومن هذه المقاومة تتولد صلابته . ومن الصلابة يكتسب القوة . ومن القوة يكتسب التغلب على البيئة .. فاذا تغلب عليها عاش .. واذا لم يفلح فى ذلك مات . وكل الحيوانات التى ماتت هى حيوانات قهرتها البيئة وغلبتها الظروف . واول معالم الحياة هو الكفاح . والكفاح من

صفات الأقوى.والأقوى هو الذى يبقى . فالبقاء للأقوى . والأقوى هو الأصلح للحياة .. فالبقاء للاصلح . والحيوانات التى تعيش هى أصلح الحيوانات لان تستمر . فاذا استمرت دخلت فى صراعات جديدة . وهذه الصراعات الجديدة تحتاج الى أسلحة جديدة والذى يجدد سلاحه هو الذى يبقى . والذى يبلى سلاحه هوالذى يفنى. واذا كان الحيوان ينتقل من مكان فى الصيف الى مكان آخر فى الشتاء ، أو العكس فهو يختار الجو المناسب لحياته .. فالانسان يختار ظروفه المواتية له .. ولكن الطبيعة كلها تختار الحيوان الانسب . والانسان الاقوى . فالاختيار الطبيعى هو اختيار الأحسن . والأحسن هو الاقوى والاقدر على أن يتكيف ويتواءم وأن يتلاءم ويتطابق مع ظروف حياته المادية والاجتماعية .

انتهى تفكير داروين بعد أن حشد له الوف الأمثلة من ملاحظاته الدقيقة جدا التى استغرقت أكثر من عشرين عاما !

وقد أرسل داروين خطابا لصديق له يقول : فى يوم وأنا أنظر الى القمر يتوارى وراء السحب جاءتنى هذه الفكرة وكأنها صاعقة لمعت فى راسى وهزتنى . واندهشت كيف أننى لم أعرفها من قبل . لقد ادركت بوضوح ان الحيوانات لا يمكن أن تكون من أصل واحد ثابت . لا يمكن أن تكون قد قطعت ملايين السنين من الغابات والجبال تحت المطر فوق الجليد ، وفى الكهوف على السفوح فى حرب مستمرة ، دون أن يتغير فيها مخالبها أو أنيابها أو أظافرها أو فراءها .. مستحيل . هذا ما اهتديت اليه !

ولم يتصور داروين لحظة واحدة انه بهذه العبارات المتواضعة

قد زلزل العلم والدين .. فالعلم لم يكن يرى شيئا من ذلك . وانما يرى العلماء أن القرد أصله قرد .. أما الدين فيرى ان القرد أصله قرد ، وأن الانسان أصله آدم وحواء .. ولا علاقة بين القرود والآدميين !

وفى يوم كان داروين يتناول طعام افطاره عندما دخل الخادم بخطاب .. فتح الخطاب . انتفض واقفا واجما . ثم ألقى بنفسه على المقعد حزينا .. ولكن لم يستمر كذلك كثيرا . فقد ادرك ان حياته كلها فى خطر . وأن سنوات بحثه وملاحظته كلها توشك أن تأكلها نيران المدفأة أمامه .. فالخطاب يقول له : أن رجلا اسمه والاس يعيش هنا فى جزيرة الملايو . الرجل عالم جليل فقير . مريض .. لقد حبسته الملاريا منان‌يواصل‌رحلته الى اوروبا . هذا الرجل‌يتاجر فى الفراشات النادرة . ويبيع الحيوانات الجميلة لعدد كبير من الهواة والباحثين فى أوروبا كلها .. فهو قد ارسل أكثر من عشرين الف نوع من الفراش والطيور الى الهيئات العلمية . وهو يعيش من الصيد والتجارة . ولكن من المؤكد ان لديه كل مزايا العالم الكبير .. وقد هداه البحث الى شيء جديد .. والرجل يقول أن أساس كل شيء فى الحياة الانسانية والحيوانية هو التطور . وان الحيوانات تكافح من اجل ان تبقى . والحيوانات التى تبقى هى الأقوى ..

وكلام آخر كثير هو بالحرف الواحد ما قاله داروين !

ومن الغريب أن الرجلين قد خرجا بهذه الأفكار بعد أن قرأ كل منهما ما كتبه القس الانجليزى مالثوس عن تزايد السكان الذى سوف يؤدى الى جوع الانسان وفنائه . وكل واحد من الرجلين قد ذهب فى طريق ليصل الى نفس النتيجة !

وليس هـــذا هو الحادث الأول من نوعه فى التـــاريخ . فكثيرا ما اهتدى العلماء الى نظريات واحدة فى وقت واحد ، دون أن تكون بينهما صلة ما .. فقبلهما بمائتى سنه اهتدى العـــالم الانجليزى نيوتن والفيلسوف الالمانى ليبنتس الى منهج فى الرياضيات واحد .. والى نظريات فى «التفاضل والتكامل» متطابقة تماما . وسارع كل منهما باعلان نظريته الجديدة .. فكانت النظرية هى هى عند كل من الاثنين .

واهتدى دارون الى حل سعيد حتى لا يتهم الرجل الآخر بأنه سرق افكاره . وحتى لا يتهمه والاس بأنه هو الذى سرقه . فقرر دارون ان ينشر كتابه الذى ألفه فى ٢٣١ صفحة على نفس البحث الذى كتبه والاس هذا . ونشر الكتابان معا . ولكن قـــدر لدارون أن يكون هو صاحب الاسم وصاحب النظرية وصاحب الثورة أيضا .. ولم تساعد الظروف والاس هذا ، فقد كان فقيرا وكان بعيدا عن لندن . ولم يكن لديه هذا الصبر على المتابعة .. ولذلك أصـــبح دارون هو صاحب نظرية التطور أو التطور نفسه أما والاس فهو « الصـــدفة » .. أو هو من عجائب الصـــدف . ودخـــل تاريخ التطور الانســـانى على أنه نكتة : اذ كيف أن رجـــلا مريضـــا فى احدى جزر الملايو يهلوس طـــول الليل ويمســـك القلم ويدفعه أمامه على الورق طالعا نازلا كأنه ثعبان يهتدى الى أفكار رجل آخر فى لندن مريض أيضا يظل يهرش طول الليل حتى يسيل دمه ، تماما كما كان يفعل نابليون .. ربما وجد علماء الدراسات الروحية فرصة عظيمة ليقولوا : ان الرجل المريض كان فى حالة شفافية جعلته يقرأ افكار دارون وينقلها حرفا حرفا .. بل سطرا سطرا .. مع أن المسافة بينهما عشرات الالوف من الاميال .. ثم أن الرجلين لايعرف احدهما الآخر !

شيء غريب هذا الذى حدث .. فعندما كان الانســـان فى أوائل القرن التاسع عشر يفخر بأنه اخترع الآلة . وانهذه الآلةقداغنته عن الحصان والحمار ، جاء علم الحياة وعلم الســـلالات يؤكد ان الحيوان هو أصل الانسان . فاذا كانت العلوم الميكانيكية تريد ان تفخر بأنها نقلت الانسان من عصر الاعتماد على سيقان الخيول واعناق الأبقار وظهور البغال ، فان علوم الحياة قد أعادت الحيوانات الى مجدها .. بل انها هبطت بالانسان الى ما دون الحيوان.. بل انه ليس الا حلقة فى سلسلة تطورات الحيوان .. وانه ليس بعيدا أن تنظر الأجيال القادمة الى الانسان على انه حمار او حصان .. وذلك عندما يتطور الانسان الى كائن آخر أفضل .. المهم فى نظرية داروين انها حركت كل شيء ودفعته الى الامـــام .. او جعلت من الواجب أن يندفع الى الأمام .. لأن الذى لا يتحول يتجمد . والذى لا يتطور يتدهور والذى لا يتقدم يموت .. وان هذه ليست ميزة خاصة بالانسان ، وانما الحيوان قد سبقه الى ذلك . فلا فضل كبيرا للانسان على الحيوان .. أما الآلة فهى من اختراع الانسان .. والآلة أبســـط واتفه من أى حيوان .. فالحيـــوان تحفة فى الخلق . وهـــذا ما ذهب اليـــه رجال الدين ، الذين حاولوا ان يجدوا لهم مكانا جـــديدا تحت شمس هـــذه النظرية . فاذا كان داروين قد هدم مفهوم الكتب المقدسة لأصل الانسان ، فان رجال الدين بسرعة قد استفادوا من النظرية الجـــديدة وتكيفوا معهـــا حتى لا يتصلب الدين ورجال الدين وتفوتهم قطار التطور .. ولذلك كان رجال الدين أول من قفز الى القطار الجديد وركبوه حتى لاتضيع من تحتهم ومن ايديهم اهم اسرار الكون .

ولما توفى داروين يوم ١٩ ابريل سنة ١٨٨٢ أعلن رجال الدين ان

هذا الشيطان يجب الا يدفن في مقابر العظماء • ومن الخير له وللشعب الانجليزى ان ينفذ ما أوصى به وهو أن يدفن في حديقة قصره الريفي • • ولكن سرعان ما عدل رجال الدين عن هذا الموقف الجامد ورحبوا بان يدفن الى جوار عظيم آخر هو نيوتن • • فكلاهما عظيم في الحياة وفي الممات وكلاهما خطوتان في تطور علوم الطبيعة والحياة ! •



خلقها الله بعناية لتقضى علينا بإتقان!

*** المواصلات الحديثة قربت المســافات بين المدن والدول والقارات . وأصبح من السهل أن يتحرك الانسان وان ينقل امراضه من مكان الى مكان بنفس السرعة .. فالانسان يركب السيارة والباخرة وينقل معه ميكروبات أو حشرات تحمل الميكروبات والموت الى أى مكان . مثلا فى القرن السابع عشر انتقل مرض اسمه (الجمرة المخية) وهو مرض يصيب كل الحيوانات ، وينتقل الى الانسان . اسمه باليونانية انثراكس . والتسمية دقيقة . ولذلك ترجمه الألمــان بأنه (الفحــم) والفرنسيون وصفوه بانه الكاربون .**

لأن المرض عبارة عن احتراق داخلى للحيوان . ولم يعرف أحد كيف ينتقل من حيوان الى حيوان الى انسان أو العكس . قالوا : انه عفريت يركب الانسان والحيوان ويشعل فيه النار من داخله. قالوا : لعنة من السماء حلت بالانســـان فنقلها الى الحيوان . وقالوا : غضب الهى على الاثنين ..

ولكن الاطباء عندما نظروا تحت الميكروسكوب وجدوا ميكروبات على شكل عصي .. ووجدوها فى الطحال . ولم يذهب أحدا الى أبعد من ذلك .. حتى ظهر عـالم المانى مجهول كان يعمـل فى غرفة ضيقة جدا فى برلين .. هذا الرجل اسمه روبرت كوخ عبقرية فذة فى الفهم والصبر وبعد النظر . وفى سنة ١٨٧٦ عرف كوخ أشـياء كثيرة وأكدها بهدوء . وظل كوخ هذا يطارد الميكروبات فى أمعاء المصريين ومعدة الهنود وبراغيث اليابانيين وبعوض الأمريكيين .. وعرف الدوسنتريا ، وعـرف الحمى الصـفراء وعرف التيفوس والملاريا .. وكان كوخ هذا رجلا حكيما وكان يقول : ان هذه الكائنات الصغيرة تحدثنى بعبارات دقيقة جدا .. وانا أحاول ان أسمعها بوضوح . وانا أؤمن بأنها لا تكذب . بل اننى اعتمد على ذلك كل الاعتماد . ولهذا سوف اصل الى شىء ..

ومن الاكتشافات التى أذهلت كوخ هذا انه عندما وصـل الى أواسط أفريقيا اكتشف أن ذبابة « تسى‌تسى » التى تصيب بالنـوم حتى الموت كل من تلسعه ، بها دم تمساح . وبعد ذلك اكتشف ان التمساح هو أكبر خزان لميكروبات النوم ، وان لديه مناعة تامة ضد الاصابة بهذا المرض . وأعجب من ذلك انه عثر على تماسيح لاتنام الا نادرا !

***

واهتدى كوخ ايضا الى أن فئران السفن هى التى تنقل الأوبئة من بلد الى بلد ..

فالفئران السوداء جاءت من الشرق فى سـفن الصليبيين ..

فكأن أرروبا قد لقيت ما تستحقه من عقاب .. جاءت تنشر الموت والتعصب ، وعادت سفنها مليئة بالفئران تنشر فيها الطاعون والاوبئة التى أكلت عشرات الملايين من الناس ــ الكوليرا مثلا !

ثم جاء الفأر البنى اللون ..

ففى سنة ١٧٣٢ وقع زلزال عنيف .. وفزعت ملايين الفئران واتجهت الى احد ضفاف نهر الفولجا عند مدينة استراخان .. ولأسباب لا نعرفها الآن بوضوح قررت الهجرة .. وعبرت النهر وغرق منها مليون فأر على الأقل .. ولكن بقية الفئران وصلت الى الشاطىء . وواصلت زحفها الى الجنوب الى أوكرانيا .. ثم الى الغرب الى بولندا . ثم الى بوهميا .. ثم الى الشمال قليلا الى بروسيا .. حتى وصلتها فى سنة ١٧٤٠ .

وفى سنة ١٧٥٣ وقفت عند أبواب باريس ودخلت .. وتكاثرت بسرعة ..

ووصل الفأر البنى الى أمريكا فى سنة ١٨٥١ .. واحتل بجدارة المكان المتواضع الذى شغله الفأر الأسود وراح ينقل بهمة ونشاط أمراض التيفوس وكثيرا جدا من أمراض الفم والقدمين ..

* * *

الى جانب شخصية العالم الألمانى روبرت كوخ ظهرت شخصية استولت على القارة الأوروبية كلها : باستور .. ذلك العالم

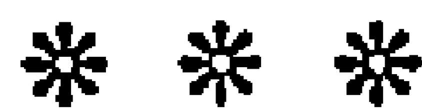
الفرنسى النحيف المشلول احدى الساقين .. هذا الرجل لم يكن الناس ينظرون اليه على انه طبيب أو باحث وانما علىأنه رجل دين يعالج الناس بالمعجزة . فهو انسان طيب . أو رجل مبارك . وهو نفسه كان يعتمد على احساس داخلى بأنه سوف ينجح .. وأنه سوف يشفى المرضى باذن الله . لمـــاذا ؟ لا يعرف ؟ كيف ؟ لا يعرف . ولكن هذا يحدث له ومعه وبسببه كثيرا جدا .

هذا الرجل هو من ذلك الطراز من الناس الذى لا يخاف الناس .. أى لايخاف أن تكون له أفكار خاصة مختلفة عن أفكار الناس .. وأن لـــه احلاما أخرى يكذبهـــا الواقع . ولكنه وحده الذى يصدقها .. أنها حياة قاسية جدا : أن يكون الانسان وحده مع أفكاره . أو أن يكون الانسان مثل خرستوف كولمبوس وكل الناس يسخرون منه ولكنه مؤمن بأنه على حق .. أو مثـــل نوح عليه السلام يبنى سفينة على الأرض .والناس يمرون به ضاحكينولكن نوح كان يؤمن بأن السماء سوف تمطر وأن الطوفان سيجتاح كل الناس وسوف ينجو هو بأهله من الغرق .. وعلى الرغم من أن نوحا هذا قد أنقذ الناس والحيوانات ، فانه لم يفلح فى أن يقنع ابنه بأن يركب معه .. فنجا الناس وغرق ابنه .. وكذلك العالم الكبير باستور ألذى عالج الكثيرين من الناس وشفاهم ، لم يفلح فى علاج أقرب الاقربين اليه .. وماتوا .. ولكن الملايين شفاهم أو انقذهم قبل أن يصيبهم مرض .

واستطاع باستور ومعهـــده أن يحتفظا بهذه السمعة العالمية المحترمة .. من أواخر القرن التاسع عشر حتى اليوم .. بل أنه حدث أخيرا جـــدا أن أصيب بالتسمم بعض زبائن مطعم فى مدينة

لابلاتا بالأرجنتين . مات منهم عشرون . فأرسلوا عينات من الطعام ومن المصابين الى معهد باستور فى باريس . وبسرعة جاء عدد من العلماء . وانقذ مئات آخرين .. وحدث أيضا أن انتشرت الحمى البابونية فى احـــدى مزارع قصب السكر فى جزيرة مدغشـــقر (جمهورية مالاجشى) . وبسرعة طار عدد من أطباء المعهد واوقفوا سريان الطاعون بين المواطنين . أهم من ذلك أن العالم كله يتوقع من هذا المعهد ان يأتى بالمعجزات ..

ويمكن أن يقال ان ملايين الناس فى العالم اليوم أحياء بسبب هذا المعهد الفرنسى الذى انشىء سنة ١٨٨٨ . ويوم انشائه وقف باستور نفسه يتساند على واحد من أولاده ويبكى من شدة التأثر .. وقد حرص باستور على أن يكون هذا المعهد اهليا مستقلا .. وقد شارك فى بناء هذا المعهد بأمواله : أطفال من الهند وتلامذة من الصين ومرضى فى أمريكا .. وملوك واباطرة .. وظل هـــذا المعهد هيئة علمية مستقلة تماما ..



أما الاحداث التى يذكرها العالم لهذا الرجل العظيم باستور فلا عدد لها .. ولكن الرجل كان يؤمن بأن هناك كائنات صغيرة جدا .. هـــذه الكائنات ــ البكتريا ــ هى مصـــدر الشر والخير للانسان . بعض هذه الكائنات تضره وتنقل اليه المرض . وبعضها تنفعه وتقوم بعمليات التخمر فى الطعام والمشروبات .. وهو يؤمن بأن بعض هذه الكائنات اذا ارتفعت درجة حرارتها ماتت . وبعضها اذا جعلناه ضعيفا ، وحقنا به انسانا مريضا فانها تلهب حماس القوى الداخلية فى الجسم الانسانى ليقاوم المرض الدخيل ..

ونحن عندما نقول أن اللبن « مبستر » أى أننا قد بردناه ثم سخناه ، كما كان يفعل باستور . وبذلك ماتت الميكروبات وأنقذنا حياة مئات الملايين من الأطفال فى العالم من الاصابة بالسل !

ومن المواقف الحاسمة فى تاريخ باستور وفى تاريخ العالم كله ايضا :

انتشار مرض الكلب ـــ بفتـــح الكاف وكسر اللام . فالتاريخ لا يذكر لنا الا حالة واحدة فقط أصيب فيها انسان بهذا المرض ثم قدر له أن يعيش لان كل المصابين ماتوا ، وكان لابد أن يموت ! ..

حتى كان ذلك اليوم الحاسم فى التاريخ .. أنه يوم « ٦ يوليو الرائع » سنة ١٨٨٥ . جاء طفل فى السادسة من عمره .. الطفل اسمه يوسف ميستر . مهم جدا هذا الطفل . وهذا الاسم . الطفل قد عضه كلب مريض اربع عشرة مرة فى أماكن مختلفة من جسمه .. وكانت محنة . فباستور لا يعرف ما الذى يعمله . ان هو عالج الطفل ومات شـــمت فيه أعداؤه وقالوا : قاتل .. الم نقل لكم من وقت طويل ؟ ..

واذا لم يعالجه كان فشله أوسع انتشارا من نجاحه .

ولكنها العبقرية هى التى الهمته أن يحقنه اربع عشرة مرة .. لماذا هذا الرقم ؟ لا يدرى . ولكنه الرقم الذى يتم عنده الشفاء .. وشفى الطفل . وانتشر هذا الخبر فى أوروبا كلها على أنه معجزة المعجزات .. وشاء باستور أن يجعل هذا الطفل اعلانا حيا لنجاحه

.. نجعله بوابا للمعهد .. بل انه بعد وفاة هذا البواب ، اقاموا له تمثالا — وما يزال — فى مدخل المعهد كاكبر نجاح حققه باستور لنفسه وللعالم كله ..

وبعد ذلك جاءه من روسيا ثلاثون فلاحا عضتهم ذئاب مسعورة .. جاءوا الى باريس ولا يعرفون من اللغـــة الفرنسية الا كلمة واحدة : باستور .. وعالجهم وانقذ من الموت عشرين واحدا منهم .. أما سبب وفاة الآخرين فلأن الذئاب قـد عضتهم قبل ثلاثة اسابيع . وقد جاءوا اليه متأخرين .

والوف آخرون من كل أوروبا جاءوا الى باستور يطلبون علاجا لأمراض أخرى لا يعرفها.ولكنه تمنى ذلك وتمنى لهذا المعهد الذى أنشىء حديثا أن يكون أملا لكل المرضى . والا يرد مريضـــا .. ولا يخيب املا فى الشفاء .. وهذا المعهد يعيش على الامصال التىيبتكرها ويصنعها ويبيعها للعالم كله لحقن المرضى ..وسلامتهم بعد ذلك ..

يقال أن مريضا سأل باستور : كيف عرفت طريقك الى هذه الكائنات الصغيرة ؟

فأجاب : انا لم اعرف طريقها ، هى التى عرفت طريقى ... واعترضتنى وعطلتنى .

— كيف ؟

ــ انها أصابتنى بالشلل فى احدى ساقى .. ولا أعرف أن كنت سوف أعيش لاجد علاجا للذين أصيبوا .. أو لاجد وقاية للملايين حتى لا يصابوا ..

ــ ولكنك أنقذت الملايين ..

ــ هذا رقم كبير ..

ــ فعلا أنقذت الملايين ..

ولكن هناك ملايين آخرين يجب انقاذهم .. ملايين لم يولدوا بعد .. هذا هو الذى يشغلنى !

وقبل باستور سئل العالم الألمانى العظيم روبرت كوخ عندما جاء الى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر :

ــ يا دكتور كوخ انت مكتشف عظيم فضحك ليقول : مكتشف عظيم لكائنات حقيرة .

ــ هل ترى انها حقيرة فعلا ؟

ــ لاشيء حقيرا فى هذا الكون فكل شيء خلقه اللهبعناية ليؤدى دوره بمنتهى الاتقان .. آه لو رايت هذه الميكروبات كيف تعمل على أداء مهمتها .. كيف تدافع عن نفسها .. كيف تتسلل الى الجسم الانسانى وتتحصن .. ان نشاطها وتماسكها ونظامها يحسدها عليه كل المهندسين والعسكريين .. ولكنها كائنات ضارة .. وهى

فى نفس الوقت كائنات لها نظام عجيب يبعث على الدهشة والايمان بعظمة الله .. صحيح انها ضارة جدا ولكنها اجهزة دقيقة جدا .. وهذا هو الذى يبهرنى .. ولذلك أحاول دائما أن اهرب من الوقوع فى أسرها .. وأتوقف بسرعة عن الاعجاب بها الى العمل على الوقاية منها ..

.. وكانت بداية رائعة للحرب ضد الكائنات الصغيرة جدا من اجل القضاء على بقية الكائنات !



هذه الكائنات الناطقة

لى عظمة الجيوش

جمع الملك لويس الخامس عشر رجاله وتلفت اليهم يقول : ماذا يجب ان نكتب فى هذه الرسالة ليعرف عدونا روح الشعب الفرنسى . واختلف الرجال حول الملك .. كل واحد يقول عبارة تليق بعظمة فرنسا ولكن الملك راى شيئا آخر .. واشار بيده . وجاء رجل وقال له : هذه العبارة انقشها على مدفعى .

وضحك الرجال حول الملك . وكأنما أراد الملك أن يحرجهم جميعا . فتساءل : ماذا تقولون ؟ ولم يقل أحد . وقال الملك : انقش هذه العبارة على مدفعى : أقفلت باب المناقشة وفتحت النار !

ثم جاءت الجمعية الوطنية الفرنسية يوم ١٩ اغسطس سنة ١٧٩٠ ومسحت هذه العبارة !

ولكن مثل هذا النقاش بقى دائرا دائما فى كل مكان : هل هى الحرب ؟ هل هو السلام ؟ أيهما الوسيلة لاقناع الآخرين ..

او ارغامهم على الاقتناع والنتيجة : موت عشرات الألوف . مئات الملايين من الناس فى كل العصور !

ولكن لماذا الحرب ؟

قبل ان تجيب على هذا السؤال بالنيابة عن شعبك ، أسأل : لماذا الحرب بينك وبين الناس . فاذا وصلت الى نتيجة فاضربها فى عدد سكان شعبك والشعوب الأخرى . والنتيجة مقنعة لانها هى الجواب الصحيح !

* * *

ولكن هل هذا هو نوع الحرب الوحيد الذى عرفه الانسان ! الجواب طبعا : لا ... فهناك حروب من نوع آخر .. حروب بلا جيوش ولا اسلحة ولا نار ولا شرار ولا خطب ولا زعماء ، ولا نياشين ولا أنواط .. حروب اقوى من كل الحروب ، بل هى الحروب التى أوقفت الحروب وأعادت الجيوش من منتصف الطريق .. ولم يجد الانسان وسيلة واحدة لايقافها .. هـــذه الحروب هى حروب الانسان ضد قوى طاغية باغية جبارة .. ضد الميكروبات والحشرات والحيوانـــات التى تنقل الميكروبـــات الى طعام الانســـان وشرابه وملابســـه وتقهره فى معركة غير متكافئة الميكروبات هى الأقوى دائما ..

ومن اقدم العصور يحدثنا مؤرخ الاغريق هيرودوت أن الملك الفارسى اكزركيس دخل منطقة تساليا بجيش من ٨٠٠ ألف رجل .. ونفدت الذخيرة ثم جاء الجوع فأسقط رجاله ضـــحية لمرض لا يعرفونه .. فمات من رجاله نصف مليون جندى .. وعاد الملك كسير الرأس الى بلاده !

أما قوات اثينا ، فقد هاجمها المرض ، وأطاح بجيشها وارقده على الأرض . وداست الجيوش بعضها البعض .. ومات الف فارس وأربعون ألفا من الجنود .

وفى عام ٤١٤ قبل الميــلاد حاصرت قوات قرطاجنــة مدينة سرقوسة واكتسحتها الأوبئة وانحسرت المعارك قبل أن تبدأ .

ولا أحد يعرف مصير روما والحروف البونية لو وجد القــائد هانبيال قواته فى صقلية كما تركها قوية ولم يستبد بها المرض .

ثم الحروب الأهلية فى روما سنة ٨٨ ق.م وانتصار ماريوس المؤكد قد اضاعه انتشار مرض لا يعرفون اسمه فى ذلك الوقت وقضى على عشرين ألفا من رجاله .

وفى عام ٤٢٥ ميلادية تقدمت جيوش الهون الى القسطنطينية .. ولكن وباء استشرى بينها فعادتالى قواعدها فى وسط أوربا .

أما الحروب الصــليبية فهى نموذج صــارخ لما يفعله مرض الأسقربوط الذى يجىء عن نقص فى التغذية وحاجة الجسم الى الفيتامينات ، وضعف الجسم وعجزه عن مقاومة اى مرض دخيل ففى ١٠٩٨ زحفت الجيوش الصليبية فىاتجاه الأراضى المقدسة ، وزحف الجوع وســوء التغذية فى الاتجــاه الآخر . وكانت هذه الجيوش تضم سبعة آلاف من الفرســان ، مات منهم خمســة آلاف .

وبعد أيــام من الزحف على القدس ســنة ١٠٩٩ لم يبق من

الجيش الذى يتكون من نصف مليون سوى ستين الفا .. وفى سنة ١١٠١ أصبح عدد القوات الصليبية عشرين ألفا .. عادوا حفاة عراة يركبون الأبقار والحمير الى أوربا !

وفى الحملة الصليبية الثانيـــة التى قادها ملك فرنسا لويس السابع كان من نصيبها أن تلقى نفس النهاية . ولم يبق من جيش يضم نصف مليون سوى ثلاثين الفا !

وحدث شىء آخر فى سنة ١١٩٠ ان جاء مرشد تركى وســـارت القوات الصـــليبية وراءه ، واذا بالرجل يستدرجهم جميعا الى الصحراء حيث الجوع والعطش ومرض الاسقربوط ، مات مائتا الف ، أما الباقون فعادوا نصف أحيـــاء .. ومات الكثير منهم فى الطريق حتى عبروا الدردنيل بقايا بشر !

وحدث أيضا ان الامبراطور الألمانى فريدريش الثانى قد غادر باسطوله ميناء برنديزى الايطالى ، فى طريقه الى بيت المقدس .. ولكن فى احدى ليالى ١٢٢٧ أحس الامبراطور بآلام شديدة واسهال دموى . لقـــد اصـــيب الامبراطور بالدوسنتاريا وجـــاء طبيب الامبراطور .. ما الذى يصنعه ؟ ولكن بعد ساعات أصيب أحـــد الضباط .. ومئات الضباط والوف الجنود وعاد الملك وجيوشـــه من عرض البحر !

والاسقربوط ليس مرضا معديا ، ولكن من أمراض الحروب ! وخصوصا القوات المحاصرة والقوات الزاحفة وقتا طويلا .. وقد أهلك ملايين الجنود فى التاريخ .. وهذا المرض ليس خطيرا فى ذاته فقط ، ولكنه صديق لجميع الأمراض الاخرى . فهو يساعدها

على التسلل الى الاجسام ويضعف مقاومتها .. ويجعل اقامتها ايسر .. حتى الموت !

وفى الجمعة الأولى من سنة ١٢٥٠ أعلن القديس لويس ملك فرنسا ، أن قواته تصاب بأشياء غريبة . وفسر ذلك بأن رائحة الجثث هىالسبب . وأن الديدان التى تأكل جثثالقتلى فىالانهار ، هى التى تؤدى الى انتشـــار الأمراض بينها . أمـــا المرض فهو الاسقربوط طبعا . وكان يجفف جلد البشرة والساق .. ويجفف الحلق والشـــفتين واللثة .. وكان الحلاقون يزيلون هذا الجلد الميت بالسكين حتى يتمكن الجنود من تناول الطعام والشراب . وكان الجنود يصرخون كالاطفـــال . ولكن لا تفســـير علميا لذلك وانسحبت جيوش القديس لويس . ولم يكد يصل الى تونس حتى مات يوم ٣ اغسطس سنة ١٢٧٠ ومات ابنه يوم ٢٧ اغسطس .. وكانت آخر كلمات القديس لويس : هؤلاء الكفرة الوثنيون قد استخدموا ضدنا أســـلحة لا نعرفها — اما الكفرة الوثنيون — الذين يقصدهم فهم المسلمون !

اما القوات الرومانية فقـــد أحرقت معسكراتها كلهـــا يوم ٦ أغسطس سنة ١١٦٧ لماذا .. يقول طبيب الحملة نفسه . أصيب الجنود بارتفاع فى درجة الحرارة ورعشة وهذيان وآلام شديدة فى الظهر والساقين والبطن . وهـــذا التشخيص دقيق .. أما المرض فهو التيفوس !

وهو من اخطر الامراض واشدها فتكا بالجيوش فى العصور القديمة !

* * *

ويمكن أن نسجل الصراع بين فرنسا واسبانيا فى كل العصور القديمة بأنه صراع بين المرض والصحة . وانه فى كل مرة تزحف القوات يعود بهـا المرض . وكان المرض أو الميكروب هو الذى يحدد اتجاه الجيوش ويلوى مسارها وانكسارها والملك الفرنسى فيليب الثالث عاد من حملته على أسبانيا سنة ١٢٨٥ . فقد هزم الوباء جيش الملك وقضى على الملك نفسه !

وربما انفردت الحروب بين أسبانيا وفرنسـا بانتشار مرض واحد هـو التيفوس ، وهو يجىء من القمل الموجـود فى ملابس المتحاربين !

وفى أول اكتوبر سنة ١٤٣٩ وصل الامبراطور الالمانى البرشت الى مشارف بغداد . وفى يوم ١٣ من نفس الشـهر انسـحب الامبراطور والجنود . فقـد أقعدتهم الدوسنتاريا عن مواصـلة السير أو استئناف القتال !

اما الملك شارل الثامن ملك فرنسا وهو يحاصر نابولى الايطالية فقد اصـدر قراره بالعودة . ولم يكن فى حاجة الى أن يشرح السبب ، فقد أصيب هو وألوف من جنوده بمرض الزهرى !

وعندما حاصر الملك شـارل الخامس ملك فرنسا مدينة متس الالمانية تراخى الحصار فقد أصيب هو وثلاثون ألفا من جنوده بالدوسنتاريا .

اما الامبراطور الالمانى ماكسميليان الثانى فقد فقد جيشا من مائة الف جندى كان موجها ضد السلطان سليمان . وكان فى نية الامبراطور أن يزحف على المجر ولكن حدث شىء سنة ١٥٦٦ جعل الامبراطور يعدل عن قراره .. فقد دبت المعارك بين القوات ..

وسحب كل واحد سلاحه على الآخر : سخونة وهذيان . فالجنود قد أصابهم التيفوس وعدل الامبراطور عن الحرب !

أما حروب الثلاثين عاما فى أوربا ، فقد تميزت بسيادة التيفوس على كل المتحاربين . بل أن القوات الالمانية قد زحفت من اتجاهين على مدينة نورمبرج فى سنة ١٦٣٢ ، ودون اتفاق بين الطرفين انسحبت الجيوش من هنا وهنـــاك . والسبب : الاسقربوط ، والتيفوس والدوسنتاريا .

والملك الانجليزى تشـــارلز الاول كان فى نيته أن يزحف على لندن . وعارضه البرلمان . وتوقف بعض الوقت ، ثم توقف نهائيا بعد أن أصابه التيفوس . فتوقف عن الحركة تماما .

وعندما انتصرت قوات الامبراطور فريدريش الاكبر على قوات الامبراطورة ماريا تريزا النمساوية زحف على ولاية بوهيميا .. ولكن على غير ما توقع النمساويون ، عـــاد الامبراطور منسحبا أما السبب فيرويه لنا الدكتور لوكوف طبيب الامبراطور : لم يكن الامبراطور معتدل المزاج فى هذا اليوم ، كان عصبيا جدا ، وكان رجلا كافرا . ولا يؤمن بوجود اله أو معجزة أو أن الدعاء الى الســـماء من الممكن أن يحقق شـــيئا ما .. وكان الناس حول الامبراطور يصلون له . وكان الامبراطور عاقلا . فقد امتنع عن الطعام .وكان يحتفظ بأنواع من العقاقير جاءت اليه من الشرق ولابد أن أحدا قد نصحه بأن يتناولها كلما مرض . وتناول الذى لا أعرفه . وشفى الامبراطور من الدوسنتاريا .. ولكن الألوف من جنوده قد خلعوا ملابسهم وتفرقوا فى الغابات بسبب الاسهال الدموى الشديد .. وقرر الامبراطور وهو حزين تماما أن نجمع أشياءنا ونعود . ولا داعى للحرب !

وقد لعبت الدوسنتاريا دورا هائلا فى انقاذ الثورة الفرنسية — هكذا يقول الطبيب الساخر الممتع هانس تسنسر فى كتابه «الفئران والقمل والتاريخ» . يقول : فى سنة ١٧٩٢ قرر الامبراطور فريدريش فلهلم الثانى اعداد جيش من خمسين ألفا للزحف على قوات الثورة الفرنسية والقضاء عليها . وراجع الامبراطور الخطة مع قواده .. وسألهم ان كان النصر مؤكدا . قالوا : نحن متحدون وهم متفرقون . نحن أقوياء وهم فلاسفة ..

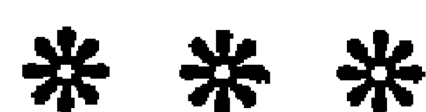
وقرر الامبراطور الزحف . وتقدمت القوات . ولكن فجأة تفرقت القوات كل جندى فى مكان .. وكان الجنود يسابقون الضباط فى البحث عن مكان يتوارون فيه . فقد أذابتهم الدوسنتاريا .. وكان منظرا غريبا عجيبا .. كل هذه القوات قد تدلت على شواطىء الراين تعانى من آلام هذا المرض المفاجىء !

وفى سنة ١٨٠١ أرسل نابليون قائده الجنرال لكلارك ومعه ٢٥ الف جندى لاخماد ثورة نشبت فى هاييتى . ونزلت القوات الفرنسية الى شواطىء الجزيرة . وتراجعت أمامها القوات الزنجية . ثم تقدمت الحمى الصفراء تحصد الفرنسيين وقتلت منهم ٢٣ الفا .. ولم يبق حتى من هذا العدد سوى ثلاثة آلاف فرنسى عادوا الى فرنسا سنة ١٨٠٣ !

يقول كوركوف طبيب نابليون : لو كان نابليون قد توقف بعض الوقت فى بولندا . وأعاد تنظيم قواته . وراعى الاجراءات الصحية ما كان هذا مصيره أمام موسكو . ان المرض قد هزمه قبل الجليد وقبل القوات الروسية . المرض أولا . والجليد ثانيا والارهاق ثالثا والروس رابعا .

يقول كوركوف أيضا : لقد انسحب نابليون من موسكو ومعه مائة الف جندى .. اما الباقى فموتى ومرضى ومتجمدون وقتلى .

اما المريشال الفرنسى ناى فقد أمره نابليون بأن يصمد .. وصمد الماريشال حتى لم يبق معه سوى عشرين جنديا وضابطا .. وهؤلاء الجنود ماتوا بالدوسنتاريا والتيفوس .. بل أن هؤلاء الجنود قد أكلوا جلود الأحذية .. واكلوا لحوم البشر .. كان الجندى ينكفىء على الجندى الآخر ويبحث فى جسمه عن مكان لم يصب بشىء ويأكله .. ويرتمى الى جواره مسموما أو مريضا . ثم ميتا بعد ذلك !



ان العلم الحديث قد كشف للانسان أن هناك كائنات أصغر منه واقوى منه .. ليس الحيوان الطيب هو الذى أجمل من الانسان واكثر فضيلة .. وهو الذى احق بالعناية والاحترام .. وانما هناك كائنات أصغر واحقر واتفه مما يتصور .. هذه الكائنات الضئيلة هى التى قضت عليه وابادته وجعلته يشعر انه اصغر واتفه .. **وعلى ذلك يجب ان يتواضع الانسان قليلا او كثيرا .. فليس هو السيد المطاع الامر الناهى القادر على كل شىء .. او القادر على كل شىء الا شيئا واحدا : هذه الحشرات أو هذه الميكروبات التى لا يدريها .. ويجب أن يتفرغ لها ، فهى لا تكف عن التكاثر والاتحاد دفاعا عن حياتها .. ويوم ينقرض الانسان سوف تكون هذه الكائنات وارثة للارض وما عليها ومن عليها !**

لا وفاء عند الناس والكلاب نظرية !

اديبة فرنسا كوليت هى التى قالت : لو لم اكن انســـانا لتمنيت ان اكون حيوانا . ولمـــا سئلت : اى الحيوانات تختـــارين ؟ قالت : ان اكون قطة تلعب مع كلب فى قفص قرود على جبل الأسود . ولما سئلت مرة اخرى : ولـــكن لماذا ؟ قالت كوليت : فقط ان اعيش بغريزتى بلا خوف .. بلا حدود بلا سدود بلا تدخل من احد من رجال القانون او الدين .. من هـــذه الاكاذيب التى يســـميها الناس : حضـــارة الانسان ..

اننى لا أرى الانســـان اســـعد من الحيوان .. اننى لا أرى الطائرات أخف من الطيور .. اننى لا ارى الرجال اشـــجع من الاسـود ولا اكرم منها .. اننى لا اصـــدق ان الانسان هو اجمل واذكى واقوى هـــذه المخلوقات على الارض .. اننى كلما عرفت الحيوان ازددت احتراما له ، واحتقارا للانسان .. اسعد لحظات عمرى هى التى اشعر اننى فيها مثل قطة أو مثل كلبة .. وان كل

الذين حولى ليسوا من البشر .. ولذلك اجد سعادتى الكبرى فى أن اغمض عينى حتى لا ارى آدميا واحدا .. واعيش بخيالى مع مالا عدد له من الحيوانات .. اننى عندما افتح عينى أجد الانسان ، وعندما أطبقهما أجد الحيوان — ولذلك سعادتى الكبرى ان اقفل عينى والباب والنافذة وأسحب الغطاء على راسى وامــوء كالهرة السعيدة بأنها تجردت من انسانيتها المزيفة ! » .

وكلام كثير آخر جميل تقوله كوليت التى الفت كتبا عناوينها : السلام عند الحيوانات .. كيكى اللذيــدة .. سبع محاورات مع الحيوانات ..

ولكن أحب الحيوانات الى كوليت : القطة .. لماذا ؟ لديها الكثير جدا الذى تقوله عن نعومة القطــة ونظافتها .. ورشــاقتها .. وتسللها فى الليل دون ان يشعر بها احد .. كأنها فكرة او كأنها شبح او كأنها مرض .. أو كأنها شىء يطير دون أن تحركه جاذبية الارض ..

تقول كوليت أيضا : لا اعرف لماذا هم فى الشرق يعتقدون أن القطة لها سبعة اعمار .. وأنها من الممكن أن تموت اكثر من مرة .. أو من الممكن أن تيعش أكثر من مرة .. ان القطــة — وهى شرقية الأصل — يجب أن تعيش مائة عمر .. فكل ما يحتاجه الانسان فى الدنيا ، هو أن يكون ناعم الحركة واللمسة والفكر .. لان تعاسة الانسان هى خشونته .. خشونة الكلمة والفعل !

* * *

وهذه القطط دخلت أوروبــا مع الحروب الصــليبية . وكانت حيوانا غريبا . ولكن بسرعة عرف الاوروبيون فضائلها : انهــا

تهجم على الفئران تأكلها ويكفيها ذلك فخرا . وقد كانت عند الفراعنة حيوانا مقدسا . وكان العرب هم الذين نقلوها الى أوروبا والاسلام قد طلب من الناس الرحمة بالقطة بل أن الرسول عليه السلام يروى : أن امرأة دخلت النار بسبب قطة حبستها : لا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من فضلات الأرض .

ومع اكتشاف الميكروب وطرق العدوى بدأ الناس يخافون من القطط والكلاب أو من الكلاب فقط . لان القطة تنظف نفسها بلسانها فلا تترك ذرة تراب فى فروة جلدها . ولكن العلماء يؤكدون انه رغم هذه النظافة المؤكدة فانها تنقل الميكروب ايضا . بدأ الناس يشعرون بالخوف من القطط والكلاب ويحترسون فى معاملتها وفى الاقتراب من اظافرها وانيابها وفمها .. ورغم تحذيرات الاطباء فان الناس مضوا يحبون القطط والكلاب ويطعمونها ويقبلونها . وأكثر الاطباء يحذرون من القبلات بين الرجال والنساء ويرون أن الفم اقل مكان فى الجسم كله نظافة وطهارة . وان العدوى مؤكدة عن طريق الفم . فهل سمع الناس هذه النصيحة ؟ طبعا لم ولن يسمعوها . ويقول أطباء آخرون : (ان الفم يتغير طعمه ويصبح اللعاب قاتلا للميكروبات عند القبلات الحارة . وأن القبلات التى تنقل الميكروبات هى الباردة التى لا احساس فيها) .

وليست كل القطط مفيدة : أى تقتل الفئران ، انها القطط الضالة أى أن القطط التى تفيد الانسان هى التى لاتستفيد من الانسان .

* * *

ولكن عرف الانسان ان القط حيوان نظيف ، ولكنه غبى وعنيد .. وليس مفيدا مثل الكلاب . فالكلاب يسهل عليها أن تتعلم . فتكون للحراسة وللصيد ولانقاذ الجرحى فى الحرب والسلام ..

وقد حصلت الكلاب على نياشين عسكرية . وصعدت سفن الفضاء .

وعاش الناس الوف السنين يتغنون باخلاص الكلب لصاحبه ووفائه حتى الموت : فكثيرا ما عاشت الكلاب تحت أقدام أصحابها، حتى اذا مات الصاحب امتنع الكلب عن الطعام حتى الموت . وفى القرآن الكريم قصة أهل الكهف الذين ناموا فى كهفهم وظل كلبهم نائما بالباب اكثر من مائتى سنة ..

وكان نوم الكلب واسمه « قطمير » رمزا للوفاء الطويل،والانتظار الذى لا يعرف الملل !

وكان من عادة الناس فى الريف المصرى أن يكتبوا على خطاباتهم كلمة « قطمير » — حتى لا يضيع الخطاب !

حتى جاء عالم روسى اسمه بافلوف فجرد الكلاب من وفائها ونزع من السعادة الانسانية كلها حبها لاخلاص الكلاب .. أو حبها للاخلاص فى الكلاب . وخرج بنظرية تقول : لا الكلاب عندها اخلاص ولا الانسان عنده وفاء .. وانما كل ما هنالك مجموعة من الأفعال والأفعال المنعكسة المترابطة .. مثلا : اذا أتينا بالكلب وقدمنا له الطعام وفى نفس اللحظة رحنا ندق جرسا . فان لعاب الكلب يجرى مع رؤية الطعام وصوت الجرس .. واذا سمع صوت الجرس دون طعام فان لعابه يجرى .. وكل تصرفات الحيوان والانسان مثل هذا الكلب تماما .. فالكلب الذى يرى صاحبه فينام عند قدميه أو يأكل أو يشرب .. ويعتاد على ذلك ، فاذا تغيب الصاحب لسبب ما ، فان هذا الكلب لا يأكل ولا يشرب .. لا حبا ولا اخلاصا .. ولكن مجرد فعل ورد فعل .. فلا اخلاص ولا وفاء لا عند الناس ولا عند الكلاب !

ولكن الناس يرون فى الكلاب رغم ذلك ، اخلاصا وحبا وطاعة عمياء ــ يفتقدونها بين الناس !

* * *

واذا كانت أديبة فرنسا كوليت قد كتبت كثيرا عن الحيوانات فلا ينافسها الا أديب بلجيكا مترلنك الذى الف كتابا عن « حياة النحل ». وهو لا يقصد النحل بالذات .. ولكن ينظر الى الانسان من خلال النحل .. ويتمنى لو كان للانسان بعض مالدى النحل من حب واخلاص وصدق وتعاون وانكار للذات .. ولكن احدا لا يستطيع أن يألف النحل أو يستأنسه أو يجعله طيعا مثل الكلاب .. ولذلك بقى النحل مثل كثير من الحشرات والحيوانات التى يراها ولا يقترب منها اى يعجب بها من بعيد ! .

واستفاد الانسان من طائر قديم واستخدمه فى نقل الرسائل من مكان الى مكان هذا الطائر هو « حمام الزاجل » وقد استخدم الفراعنة هذا الحمام .. واستخدمه الاغريق . ويقال أن البحارة الاغريق كانوا يطلقون هذا الحمام قبل نهاية الرحلة التى يقومون بها . ويعود الحمام الى مكانه وفى جناح كل منها أو فى رجلها علامة وهذا معناه أن البحارة قد وصلوا فى سلام .. وفى ذلك الوقت لم يكن احد يعرف وضع الرسائل فى سيقان حمام الزاجل .

وبعد سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية توقف الاوروبيون . لأسباب غير معروفة الآن عن استخدام حمام الزاجل الذى انتشر فى الشرق الاوسط . فقد كان خلفاء بغداد يسرفون فى استخدام حمام الزاجل . فلا يوجد قصر من قصور الخلفاء أو الولاة ليس به برج أو قفص . وكثيرا ما يكون قفص حمام الزاجل فى قاعة الاستقبال فى قصر الخليفة . وكثيرا ما تلقى الخليفة أو السلطان أو الوالى

مفاجأة تهبط من السماء عليها ويفتحون رسالة الحرب أو السلام أو الحب ..

وفى سنة ١٥٩٠ عندما حاصر ملك فرنسا هنرى الرابع مدينة باريس ، لم يجد الفرنسيون وسيلة للافلات من هـذا الحصـار الا بحمام الزاجل يطلقونه فى سماء باريس يحمل الاخبار ويحمل اليهم الاخبار .. ويقال ان الانجليز قد استخدموا الصقور واطلقوها على الحمام ولكن الحمام أسرع فى الطيران ، واكثر طاعة لغريزته ولكن الصقور لم يكن من السهل ترويضها أو التحكم فى طيرانها او انقضاضها على حمام الزاجل .

ومن اشهر حوادث حمام الزاجـل فى القرن التاسـع عشر أن المليونير اليهودى روتشيلد كان يتابع معركة واترلو بين نابليـون وولنجتون . وارسلوا له اخبار المعركة عن طريق حمام الزاجل . ولم يكن أحد يشك فى ان نابليون هو الذى سوف ينتصر . ولذلك هبطت اسعار البورصة . وتقدم روتشيلد واشترى كل الاسـهم لان الحمام نقل اليه أن ولنجتون الانجليزى هو الذى انتصر . وقد عرف روتشيلد هذه الانباء قبل أن تعرفها الحكومة البريطـانية . وارتفعت الاسهم وعاد روتشيلد وباع كل ما عنده . فكسب الملايين!

وفى سنة ١٨٤٠ استخدم الصحفى الالمانى رويتر حمام الزاجـل بين فرنسا وبلجيكا ، حيث لا توجد خطوط تلغرافية .

ورغم وجود الخطوط التلغرافية ظل استخدام حمام الزاجـل منتشرا بين الدول وقد ظهر حمام الزاجل بصورة واضحة جدا فى الحرب بين فرنسا وبروسيا سنة ١٨٧٠ . ومن أشهر الرسـائل التى عرفها المقاتلون فى ذلك الوقت ما بعث به مستشـار المانيـا بسمارك فقد أرسل رسالة مع حمامة لاحد قواده . الرسالة تقول: طبعا فهمت !

وواضح انه يخشى أن تقع هذه الرسالة فى يد الفرنسيين .ولكن القائد فهم ما يقصده بسمارك .. ولم يفهم أحد غيرهما شيئا حتى اليوم !

وكان الفرنسيون يضعون حمام الزاجل فى بالونات . ويطلقون البالونات الى السماء . وبكل بالون قفص . ولا يكاد يرتفع البالون ويخرج من المناطق المحاصرة حتى يدفع الحمام باب القفص ويخرج. ويقال أن حمام الزاجل قد حمل اكثر من مليون رسالة الى أهل مائتى ألف فرنسى .

وعيب حمام الزاجل ان نشاطه محدود . فهو يعود الى المكان الذى عاش فيه . والذى يحدث هو أن الناس ينقلون الحمام الى أى مكان ثم يطلقونه فاذا به يعود الى مكانه الاصلى ..

مهما كانت المسافة .. قد تكون الفا او عشرين الف كيلو متر .. ويستطيع حمام الزاجل أن يطير بسرعة خمسين ميلا فى الساعة ولا يتوقف عن الطيران حوالى العشرين ساعة ..

ولكن رجلا ايطاليا وجد حلا لهذا النشاط المحدود لحمام الزاجل فقد قرأ عبارة للشاعر الالمانى شيلر تقول : مالم يتمكن العقل من السيطرة على كل شىء ، فان الجوع والحب قادران على أن يتحكما فى تصرفات الناس !

قرأ رجل ايطالى اسمه مالاجولى هذه العبارة وكان يحب حمام الزاجل ففهمها على هذا النحو : ان تجويع حمام الزاجل هو الذى يجعله يطيع الاوامر .. وابعاده عن انثاه أيضا .

ولذلك لجأ مالاجولى الى حيلة .. فكان حمام الزاجل اذا هبط عنده أطعمه كثيرا .. ولكن ابعده عن الانثى او عن الذكر حتى

لا يكون جنس .. ثم نقله الى مكان آخر حيث يكون الجنس .. وبعد التمرين اصبح حمام الزاجل بدلا من أن يهبط فى مكان واحد ، فانه يهبط فى مكانين .. وكان هذا هو أول تعديل فى سلوك حمـــام الزاجل !

غير أن العلم الحديث لم يهتد الى تفسير واحد لسلوك حمام الزاجل . هناك رأى يقول : ان الحمام يهتدى بجاذبية الارض .. ورأى يقول بضوء النجوم .. ورأى يقول أنها ملوحة الهـــواء او الماء .. ورأى يقول بأن هناك بوصلة فى راس حمام الزاجل يضبطها ذهابا وايابا .. ولكن لا يوجد تفسير واحد يقنع الجميع ..

وقبل أن تعلن الحرب العالمية الاولى بليلة واحدة كانت الجيوش تنظم حمام الزاجل وتكشف عليها وتطعمها .. تماما كما تفعـــل بقواتها المسلحة قبل دخول المعـــركة . وفى المانيا وحدها فى ذلك الوقت ثلاثة آلاف جمعية لتربية حمام الزاجل ..

وحاول الكثيرون أن يلقنوا حمام الزاجل دروسا أخرى كمـــا فعل الهاوى الايطالى مالاجولى .. ولكن لم يصلوا الى نتيجـــة معقولة .. ولكن رجلا ايطاليا آخر هو الذى الغى مهمة حمـــام الزاجل تماما . ذلك الرجل هو ماركونى الذى اكتشف الاتصالات اللاسلكية بين الدول .. ولم يعد هناك ما يخيف أحدا أو يعوقه .. فالعالم كله أصبح قريبا جدا .. ففى امكانك أن تتصل بأى مكان فى نفس اللحظة وأنت جالس فى بيتك !

* * *

ولا شك أن ذكاء القط أقل من ذكاء الكلب . وكلاهما محدود الذكاء . والقدرة على تعلم هذه الحيوانات محدودة أيضا . وحمام

الزاجل ليس ذكيا ولكنه ينطلق غريزيا وبصورة لا نجد لها تفسيرا علميا .

وربما كان الحصان أذكى هذه الحيوانات جميعا . فقد استطاع أحد النبلاء الالمان ان يجعل حصانا اسمه هانس أن يكتب بساقه الارقام .. او ان يعلمه الجمع والطرح والضرب ، فكان يكتب المئات بساقه اليسرى والعشرات بساقه اليمنى . ولم يحدث انه اخطأ قط ..

واستطاع النبيل الالمانى فلهلم فون دوستن أن يجعل الحصان يكتب كلمات المانية طويلة ..

واستطاع ايضا أن يروض أحد الخيول العربية على كتابة اللغة الالمانية بدقة . هذا الحصان اسمه « عربى » وكان عربى يخطىء فى كتابة بعض الحروف ويصر على ذلك . ولكنه كتب أكثر من مائة وخمسين كلمة المانية ..

وجاءت الحرب العالمية الثانية وشغلت الناس عن تلقين الخيول ان تتعلم او تتكلم ..

* * *

ولكن اثر هذه الحيوانات وهذه الحشرات وهذه الميكروبات فى تاريخ الانسان طويل عريض .. ولكنه لم ينته بعد . وكل ما على الانسان فقط ان يسجل ما يحدث له بسببها ، وما يحدث لها بسببه .. ولكن فى ذهنه دائما انها هى الاقوى رغم ان احدا لا يصدق ذلك ، او لا يريد !

عندما أعلن موسوليني

حرب الأبقار ضد الأغنام!

ليس بالخبز وحـــده يعيش الانسان . وانما يعيش الانسان بالخبز واشياء اخرى . واذا لم يجد الانســـان الخبز ، فلابد ان يتحث عن شيء آخر بديل .. وملكة فرنسا عندما ثار الشعب عليها يطلب الخبز . قالت الملكة : ولماذا الثورة اذا لم يجدوا الخبز : فلياكلوا البسكويت . وكانت هذه العبارة امطارا من البنزين على نار الغضب . فالملكة ظنتان الشعب يجـــد الخبز والبسكويت معا . فاذا لم يجد هذا فيمكنه ان يتجه الى ذاك..

ولم تفهم الملكة أن الشعب لا يجد الاثنين . ومهمة العلم الحديث الآن هى أن يجد الناس الخبز والبـــديل عن الخبز حتى لا يثور . او حتى لا يموت .

والناس لا يموتون عادة بسبب الجوع فقط . وانما بسبب المرض. أو بسبب الحوادث او بالحروب . ولذلك من الضرورى أن يكون عدد الناس محددا حتى تكفيهم موارد الطبيعة .. فاذا لم تكف فعـــلى

الانسان أن يهز راسه ليجد حلا لهذه المشاكل الحيوية . وقد وجد الانسان الحل عن طريق الكيمياء . فهى تعوضه عن الذى فقده . وهى التى تملأ فراغ الجيب والمعدة . .

فالانسان مثلا عندما كان يجد السكريات فى عسل النحل اتجه الى تربية النحل ، وعندما عجز عن اطعامه اتجه الى استيراد السكر من القصب ، ثم راح يعتصر السكر من البنجر . وكان ذلك أيام نابليون وفى حروبه .

وظل النحل حشرة هامة جدا فى ليالى أوروبا . فالنحل مصدر الشمع ، والشمع هو رونق الكنائس . وظلت الكنائس هى المستهلك الأول لشمع العسل . وعندما انتشر الغاز ومن بعده الكهرباء لم يعد احد فى حاجة الى شمع النحل . . وبعد ذلك ظهر السيكارين ليعلن انه ليس من الضرورى أن يميت الانسان نفسه من أجل السكر فى القصب وفى البنجر وفى العسل . . وعندما اعلن أن السيكارين خطر على الصحة ، وانه يؤدى الى الاصابة بالسرطان عاد الناس الى عسل النحل وعندما أعلن أن النحل ايضا يموت من المبيدات الحشرية الموجودة فى الحدائق . وأن السموم موجودة فى الزهور التى يمتصها النحل ، وأن نسبة من السم تنقل الى العسل نفسه ، عاد الانسان ليبحث عن السكريات فى الفاكهة . ولكن سموم المبيدات الحشرية قد انتقلت أيضا الى الفاكهة . وعندما حار الانسان ما الذى يفعله قال له الأطباء أن الجسم الانسانى قد تشبع بالسموم فلا خوف عليه . هنا عاد الانسان الى البحث عن السكريات من كل مصدر .

ولم يعد السمن أو الزبدة كافية لاطعام الانسان . وقد ظهرت هذه المشكلة أيام حملات الجيوش الفرنسية فى المناطق الاستوائية . فالجنود يحتاجون الى الزبدة . ولكن الزبدة تذوب فى الجو الحار .

وقد تلقى نابليون الثالث خطابا من أحد قواده يقــول له : مطلوب معجزة . أن جنودنا لا يجدون الزبدة فالحر جهنم . والزبدة تتبخر. وأعلن نابليون عن مكافأة ماليةكبيرة لمنيجدحلا . وفى ذلك الوقت تصادف ان أحد العلماء الفرنسيين كان مشغولا بالبحث عن حل .

هذا الرجل اسمه ميج موريس . هذا الرجل اهتدى الى السمن الصناعى . وصنع هذا السمن من مواد نباتية وحيوانية معا . فاستخدم الدهون الحيوانية وبعض الزيوت النباتيـــة . وكان ذلك ميلاد السمن النباتى أو الصناعى . وأنتجت فرنسا هذا السمن على نطاق أوسع . ثم جاءت هولندا فاستخدمت بعض الزيوت النباتية وزيت الحوت وانتجته بكميات أكبر . واشتهرت هولندا بذلك لدرجة ان كثيرا من الدول تطلق على كل أنواع السمن الصناعى اســـم : الهولنـــدى . .

واقبل على هذا السمن الصناعى فقراء الناس طبعا.أما الأغنياء فعندهم الموارد الطبيعية الغالية الثمن . .

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية حاول الألمان استخراج الزبدة من الفحم . ونجحت التجربة . ولكن لم يتحمس لها أحد . وانما جعلوها نكتة . ووقفت تجارب السمن من الفحم عند هذا الحد ، ولم يدفعها احد الى الامام الا بعد ذلك بعشرات السنين فى امريكا .

وعاد الالمان الى استخراج الســـكر من الخشب . واستخراج السيكارين من القطران فى سنة ١٨٧٩ . وكان السيكارين هذا اشد حلاوة من الســـكر ٥٠٠ مرة وبأســـعار أرخص من استخراجه من الخشـــب .

ولم يفلح العلم الحديث فى اســتخراج بروتينات الحيوانات فى المعامل . ولذلك عاشت الحيوانات ليأكلها الانسان . ولكن هــذه الحيوانات دفعت ثمن هذه الحياة غاليا . فلكى يكون طعمها لذيذا يجب أن نذبحها فى سن صغيرة !

واذا كانت بعض الأطعمة لا تكفى الانسان ، فهناك الصــوف الطبيعى والحرير الطبيعى والقطن والكتــان ، كلها لم تعد كافيــة لاحتياجات الانسان صحيح أن الأقمشة هى ليست الا نوعا آخر من ورقة التوت التى تغطت بها حواء .. والأزياء ليست الا تنويعا فى شكل ورقة التوت . وقد جاء وقت على الانسان كان كل شىء أمامه متوافرا فى الطبيعة . أما فى العصور الحديثة ، وبعد تزايد السكان لم يعد الصــوف يكفى للملابس ولا الحرير ولا القطن ولا الكتان . فالانسان يأكل الأغنام . ودودة القز تعمل حتى الموت ، ولكن الانسان يطلب المزيد . ولذلك كان لابد من أن يجد حلا . والذين حاولوا كثيرون جدا . وربما كان الكيميائى الانجليزى روبرت هوك سنة ١٦٦٥ هو أول الذين حاولوا أن يجدوا بديلا عن الحرير الطبيعى فقد اهتدى الى محلول . وصب هذا المحلول فى اناء به ثقوب رفيعــة . ونزل السائل على شكل خيوط حريرية .

واهتدى كيميائى فرنسى الى شىء من ذلك ، وعرض اختراعه فى باريس سنة ١٨٨٩ هــذا الرجل شاردونيه . وحاول الألمــان شراء الاختراع . فاعتذر الرجل بأنه باهظ التكاليف . وانه ســوف يوالى البحث عن سوائل أرخص . وقامت ثورة بين علماء الكيمياء وبين الذين يربون دود القز والذين ينسجون الحرير . وكانت التهمة: ان هؤلاء العلماء يريدون خراب العالم والقضاء على مئات الالوف من الأنوال اليدوية لغزل الحرير الطبيعى !

وعلى الرغم من ان اليابان هى اكبر مصدر للحرير الطبيعى ، فانها حاولت أيضا ان تجد بديلا عنه حتى لا تتفوق عليها الدول الصناعية أو التجارية الأخرى . ان اليابان ارادت أن تغزو البلاد الأخرى قبل أن تتعرض هى لغزو يخرب بيوتها ويبيد ديدان القز عندها . وفى نفس الوقت كانت مدينة ليون الفرنسية مركز تجمع خيوط الحرير الطبيعى فى أوربا كلها وحاول العلماء فيها أن يجدوا علاجا للموقف. فأقبل بعضهم على دراسة الحرير الصناعى واستحضاره فى المعامل.

أما الامريكان فقد كانوا اسرع الجميع فى الاهتـــداء الى خيوط جديدة اختاروا لها اسما يونانى الشكل: نايلون . وفلح الامريكان فى اختراع انواع من الخيوط ناعمة طويلة . يمكن ان تصل الى الوف الكيلو مترات دون أن تنقطع .

وقبل الحرب العالمية الاولى بالضبط اهتدت ألمانيـــا واليابان فى وقت واحد الى صناعة الصوف ـــ أى الى الصـــوف الصناعى . ودخلت اليابان فى حرب مع استراليا اكبر مصدر للصوف الطبيعى فى العالم . وهاجمت دول كثيرة الصوف الصناعى فى ألمانيا واليابان، باعتباره « جنونا » فاريا أو فاشيا . وأن هذا الصوف كساء الفقراء. وأن هذا الصوف الصناعى اختراع حقير يقصد افساد جمال الطبيعة ـــ أو جمال صوف الأغنام فى استراليا ، حتى تبقى اســـتراليا هى سيدة هذه الصناعة ، وتظل بريطانيا هى صاحبة هذه التجارة . أما العالم كله فيجب أن يرضى بأن يكون زبونا ذليلا !

اذن لقد دخلت المعامل فى حرب مع الأغنام ودود القز :

بل ان الأبقار هى التى دخلت فى حرب مع الأغنام . فقد اهتدى

العلماء الى أن لبن الأبقار هو أحسن مصدر للصوف الصناعى .

وفى نوفمبر سنة ١٩٣٥ أعلن موسولينى على الشعب الايطالى وعلى العالم : أن ايطاليا سوف تنتج الصوف من لبن الأبقار . وكان هذا الاعلان ردا على تهديد أوربا لموسولينى بأنها سوف تضرب عليه حصارا شديدا بسبب حربه مع الحبشة . واقبل علماء الكيمياء على ألبان الأبقار يحولونها الى خيوط صوفية مستخدمين من اللبن مادة الكازين . ومن العجيب جدا أن الفراعنة استخدموا اللبن فى تثبيت الألوان . هذه حقيقة مؤكدة . وانهم استخدموا هذه المواد بنفس الطريقة التي اهتدى اليها علماء الكيمياء ! واستخرج الايطاليون مادة لاينتال . ومن هذه المادة خرجت البدل والبنطلونات الايطالية ، ولا تزال !

وأصبح لبن الأبقار من اهم المواد التى يستعين بها العلم الحديث فى صناعة البدائل او العجائن ..

كما أن العلم الحديث قد استغنى أيضا عن المخلفات الحيوانية ـ الاسمدة العضوية . واهتدى العلم الحديث الى الاسمدة الكيماوية فى تخصيب التربة . وفى تغذية النباتات التى تعيش عليها الحيوانات التى يعيش عليها الانسان .

وهناك بعض المنتجات الحيوانية لم يعرف الانسان لها بديلا بعد. أو عرف لها البديل ، ولكن ليس بالدرجة المطلوبة . ففراء الثعالب مثلا لا يزال مطلوبا . وكانت الصين حتى أوائل القرن التاسع عشر اكبر مركز لتجارة الفراء بكل أنواعها حتى أن أمريكا انشأت خطا

ملاحيا بينها وبين الصين . ولكن رجلا امريكيا اسمه : استور أقام مركزا فى شمال امريكا . بل انه انشأ مدينة اسمها استوريا . كلمة هامة تجدها على ماركات السجائر وغيرها وعلى الفنادق الكبرى . فهذا الرجل استور قد حول بذكاء تجارة الفراء الى شمال أمريكا ودخل بها فى حرب مع روسيا وجاء الانجليز واستولوا على هذه المدينة . ثم استردتها أمريكا . وبقى الانجليز سادة هذه التجارة .

حتى وقع حادث عجيب سنة ١٩١٩ عندما ذهب بعض التجار الكنديين يعرضون نوعا غريبا من فراء الثعلب الفضى . وكان هذا النوع من الفراء زلزالا فى أسواق الفراء . فقد استطاع هؤلاء الكنديون أن يختاروا عينات من الثعالب وان يزاوجوا بين بعضها البعض حتى انتهى التزاوج والتهجين الى نوع فضى نادر . ولكن بسرعة عرف العالم سر هذا الثعلب .واقبل التجار على تربية الثعالب فى غابات واسعة . فقد لاحظ التجار أن الثعالب التى يحبسونها يكون فراؤها خشنا .أما اذا عاشت الثعالب فى ظروف طبيعية اوكالطبيعية فان فراءها يكون أكثر نعومة وليونة . ولاحظوا أيضا أن الثعلب يميل الى أن تكون له زوجة واحدة مما يؤدى الى الزيادة البطيئة فى النسل . فحاولوا أن يعددوا زوجات الذكور . ولكنها رفضت أول الأمر . فافسدوها فأصبحت للثعالب الذكور اكثر من زوجة . وانتهوا الى أن ثلاث زوجات هو الحد الاقصى للثعلب الواحد .. ولكن اهتدى علماء الكيمياء باستخدام بعض المقويات الى أن الثعلب من الممكن أن يكون له حريم من اناث دون أن يؤثر ذلك على فراء صغاره .

وفى ذلك الوقت ــ أى سنة ١٩٢٤ كان ثمن فراء الثعلب الفضى سبعة آلاف جنيه !

وجاءت الحرب الثانية فأوقفت هذا الجنون . وفى سنة ١٩٣٨

دلت الاحصائيات على أن فى كندا وحدها أكثر من عشرة آلاف حظيرة للثعالب الحظيرة الواحدة مساحتها الوف الأفدنة من الغابات !

وظهر منافس خطير للثعلب : حيوان الشنشيلا فى بيرو ..

ثم ظهرت اغنام كاركول فى ايران .

وكان التجار يلجأون الى اجهاض الأم قبل ان تلد بقليل ثم يسلخون جلد الوليد . حرصا على ان تظل فروة الحيوان المسكين اكثر نعومة . وفى بعض الأحيان يسلخون الولد بعد ولادته العادية بساعات ..

ولابد ان أناقة المرأة هى المسئولة عن حياة بعض الطيور وموت اكثر الحيوانات . مثلا : لولا أن سيدة فرنسية جاءت من الجزائر تزور مارى انطوانيت ما عاشت مئات الالوف من النعام . فقد جاءت هذه السيدة تهدى الى الملكة ريش نعام لتضعه على راسها أو لتكون مروحتها . وأصبح ريش النعام موضة . واقيمت مزارع للنعام فى الجزائر . وحوت هذه المزارع عشرات الألوف من هذا الطائر الذى ينزعون ريشه مرتين فى السنة . وكان لابد من العناية به وبصحته نظرا لرواج تجارة ريش النعام . ولاحظ تجار الريش ان ذكر النعام اذا كانت له أناث كثيرة ، وضعت الاناث بيضا قليلا . فهى اذن ليست مشكلة الأنثى . وانما هى مشكلة قدرة الذكر على ان يكون زوجا لعدد كبير من الاناث . وحددوا للذكر ثلاث اناث فقط تضع مائة بيضة فى السنة .

وبعد ذلك جاءت التماسيح . فهذا الحيوان لابد من قتله ليكون

جلده حذاء أو شنطة أو حزاما لسيدة أنيقة . ولابد أن يكون ذلك في سنه الصغيرة . وبعد سلخه لابد من دباغة الجلد وتلوينه أو الاحتفاظ بلونه الطبيعي ..

وفي كاليفورنيا مساحات هائلة مغلقة على التماسيح .

وجاءت الثعابين لتقوم بنفس دور التماسيح . فجلدها حزام او جزمة أو شنطة . والثعابين كثيرة الأنواع والأحجام والألوان . ولكن الثعابين لها مهمة حيوية في البلاد الحارة . ففي الهند مثلا تجد أن الثعابين تأكل الفئران . والفئران اذا تكاثرت أكلت محاصيل القمح والذرة . ولذلك يجب الابقاء على الثعابين لانقاذ الغلال . وفي الهند دعوات صارخة للابقاء على الثعابين من اجل الجياع من البشر ! ولكن المرأة حريصة على أناقتها ولو مات اهل الهند جوعا !

ومن اجل أناقة المرأة أيضا نزل الرجل الى أعماق البحر بحثا عن اللؤلؤ في قلب البحار . وهذا اللؤلؤ موجود في الخليج العربي — او كان موجودا — وفي شواطىء اليابان والصين. وقد ارتفع اللؤلؤ على أعناق الجميلات . ويقال ان اللؤلؤة تحزن على صاحبتها وينغير لونها . ويقال أن لونها يتغير اذا بعدت عن موطنها . ويقال: ان الملائكة اذا بكوا نزلت دموعهم الى البحر فأصبحت لوليات ! وكثيرا ما قيل أن اللؤلؤ اذا ذاب في النبيذ في ليالي العشق اصبح سحرا . وسعادة للرجل والمرأة — يقال !

اما طريقة استخراج اللؤلؤ فهي أن ينزل الغواص او الغواصة — أكثرهم من النساء — الى المـــاء ... ويصيدون حيوان اللؤلؤ

ويفتحونه ويستخرجون من بطنه حبات اللؤلؤ .. وحيوان اللؤلؤ يستغرق وقتا طويلا يصل الى السنة والسنتين فى تكوين حبة واحـدة .

وقد اهتدى رجل صينى منذ سبعة قرون الى انه فى الامكان مساعدة هذا الحيوان على انتاج اللؤلؤ بصورة أسرع . فكان يفتح المحار ويضع فيه حبا صغيرا .. ذرة رمل أو ذرة من المحـارة أو الحصى .. وفى بعض الأحيان اهتدى الى شىء غريب فكان يضع حصاة صغيرة ويرسم على هذه الحصاة بوذا . ويضعها بعد ذلك فى جسم حيوان اللؤلؤ .. ثم يجىء هذا الفنان العظيم ويغطى هذه الصورة لبوذا باللؤلؤ .. ويكون لحبة اللؤلؤ بعد ذلك سحرها العميق فى نفوس المؤمنين ..

وجاء أستاذ يابانى سنة ١٨٨٩ وقام بتطوير هذه الحيلة . هذا الاستاذ اسمه متسكورى . وادخل فى جسم حيوان اللؤلؤ حبات صغيرة من الصدف . ويجىء الحيوان ويغطيها بهذه المـادة الفضية الشفافة .

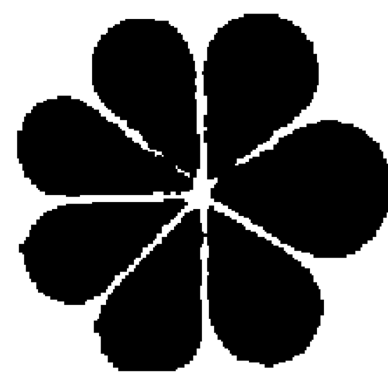
* * *

ولكن رجلا واحدا استطاع ان يجعل « اللؤلؤ الصناعى » أشهر تجارة فى العالم واستطاع ان يقنع العالم كله أن اللؤلؤ الصناعى اجمل وأروع . وانه يصعب على اى انسان أن يفرق بين الاثنين . وفى ذلك الوقت كان التمييز صعبا . ولكن من السهل معرفة ذلك الآن بمجرد وضع اللؤلؤ فى الضوء فيكون اللؤلؤ الطبيعى أكثر شفافية من اللؤلؤ المزروع فى جسم حيوان اللؤلؤ . هذا الرجل

ميكوموتو الذى اشترك فى المعرض الدولى للؤلؤ بأكثر من مائة الف حبة .. وصنع ناقوس الحرية الامريكى من اللؤلؤ . وقدمه فى معرض دولى ..

وقد رأيت جزيرة ميكوموتو هذه فى اليابان . ورأيت ملايين من حبات اللؤلؤ . واعترف بأننى لم اعرف أهمية هذا اللؤلؤ اوضرورته لأحد . وقد كنت ألعب بحبات اللؤلؤ لعبة الجوز والفرد . فتجد بائعات اللؤلؤ يجلسن على الأرض . وقد وضعت كل واحـــدة « قفة » من اللؤلؤ .. واجلس امامها والعب : جوز ولا فرد .. ونفتح محار اللؤلؤ .. فنجد احيانا حبة واحدة واحيانا حبتين أو ثلاثا .. وأذكر أننى كسبت فى هذه اللعبة الوف الحبات . ولا أذكر الان بالضبط اين نسيت هذه الحبات عندما سافرت من اليابان الى جزر هاواى الى أمريكا الى اوربا بعد ذلك .

فقط عندما رجعت الى مصر عرفت اننى اضعت ثروة طائلة ــ ولم اكن أدرى ذلك ــ فقد كنت مشغولا فقط بالفرجة والكتابة والسفر ، وهى جميعا اروع من كل ما فى العالم من لؤلؤ ــ وأعتقد أن أكثر نساء العالم لا يرين هذه الفلسفة !



شجرة واحدة تكفى:
هزها وانت تعرف!

بعد هـــذه الرحلة الطويلة فى حياة الحيوان ، هل له مستقبل ؟ هل ستتحول الحيوانات بعضها الى بعض ، كان يكون القرد انسانا ؟ هل تتحول بعض الزواحف مرة أخرى وتكون طيورا ؟ هل تزداد الاصابع فى أقدام الحيوانات ؟ هل الانسان نفسه سيكون كائنا آخر ؟ ان عشرات الألوف من السنين لم تغير من الحمار . فهو حمار منذ كان حمارا . والخنزير كذلك ..

ان نظريات العلماء من مدرسة دارون قد لاحظوا التشـابه الكبير بين القرود والانسـان . وقال بعضهم : أصله قرد ـــ اى الانسان أصله قرد وعلى ذلك فمن الممكن ان يتطور القرد فيصبح انسانا فى المستقبل . صحيح أن التاريخ لم يحفظ لنـــا حتى الآن تلك القرود التى تحولت الى انسان . ثم أنه ليس بين القرود فصيلة واحدة تعرف النطق أو تعرف كيف تغير من أسلوبها فى الحياة . وكل ما يقوله العلماء هو أن مرحلة من مراحل تحول القرود الى بشر ، قد فقدناها .. أو قد ضاعت منا . ولكن ليست هذه اجابة

.. انما هى اجابة تغرى بالتساؤل : ولكن لماذا هذه المرحلة بالذات ؟ من الذى حرص على اخفائها لكى يدوخنا بعد ذلك ؟

اذن يمكن أن يقال : بأن هذه الحيوانات لم تتحول الى حيوانات أخرى فى مئات الألوف من السنين فلن يطرأ عليها أى تغير آخر .. لأن الماضى هو صورة المستقبل ، أو هو الحروف الأولى من الماضى والمستقبل !

علماء الجيولوجيا يقولون : اننا مقبلون على عصر جليدى آخر .. وان المناطق الشمالية والجنوبية من الأرض سوف تتغطى بالجليد .. وسوف يؤدى ذلك الى انقراض حيوانات أخرى كثيرة . تماما كما انقرض حيوان الماموث عندما هاجر الى الشمال فمات من البرد .. وفى نفس الوقت استطاعت حيوانات أصغر حجما واضعف قوة من التكيف مع البيئة فعاشت . فالقوى الذى لا يجارى البيئة يموت ، والضعيف الذى يجاريها يتقيها ويعيش . انها قاعدة فى الحيوان وفى الانسان أيضا !

* * *

ثم هذه الزواحف الضعيفة هى بقايا مملكة هائلة كانت تعيش على الأرض ، هل هى أيضا سوف تنقرض .. علماء الجيولوجيا يقولون : هذه نهايتها لا محالة . ولكن لماذا ؟

الجواب انه يجب ان ننظر الى : الظروف الحيوية .. أو الى البيئة الحيوانية والنباتية والانسانية والجوية أى الحياة (الاجتماعية) أو (الجماعية) للحيوانات معا .. ولسنا فى حاجة الى أن نسافر الى غابات الامازون الهائلة أو الغابات الهندية أو الواحات الافريقية والاسيوية كما كان يفعل داروين وبقية العلماء فى القرن التاسع عشر .. وانما شجرة واحدة تكفيك . هزها .

وانت ترى الفراشات والحشرات المتسلقة : هذه الشجرة مثل فنجان فى يد قارئة الطالع .. مثل كوتشينة يلعبها قارىء الحظ .. ولكن هذه الشجرة تستطيع أن تعرف كيف تتعايش هذه الكائنات معا .. أو كيف يتربص بعضها ببعض أو يعيش بعضها على بعض .. نظرة واحدة الى شجرة تدلك على مستقبل حياة هذه الكائنات، معا ومستقبلها مع الانسان ـــ وهو الأهم . فلا يزال الانسان هو الذى يحدد لهذه الكائنات أعمارها ومستقبلها . فمثلا فى الهند : الثعابين تعيش على الفئــران ، والفئران تعيش على القمـــح وعلى القمـــح يعيش الانســـــان .. اذا قتلنـــا الثعـــابين زادت الفئران وأكلت القمح وأرهقت لانســـــان .. واذا قتلت الثعابين والفئران وانفردت الدودة بالقمح جاع الانسان . واذا قتل الانسان الدودة أيضا توفر له القمح .. ولكن فى نفس الوقت اذا زاد عدد الناس ولم يجدوا القمح مات الانسان .. انها سلسلة طويلة من الكائنات يعيش بعضها على بعض . والمستقبل فى يد الانسان .

مثلا : البعوضة تنقل الحمى الصفراء . يقضى الانسان على هذه البعوضة باستخدام المبيدات وباستخدام وسائل العلاج عاش الانسان وماتت هذه البعوضة أو انقرضت !

واذا نظرنا الى الانسان القادر على كل الحيوانات لم نجد هذا الانسان يفوق الكثير من الحيوانات من الناحية الفسيولوجية ـــ أى من ناحية وظائف أعضاء جسمه . فهناك شبه كبير بين الانسان والقرد والحصان والضفدعة والأرنب . أو بين الانسان والحصان فى نمو الجنين وفى الحمل والولادة وفترة الحضانة الطويلة .. فالانسان ينمو ببطء .. ورغم هذا التشابه فان الانسان هو الأقوى.

وأهم من ذلك أن الانسان لا يزال أكثر الحيوانات الكبيرة عددا .

فقد أعلن المعهد الدولى للزراعة فى روما عن عدد الحيوانات الكبرى على الأرض بعد الحرب العالمية الثانية فكانت هكذا : فى العالم ٧٠٠ مليون بقرة و ٦٠٠ مليون من الاغنام . و ٣٠٠ مليون خنزير و ١٠٠ مليون حصان .. ومثل هذا العدد من البشر أو أكثر . فعدد سكان العالم حوالى الفى مليون نسمة .

ومن المعروف عندنا أن خسائر الانسان فى الحرب العالمية الثانية كانت هائلة . لاشك فى ذلك . وأن هذه الخسائر تساوى الدموع التى سالت على خدودنا حزنا على ما أصاب الانسان على يد الانسان . ولكن خسائر الحيوانات فى هذه الحرب كانت اضعاف خسائر الانسان .

فى أمريكا ما بين ١٩٣٨ و ١٩٤٨ زاد عدد سكان العالم ١٠٪ .. ونقص عدد الحيوانات .. وزاد عدد الأبقار فى أمريكا بسبب العناية الفائقة بمزارع وحظائر تربيتها . بينما نقص عدد الخنازير ١٨ مليونا وعدد الاغنام ٢٦ مليونا وعدد الخيول ١٨ مليونا !

وفى أثناء الحرب الاهلية فى الصين نقص عدد الطيور بمقدار ٢٠٠ مليون ونقص عدد الطيور فى أمريكا أثناء الحرب العالمية الثانية بمئات الملايين حتى أصبح عددها حوالى ٧٠ مليونا .. وسبب ذلك أنه لم تكن هناك أسواق للبيض .

والانسان حريص على هذه الحيوانات والطيور لأنها مصدر غذائه .. ولو وجد الانسان موردا آخر للبروتين ، ما تردد لحظة واحدة فى ابادة هذه الطيور والحيوانات معا . فكأن بقاء هذه الحيوانات سببه أن علوم الكيمياء لم تتطور بدرجة كافية .. وعلماء الكيمياء فى العالم هم الذين سيقررون ان كانت هذه الحيوانات

ستعيش أو تنقرض . ولن يمضى وقت طويل حتى تتحول هـذه الحيوانات الكثيرة الى حيوانات نادرة أو حيوانات للزينة !

* * *

ومن المؤكد ان الانسان قد قتل الملايين من هذهالحيوانات والطيور عندما اخترع السهام والنبال .. واضعاف هذه الكائنات قد قضى عليها الانسان عندما اكتشف البارود..وفى أمريكا ، وبسبب الزحف الى الغرب ، احرق المهاجرون الجدد الغابات والمراعى فماتت ملايين الحيوانات وانعدمت تماما .. فالجاموس الوحشى أثناء الحرب الأهلية الأمريكية كان عدده يبلغ ستين مليونا أى ضعف عدد سكان أمريكا فى ذلك الوقت . فأين هذه الجواميس الآن ؟ انها فى حدائق الحيوانات فقط ؟ .. وهناك نداءات كثيرة من جمعيات انسانية تطلب الرحمة بهذا الحيوان . ولكن هذه الجمعيات نفسها لا يتوقف اعضاؤها عن أكل اللحوم .. اذن هذه الجمعيات لا تطالب بالابقاء على الجواميس الا خوفا عليها من التلاشى .. ولو كانت هـذه الجواميس بالملايين ما طالب أحد بالحرص عليها !

وهناك حيوانات أخرى سوف تبقى شيئا قليلا . ولن يكون عددها بمئات الألوف أو الملايين . لأن الذى يحدد وجودها هـو احتياج الانسان الى الفرجة عليها .. مثل كل حيوانات حديقـة الحيوان : الأسود والنمور والضباع والذئاب.وهذا هو أحد أسباب اقبال الناس على حدائق الحيوانات . فالناس يذهبون لرؤية هذه الحيوانات فى الأقفاص لأنهم لن يروها فى أى مكان آخر .. ولذلك لا توجد حديقة حيوانات فى أواسط افريقيا قد حوت أقفاصا للقرود .. لأن الناس يجدون القرود على الأشجار وفى الشوارع !

وبعض الطيور قد طال عمرها لنفس السبب . أو لأسباب أخرى جمالية . فالببغاء وطيور الكنارى قد أبقى عليها الانسان لأنهـا

جميلة الريش رشيقة الحركة أو لأن لها أصواتا جميلة . وكذلك عاش الطاووس .. ولا يذكر أحد فى كل العصـــور أن احدا اكل الطاووس لأنه نادر الوجود وهو لذلك غالى الثمن . فقط فى ايران وأثناء مهرجان فورش والاحتفال بمرور ٢٥ قرنا على انشائه للدولة الفارسية . فى هذا المهرجان قدمت ايران للملوك والرؤساء لحم الطاووس..والطاووس اشترته ايران وبعثتبه الى مطعم ماكسيم الشهير فى باريس وحملته الطائرات ساخنا من باريس الى مدينة برسبوليس فىمخيمات الملوك والرؤساء ـــ ولوقدوموا الىالطاووس فى سندوتش ما اكلته . لكن فى هذا الجو الخيـــالى ومع الألوان والموسيقى والأكواب من ذهب ، وعلى مسمع ومرأى من كل رؤوس العالم ، فلابد أن يكون طعمه لذيذا وأن يكون له مثل السحر فى الجسم والنفس .. ومن المؤكد أن هذا هو آخر عهد الانسان بالطاووس محشوا بالفستق والصنوبر وأبى فروة !

* * *

أما بقية الطيور النافعة للانسان اى التى تأكل الديدان الضارة والحشرات فى الحقول ، فانها اخذت فى الانقراض . سبب ذلك : الهواء الفاسد فى المدن والمبيدات الحشرية فى الحدائق والحقول.ان هذه الطيور رغم حرص الانسان عليها ، لأسباب مصلحية أو انسانية أو جمالية ، فانها سوف تنقرض . لمـــاذا ؟ لأن الانسان اما أن يعيش أو تعيش هذه الطيور . طبعا لابد أن يعيش الانسان ـــ كما عاش دائما ـــ على جثث غيره من الطيور والحيوانات والانسان أيضــــا !

فقط كل الكائناتالتى تعيش فى أعماقالبحار قدعاشت لأنها بعيدة عن متناول الانسان . ولكن هذه الكائنات لن تظل وقتا طويلا بعيدة عن الانسان . فاذا اقترب منها ، كان الموت قريبا أيضا . وسوف يجىء دورها طبعا .

اذا كان الانسان حريصا على الحيوان لأنه مصدر غذائه وكسائه ووسيلته فى الانتقال ، فان هناك حيوانات رغم ذلك قد ماتت . الخيول مثلا : كانت وسيلة الانتقال للانسان . وكان الحصان احدى أدوات الحرب . وقد حاول الانسان فى الحرب العالمية الأولى أن يدفع بالحصان لخوض غمـــار معارك الفرسان وكانت معـــارك انتحارية . وفى الحرب العالمية الثانية ابتعدوا به تماما .. وفى الحروب القادمة ، لن يكون للحصان وجود . والحصان الآن لم يعد أداة النقل والمواصلات فى العالم . ولذلك فلن يعيش طويلا الا فى السيرك والا فى اصطبلات سباق الخيول . أى أن الحصان سوف يبقى لأسباب رياضية وجمالية ..

وفى القرن الماضى انشأت كل من بريطانيا وامريكا اصطبلات للتقاعد . فالحصان الذى تقدمت به السن ، وجاء الارهاق فخلع أوصاله ، لابد أن يستريح فى حظيرة حتى الموت مثل كل الناس ! ولكن لن يتسع وقت الانسان لمثل هذه الرقة . فسوف تموت الخيول فى الحقول وفى السيرك وبعد ذلك يكون لها قفص فى حدائق الحيوانات الى جوار الحيوانات النادرة !

حتى الأغنام .. سوف يجىء دورها فاذا استطاع الانسان أن يحصل على صوف جيد دون حاجة الى الأغنام فهذه نهايتها ، لأن الانسان قد اخترع الخيوط الصناعية . واستطاع أن يضع خيوط الصوف الصـــناعية فى المواد الكيماوية لتعيش أطول وأنعم واكثر ليونة . بل ان بعض الخيوط الصوفية الطبيعية عندما وضعت فى المواد الكيماوية نمت . ومعنى ذلك أنه يمكن تنمية الخيوط الحيوانية دون حاجة الى الحيوان نفسه . ولكن الخيوط الصناعية ما تزال أقل جودة من الخيوط الطبيعية . ولكن مع تقدم الكيمياء سيصل الانسان الى خيوط أقوى واجود واكثر نعومة ولمعانا . فاذا وصل

الى ذلك ، انتهت مهمة الأغنام التى عاشت للانسان وعايشته وماتت من أجله عشرات الألوف من السنين . واتخذت مكانها المتواضع فى متاحف التاريخ الطبيعى أو أرسلت من ينوب عنها فى حدائق الحيوان الى جانب الزرافة والغزالة والقرد !

ولا تزال هناك مشكلة أمام الانسان هى التى ستجعل الاغنام والأبقار والطيور أطول عمرا : وهى أن الانسان لم يجد حتى الان مصدرا بديلا للبروتين الذى يجده فى اللحوم . ولذلك سوف تبقى هذه الكائنات مصدرا وحيدا للحم . وهناك نظرية تقول :

ان الانسان أصبح اقل ميلا لتناول اللحوم من اى وقت مضى .. صحيح أن الانسان كلما أصبح مقتدرا اشترى لحما أكثر . ولكن هذه النظرية معناها : ان الجياع أقل تناولا للحم . ولما كان عدد الجياع أكثر من عدد القادرين ويزدادون بمرور الوقت فان عدد الذين يأكلون اللحوم سوف يكون اقل . أو لن يزيد عددهم مما يجعل عددا أكبر من الأغنام والأبقار والطيور ينعم بالحياة . ولابد أن يدخل فى حسابنا أيضا أكثر من ألف مليون نسمة لا يأكلون اللحوم فى الصين والهند .

واذا نظرنا الى ما أكله أهل باريس مثلا فى ١٨٨٩ نجد أن الفرد كان يستهلك ١٥٤ رطلا فى السنة . وبعد ثلاثين سنة نجد أن الفرد أصبح يستهلك ١١٠ أرطال .. بينما يتضاعف ما يستهلكه الفرد من النبيذ فى نفس المدة !

وفى أمريكا كان الفرد يستهلك فى سنة ١٩٠٠ ما يعادل ١٥٠ رطلا فى السنة . ولكن فى سنة ١٩٣٨ هبط ما يستهلكه الى ١٢٥ رطلا .

وفى الحروب يزداد استهلاك الفرد .. وبعد الحروب يهبط الاستهلاك .

فهذا الاعراض عن أكل اللحوم هو الذى يكسب الحياة لملايين الأبقار والأغنام والطيور .

ولكن تقدم الكيمياء ونشوب الحروب هو الذى سيهلك هـــذه الكائنات..فكل هذه الكائنات لها أعمار مربوطة فى أصابع الانسان، ان شاء أبقاها وان شاء أهلكها .

* * *

ولكن يجب الا نتصور أن الانسان هو أقوى الكائنات : الجراثيم أقوى منه .. ثم أن الانسان عندما لم يطق أن يتحمل ضغط الجو فى البالون الذى أطلق فى أوروبا استطاعت بطة وديك أن يرتفعا دون ان يصابا بأذى من الهواء والضغط .. وعندما أطلق الانسان قنبلته الذرية على جزر بيكينى : عاشت الخنافس والخنازير والماعز . واخترقتها الأشعة ولم تمت .. ثم عاد التراب الذرى فغطى هذه الحيوانات ولم تمت فى حينها ولا بعد ذلك بسنوات .. ولم يكن فى قدرة صانع القنبلة الذرية أن يواجه الشعاع والتراب .

من يدرى ربما انقرض الانسان وجاءت كائنات أخرى من كواكب أخرى تتفرج على هذه الحظيرة الكبرى التى اسمها : الكرة الأرضية .. تماما كما تذهب تتفرج الآن على ما أحدثه بركان فيزوف بالقرب من نابلى عندما تجمد الشعب كله وتحولوا الى تماثيل حجرية .

من يدرى ربما فعلت كائنات أخرى اكثر عقلا ووضعتنا فى حدائق للحيوانات الأقل وراحت تتفرج علينا كما نتفرج الآن فى متاحف التاريخ الطبيعى على الجماجم والأعمدة الفقرية للانسان الأول — ربمـــا !

قرود في كل مكان !

وكنت أفضـــل ان تكون الصفحات التا لية فى أول هذا الكتاب .. فهى تصف الحيوان وسلوكه دون تحفظ .. أى دون قيود عليه ..

والحيوان حر .. هو بالضبط ما يتمنى أن يفعله الانسان . ولـــكن الحضارة تجىء وتقيـــد الانسان وتضع الفرامل والضوابط والقواعـــد والحلال والحـــرام واللائق وغير اللائق على كل مشاعره الحيوانية والانسانية ..

ولكن بعد ان عرفنا جوانب من حياة الانســان يمكننا أن نعرفها أعمق وأوضح اذا عدنـــا عشرات الألوف من الســـنين .. أو اذا ذهبت الى حديقة الحيوان .. ففى الحديقة نجد الانسان متخفيا وراء جلد الحيوان ..

ولكن الحيوان أكثر صراحة ..

لأن الحيوانات لم تتعلم الكذب بعد ..

ولذلك فهذه الحيوانات هى دليلنـــا الذى لا يخطىء الى فهم الانسان مرة اخرى ..

فان كان قد فاتك أن تفهم الانســـان من مئـــات الصـــفحات السابقة ، فهذه هى فرصتك فى أن تستدرك ما فات وأن تفهم غيرك ونفسك ..

فاذا شعرت بالخجل فلأن الحيوانات لا تخفى ما تشعر به هى .. وما تشعر به أنت !

* * *

واذا ذهبت الى حديقة الحيوانات . وسمعت من يصرخ وراءك ويقول : ياحيوان فلا داعى لأن تلتفت وراءك لترى ماذا سيحدث .. فكل ما فى الحـــديقة حيوانات : التى فى الأقفـــــاص .. والذين خارجهـــا .

واذا وقفت أمام قفص القـــرود ورأيت القـــردة تفلى ابنتها الصغيرة فلا تضحك .. فلنا أجداد يفعلون ذلك فى الريف.أما فى المدينة كالكوافير يقوم بهذا العمل ايضا مستخدما أحدث ما وصل اليه عقل الانسان .

واذا انت القيت ببعض الســـودانى وتزاحمت عليه القـــرود وضحك طفلك الصغير ، فأظن انه لا داعى لأن تضحك أنت . لأنك قد فعلت شيئا من ذلك فى المكتب أو الدكان أو المصنع الذى تعمل فيه . فمكان العمل هو قفص أقسى من قفص القـــرود . وانت محكوم فىداخل القفص بقوانين ولوائح وقواعد ومخاوف.. واذا أشار رئيسك فى العمل بالعلاوات أو الأرباح فانك تقفز مثل

هذا القرد واكثر .. وليست العلاوات الا انواعا من الفول السودانى الذى يلقى لنوع آخر من القرود ..

واذا رأيت القرد — أمام كل الناس — يركب ظهر الأنثى . فليس القرد قليل الأدب ، ولا نفسه انفتحت لمجرد رؤيتك . ولكنه فى حالة خوف . والخوف يثير الحيوان والانسان ايضا . والناس فى جو الخوف يتعانقون .. انهم يواجهون الموت بالقبلات ، ويواجهون الموت بغريزة حب البقاء .. والبقاء عن طريق الجنس ..

واذا كان القرد ليس له مستقبل فى أن يكون انسانا . فمن المؤكد ان الانسان له ماض . وهذا الماضى ماتزال حروفه الغامضة يمكن قراءتها فى جبلاية القرود .. فاذا لم يكن هذا القرد جدنا البعيد .. فهو قريب من جدنا البعيد . واذا كان الانسان قد اكتسب عادات جديدة من مئات الألوف من السنين .. فان العادات القديمة التى عاش بها من ملايين السنين ما تزال مصونة مكنونة فى اقفاص القرود ..

ولهذه الأسباب كان الكتاب الممتع الصعب ايضا الذى كتبه العالم دزموند موريس وعنوانه « القرد العريان » من أروع الكتب التى صدرت اخيرا فى العالم بلغات متعددة .

واذا كان هذا الكتاب لم يلق التأييد الكامل من علماء الحياة والدراسات الانسانية والحيوان ، فانهم — عادة — لا يتفقون على رأى واحد .. ولكنهم أمام هذا الكتاب اتفقوا على انه خلاصة دراسات وتأملات عميقة ومثيرة أيضا . وأن به نظريات جريئة وجديدة ولابد ان تدير آلافا من الأدمغة يمينا وشمالا .. وبعد ذلك فى امكانها ان تتساقط من التعب او اليأس .

هناك ١٩٣ نوعا من القــرود من بينها نوع واحد فقط ليس جسمه مغطى بالشعر : وهذا القرد العريان له صــفات غريبة أخرى من بينها مثلا أنه يقضى نصف عمره بحثا عن معنى سلوكه وتصرفاته .. ويمضى النصف الثانى من عمره يحاول أن ينسى هذه المعانى . وهذا القرد العريان يعتبر نفسه عاقلا . والحقيقة أنه عاقل حقيقة ، ولكنه أكثر الحيوانــات شراهة من النــاحية الجنسية..فالحيوانات كلها معتدلة ، وكل هذه الحيوانات تخجل من الجنس ، ولذلك فالذكر عند العناق لا يواجه أنثاه ..

والحيوانات لها مواسم . والانسان ليست له مواسم للقبلات والحمل والرضــاعة والولادة .. فكل وقت عنده هــو الوقت المناسب لأن يكون « حيوانا » ومن الضرورى أن نعيد النظــر فى الحيوانات الأخرى ، وخصوصا الحيــوانات الراقية مثل القرود لتعرف كيف عاش هذا الانسان ومن أين جاءت عاداته كلها ، كيف نشأت وكيف تطورت وتحورت حتى أصبحت على الصورة التى نراها اليوم .. ولا تفهم الكثير من مقدماتها وأسبابها ..

ولعل من المناسبة هنا أن نذكر أنه فى احدى حدائق الحيوانات يوجد « سنجاب » وهو حيوان صغير اليف يظهــر فى الحدائق ويداعب الأطفال . هذا الحيوان وضعوه فى قفص على انفراد .. وكتبوا على القفص .. هذا السنجاب أفريقى نادر . ولا نعرف اسمه العامى .. فنحن لم نر قبل الآن سنجابا له قدم سوداء .. وانف أحمر ..

وأمام هذا السنجاب النادر نجد علماء الحيوانات يبحثون عن وجه الشبه والخلاف بينه وبين الأنواع الأخرى ، لابد أنه كان من سلالة انعزلت من بقية الـــ ٣٦٦ نوعا من السناجيب التى عاشت

فى العالم كله . ولابد أن هذه الفصيلة النادرة قد انعزلت تماما واصبحت لها عادات خاصة ، ولها نداءات جنسية خاصة . ولابد انها مرت بظروف غريبة . وانها توافقت مع هذه الظـــروف . واصبحت لها الوان واشكال وعادات مختلفة من بقيـــة الأنواع الاخـــرى ..

نفس الموقف يجب أن نأخذه من الانســـان ــ هــذا القرد العريان ــ نتساءل كيف عاش . ولماذا بقى . وكيف تطور .. وكيف تحول من مرحلة أكل فيها الحشرات الى مرحلة اكل فيهـــا أوراق الشجر . ثم الثمار .. ثم انتقل من الغابات الى الأرض الواسعة .. ثم كيف تحول من التقاط الثمار الى صيد الوحوش .. ثم الى زراعة الأرض .. ثم كيف حاول الهرب . واستخدم رجليه .. واستخدم يديه فى صناعة أدوات حياته ..

وان كان الانسان مثل بقية الحيوانات الثديية التى يبلغ عدد أنواعها ٤٢٣٧ قادرا على أن يحتفظ بدرجة حرارة مناســـبة فى الحر والبرد .. صحيح أن بعض الحيوانات الثديية ــ أى التى لها أثداء ترضع بها أطفالها ــ تعتمد على جلدها الغليظ وشعرها الكثيف فى حفظ درجة الحرارة فى الشتاء . والوقاية من حـــرارة الشمس فى الصيف .. والوطواط وهو طائر ثديى عريان فىمعظم اماكن جسمه .. ولكن يوجد شعر أيضا يغطيه ويحميه .. وهناك حيوانات أخرى مائية ثديية بلا شعر مثل الحيتان والدرافيل .. ولكنها لا تقوى على مواجهة الشمس كما يفعل الانسان ..

والانسان فى تاريخه الطويل فقد القدرة على الأبصار . وفقد قوة السمع والشم . اما الحيوانـــات الأخرى وخصوصـــا آكلة اللحوم مثل الانسان فعندها قدرات خارقة على الرؤية والسمع

والشم . ففى سـنة ١٩٥٣ أجريت تجارب على قدرة الـكلاب المتوحشة على الشم ، فأثبت العلمـاء أن قدرتها أقـوى من الانسان مليون ونصف مليون مرة ..

والانسان مثل الحيوانات آكلة اللحوم قاتل أيضـا . وبعض الحيوانات لا تقتل لمجرد القتل . وانما لأسباب وجيهة : الجوع.. او جوع صغارها ..

وحتى الحيوانات التى استؤنست ما تزال عندها غريزةالصيد .. والانسان ايضا . فالكلب الأليف يحب ان يخرج به سـيده الى الشارع ليمارس لعبة الصيد والمطاردة .. وهى لعبة لأنها ليست خطرة . وكذلك القط الذى تلقى اليه بالطعام فيداعبه كأنه فأر صغير .

وبعض الكلاب تخفى طعامها .

وبعض الضباع تخفى طعامها فوق الشجر ..

وهذه الحيوانات آكلة اللحوم لها طرق معروفة فى الصيد .. والأسود تبعث واحدا منها يهاجم الفريسة حتى تهرب .. واذا ما هربت وجدت أمامها عددا آخر من الأسود . والذئاب تحاصر الفريسة .. أما الكلاب المتوحشة فانها تمشى فى طابور طويل . وتظل تهاجم الفريسة واحدا واحدا حتى تنزف الفريسة وتموت.

هناك خلاف هام بين هذا الانسان وبين القرود الأخرى . هذا الخلاف هو أن طفل الانسان يستمتع بفترة طفولة طويلة . هذه الفترة يعيش فيها مع أمه . ويتعلم منها الكثير . وفي نفس الوقت يكبر عقله وينضج . ولا يزال يكبر حتى السـابعة من عمره .

ويبلغ العقل نضجه التام فى الثالثة والعشرين اما الحيوانات الأخرى فلها فترات طفولة صغيرة .

والانسان لم يستمتع بهذه الطفولة الا بعد عادات أخرى اكتسبها .. وهى ان الرجل هو الذى انفرد بالصيد والقتال . لأن المرأة فى حالة الحمل لا تقوى على ذلك ولهذا ذهب الرجل وبقيت المرأة فى البيت مع أطفالها . والمرأة فى البيت بلا خوف من هجمات الذكور الآخرين لأن هناك أتفاقا روحيا بين الذكر والأنثى ، أن تبقى هذه الأنثى له وحده . وان تبقى وفية مخلصة له اذا ذهب للصيد فى الغابات . هذا الاتفاق لم يتم بين الذكر والأنثى الا بعد ان كان هناك حب بينهما . وهذا الحب ادى الى الارتباط والارتباط ادى الى قيام وحدة من رجل وامرأة وانشاء أسرة أى جو مناسب لتربية طفل لاستقرار الأب والأم والاطفال .. واذا كان من طبيعة الحيوانات الأخرى أن تتعاون فالانسان أيضا حيوان متعاون ولكنه حيوان متنافس أيضا . وكثيرا ما ادى به التنافس الى القضاء على الأسرة وعشرات الأسر .. واذا كانت رغبة الانسان فى التعاون هى التى جعلته يخلق الأسرة ، فان رغبته فى التنافس هى التى جعلته يبتكر الزوجات ويخطف الأرض ويقتل القبائل الأخرى .. واكثر من ذلك جعلته يبتكر أدوات جديدة فى الدفاع عن النفس وفى القتال .. وجعلته يشعل النار فى عقله ويلقى بضوئه ودمائه على الأجيال القادمة .. تاريخ الانسان أضواء باهرة تنعكس على بحار من الدم ترفع شعارات اسمها : حب الانسان لأخيه الانسان ..

أما لماذا سمى الانسان بالقرد العريان فهناك آراء كثيرة . هناك رأى يقول ان طفل القرد عندما يولد يكون عاريا من الشعر تماما .. ثم ينبت له الشعر كلما كبر . والانسان لأن طفولته

طويلة فقد ظل جسمه خاليا من الشعر .. ثم اصبحت هـــذه الصفات وراثية من مئات الألوف من السنين ..

ومن المعروف أن الجنين فى الشهر السابع والثامن يكونجسمه مغطى بالشعر وقد رايت ذلك فى الأطفال الذين ولدوا قبل الأوان .. وبعد ذلك يختفى هذا الشعر كلما تقدمت بهم السن .. وأن كانت هناك حالات نادرة معروفة فى الكتب العلمية لأطفـــال ظل شعرهم طويلا يغطى معظم الجسم .. كالقرود تماما ..

ويقال أيضا أن الحيوانات التى يتغطى جسمها بالشـــعر . تعيش عليها ومعها حيوانات طفيلية كثيرة . وكان الانسان يعيش فى الكهوف .. ويقال لأن الانسان قادر على أن يستخدم يديه راح ينتزع شعره ويحلقه .. ولأن الانسان قادر على أن يستخدم يديه واصابعه . على عكس الحيوانات الأخرى . وهناك نظرية تقول ان الانسان عندما اخترع النار لم يعد فى حاجة الى اغطية من الشعر .. أو فروة من الشعر .. وانه قادر على ان يجد الدفء فى ضوء الشمس نهارا . وان يجد الدفء امام النار ليلا .. وأن هـــذا الدفء هو الذى أغناه عن حاجته للشعر الذى يغطى جسمهكله.

ويقال ان الانسان قـــد عاش مئات الألوف من السنين يتنقل بين البر والبحر وانه كان يعيش على اكل السمك . وعندما كان يصيد الأسماك كان الماء يغمر جسمه كله . ولا يبقى الا رأسه على سطح الماء .. ولذلك — مثل كل الحيوانات الثديية الأخرى — أصبح جسمه خاليا من الشعر .. وكلها نظريات تجتهد فى تفسير خلو جسم الانسان من الشعر ، اكثر من الحيوانات الاخرى..

وربما كان لشعر تفسير جنسى آخر .. فمن الملاحظ ان الذكور من الحيوانات الثديية بها شعر اكثر من الاناث ولذلك اصـــبحت

الأنثى الناعمة البشرة مثيرة من الناحية الجنسية للرجل . وهى حريصة على أن تكون أنعم أيضا . بينما يحرص الرجل على ان يكون أكثر خشونة .. ولذلك يطلق شاربه ولحيته .. ويترك الشعر فى صدره وتحت أبطه بينما تحرص الأنثى على أن تكون ملساء ..

وليس معنى ذلك ان الانسان يحب البشرة الناعمة ، ولذلك زال الشعر من جسم المراة . ولا معنى ذلك أن المرأة احبت الشعر فى جسم الرجل فظهر الشعر .. ولكن معناه أن الانسان أحب الواقع .

نعود مرة أخرى الى قفص القرود الذى نقف أمامه فى حديقة الحيوان .. ان القردة لم تذهب الى حلاق ولا الى صانع أحذية والى مصمم أزياء .. ولم تضع الأحمر والأبيض والسوتيان .. والكورسيه والكعب العالى .. ولا الغمز بالعين ...

كل هذا يدل على أن الحضارة الانسانية علمت الانسان أن يكون شهوانيا .. وان يكون مشتعلا جنسيا . وأن يفكر فى الجنس ويهرب منه ويعود اليه .. وبسبب الجنس يحب وبسبب الحب يتزوج وبسبب الزواج تكون له أسرة وأولاده .. يهرب من الأولاد والزوجة باسم الكراهية ليقع فى الحب ، الذى هو اسم مهذب للجنس .. فهو يدور حول نفسه هاربا قلقا خائفا فى قفص محكم معقد اسمه الغريزة الجنسية . واسمه تجارب التاريخ الذى طواه ملايين السنين قطعتها القرود على الأشجار وتحتها وفى الصراع مع الحيوانات الأخرى تحركت ساقاها .. وقاومت فتحركت يداها واهتز عقلها أيضا..وسكنت الكهوف .. واستقام ظهرها .. وكبر عقلها .

وأصبح انسانا لا يختلف كثيرا عن القرود وان كان هو يتوهم أنه مختلف عنها تماما .. ولكنه قرد يصنع الأقفاص لغيره .. ولنفسه .. ويجعل أقفاصه هو مكيفة الهواء اذا كانت على الأرض .. ومكيفة الهواء والضوء والضغط اذا كانت فى طريقها الى القمر .

والانسان قاتل من يومه ..

كان يقتل بالحجارة والفأس والسيف . وما يزال يقتل . فقد اصبحت لهذه الأسلحة أسماء جديدة : الصاروخ والطائرة والدبابة . فهو — اذن — لم يتغير .

والحضارة لم تطور رغبته فى القتل . وانما هذه الرغبة هى التى طورت الحضارة الانسانية وغيرتها وصبغت بالأسود والأحمر طريقها وأهدافها .. والانسان — هذا القرد العريان — كان صيادا فى الغابة ، يعيش على التقاط الفاكهة : التفاح والرمان والتوت . وما يزال . ولكنه يصيد تفاح الخدود ورمان النهود وتوت الشفاه .

فالحضارة الانسانية لم تضع الفرامل على رغبات الانسان . وانما رغبات الانسان هى التى أشعلت فرنا ضخما شوت فيه كل معالم الحضارة الانسانية . فلا يزال الانسان اكثر الحيوانات الراقية شراهة جنسية : يجوع اليها ، وينشدها ويجدها ويطاردها ويعود اليها . ويبدأ الانسان هذا الشوق الجنسى فى سن مبكرة . ثم يعرف اللعب الجنسى . والمداعبة . والمطاردة . والصيد . والانتباه الجنسى والهياج الجنسى .. والاشباع ..

والانسان حيوان شهوانى اكثر من الحيوانات الأخرى ..

ولكن الانسان هو أول حيوان يحرص على ان تكون له اسرة. أى تكون له امراة واحدة . يحرص عليهـا ومن الضرورى أن تحرص هى أيضا عليه . والانسان كحيوان صياد كان يخرج من الكهف الى الصيد فى الغابة . ويبقى فترات طويلة . ويترك وراءه انثاه وأولاده . وهى بذلك تكون عرضة لعدوان الذكور الآخرين. ولابد من حماية لها أثناء غيابه .

ولذلك عرف الانسان الحب . وعرف العطف على الأنثى . وعرفت الانثى حماية الذكر . وهذا الحب كان ضروريا للانسان . لأنه عقد غير مكتوب وبمقتضاه يصبح لهذا الذكر الحق فى ان يحتفظ بهذه الأنثى . ويصبح لهذه الأنثى الحق فى أن تعيش فى كهف هذا الرجل ولهذا الرجل والا تسلم نفسها لذكور آخرين ..

ولكى يبقى هذا « العقد » محترما كان على الذكر أن يحترم عقود الآخرين .

وفى الوقت الذى بدأ فيه جسم الانسان يضعف بدأ عقله ينمو وينضج . ولذلك لم يعد هذا الانسان فى حاجة الى عضـلات الحيوانات وسرعتها فى الجرى والهرب . وانما عقله هداه الى أساليب أخرى لالتقاط الفاكهة من الغابة . وهداه ايضا لاستخدام اسلحة أخرى للقتال والدفاع عن النفس .. وهداه الى وضـع حدود اجتماعية لتحميه وتحمى ذريته . وفى أثناء فترة الصـيد هذه استطاع الانسان أن يحرك أصابع يديه . وهو وحده القادر على ذلك من كل الحيوانات الأخرى . وهذه الأصابع هى التى مكنت الانسان من أن يستخدم الأدوات وأن يصنعها أيضـا . وهذا ما لم تفعله كل الحيوانات الأخرى ..

وتمكن الانسان — خلال مئات الألوف من السنين — أن يصلب عوده . وأن يقف وتعلم الانسان أن يكون له رفيقة واحدة . هذه الرفيقة هى الشريكة . أو هى اللصيقة . أو التـــابعة .. فلم تظهر كلمة الزواج أو كلمة الزوج الا فيمـــا بعـــد ذلك بألوف السنين .

وهناك اختلاف آخر بين الانسان والقرد مثلا ..

ففى فترة الحمل عند القرود — أقرب الحيوانات الينا — تقرف الأنثى من كل صلة جنسية . بل انها تبعـــد تماما عن الذكور . فيما عدا الانسان — هذا الشـــهوانى — لا يقوى على الحرمان الجنسى طويلا . ولذلك فمن الممكن ان يقرب زوجته معظم فترات الحمل وكأنه بذلك أراد ألا تتجـــه زوجته الى ذكر آخر .. وكأن الأنثى أرادت هى الأخرى الا يتجه الذكر الى انثى أخرى.فأصبحت هذه العلاقة ممكنة رغم الحمل .

وقد ورث الانسان من مرحلة الصيد القديمة ، هذه النعومة فى البشرة .. فهو اذا عانق المرأة التصقت بأكبر مساحة ممكنة من هذا الجسم العريان . وأصـــبح الجسم الانسانى شـــديد الحساسية للملامســـة . وفى هذا الجسم الانسانى مراكز كثيرة قادرة على اشعال الحس . والانسان اكتشفها واعتاد عليهـــا ويلهبها كلما أراد ذلك .. ولذلك فى استطاعة الانسان أن يكهرب نفسه وغيره بمجرد أن يمر بأصـــابعه على الجسم الانســـانى العريان .

ومن الملامح الغريبة عند الانسان : الشفتان ..

وقد أعلن كثير من العلمـــاء أن الشفتين ليست لهمـــا ضرورة

خاصة . وكان من الممكن أن يكون الفم مجرد فتحة . ولكن الانسان هو الذى جعل للشفتين معنى خاصا .. ويقول علماء آخرون : ان شفتى الانسان قد كبرتا وتضخمتا لأن الانسان له طفولة طويلة . اى أنه يرضع ثدى أمه سنوات عديدة بينما نجد القردة ترضع صغارها فترات أقصر .

ولكن الغريب فى شكل الشفتين أنهما مقلوبتان الى الخارج . على خلاف شفتى القرد .. فانهما حادتان بلا طبقة شحمية . فاذا اقترب منك القرد وقبلك فانه يطبع فكيه فقط على وجهك أعلى عنقك . ولكن القبلة من شفتى انسان ملتصقة ومندمجة وعميقة أيضا . ففى استطاعة الانسان أن يعانق الشفتين بالشفتين ..

وفى الشفتين خلايا عصبية كثيرة . ولذلك فالانسان قد جعل هاتين الشفتين ذراعين تتعانقان .. وتنقلان الحرارة والوهج الجنسى الى كل الجسم بل أن هناك نساء يغمى عليهن عند القبلات . وبسبب المعانى الكثيرة التى تعملها القبلة وتثيرها ، فان تسليم الشفتين هو موافقة مبدئية بتسليم بقية الجسم الانسانى .. وكما أن الطفل الصغير يرضع بشفتيه ، فان الطفل الكبير يرضع أيضا بشفتيه احساسات أخرى ومعانى عميقة ومثيرة .

وبعد الشفتين تجىء الأذنان ..

يقول بعض العلماء ان أذنى الانسان كانتا طويلتين — كأذني الحمار مثلا ثم ضمرت الأذنان بمرور الوقت حتى أصبح لها هذا الشكل الذى نراه .. وهناك شبه بين أذنى الانسان وأذنى القرد .

ولكن هنـــاك خلافا واضحا : هذه الشــــحمة التى تتدلى من الأذن .. من اين جاءت ؟ ولماذا كانت ؟ وما فائدتها ؟ ليست لهـــا فائدة . ولكن الانسان خلال مئات الألوف من السنين قد استخدم هاتين الأذنين فى الاثارة الجنسية .. امسك الأذنين بأصـــابعه اثناء اللقاء الجنسى . واعتاد ذلك واصبحت لهذه الشـــحمة هذه الدلالة الجنسية . واصبحت جرسا يضغط عليه فاذا كل الحواس الأخرى تصرخ وتثور وتنفتح ..

أما النهدان فهمـــا عند أنثى القـــرد العريان متضخمـــان .. وتتضخمان عند الاثارة الجنسية أيضا .

ويقال أن النهدين مظهر من مظاهر الأمومة . وضرورة لها . ولكن اثداء القرود ليست فى ضخامة أثداء المرأة . على الرغم من أن أثداء القرود أكثر افرازا للبن . ولكن اللبن الكثير والرضاعة العنيفة عنـــد صغار القرود لم تؤد الى تضخم ثديبى القـــردة ، ولكن أنثى الانسان لها نهدان يتضخمان وهذا التضم ليس بسبب الأمومة ، ولكن بسبب الأنوثة .. فالنهدان جهـــاز تنبيه جنسى أيضا . اعتاده الانسان واستراح اليه وعليه .

والأنف يختلف عن كل الأنوف عند الحيوانات الأخرى . والخلايا والمراكز العصبية الموجودة فى الأنف كثيرة . واذا كانت خاصـــة الشم عند الانسان قد ضعفت فان هذه الحســـاسية تقوى عند العناق . ويصـــبح الأنف قادر على أن يشم وعلى الاســـتمتاع بالشم ولذلك كانت الاثارة عن طريق العطور ورائحة الجســـم الانسانى نفسه .

هذه الاختلافات فى الهيئة والسلوك الانسانى قد اكتسبناها من مئات الألوف من السنين .. واكتسبنا معها وبسببها هذا العقل

الذى نمتاز به عن الحيوانات الأخـــرى ولكن ما الذى تغـــير فى الانسـان الآن .. هل ما يزال الانسان كما كان من مئات الألوف من السنين .. هل نحن مختلفون عن أجدادنا فى الرغبة والاتجاه والاشـــباع ..

لم يتغير شيء .. وانما الأســـماء فقط هى التى تغيرت .. فالبيت بدلا من الكهف والعمل بدلا من الصيد . والحب بدلا من السطو . والزواج بدلا من التزاوج ..

كما ظهرت بعض القيود التى نسميها : القانون .. القواعد.. الاصول .. التقـــاليد ولكن متى ظهرت هذه الحواجز . هـــذه الفواصل . هذه الأسلاك الشائكة . هذه العلامات البيضاء على الأرض . علامات المرور العاطفية. متى ظهرت . متى أصبحت لها هذه القوة ؟ ..

عندما ظهر الغرباء فى حياتنا ..

فبين الرجل وأنثاه لا قيود . ولا تقاليد . ولا عـــادات . الا ما اتفقنا عليه . وهو حر فى بيته . وهى أيضا . وفى استطاعة الأنثى أن تمشى عارية . والرجل أيضا . ولكن عندما يظهرشخص غريب : تنكمش الحركة ويتغطى الجسم . وتنزوى المرأة . ويبعد الرجل عن زوجته ..

واذا كان الرجال معا يذهبون الى الصـــيد ويتركون النســـاء وحدهن فقد حدث كثيرا أن ذهبت النساء للصـــيد أيضا . هـــذا الاختلاط حتم اقامة الفوارق والحدود . وعرفت الانسانية معانى العيب والحرام والشرف . اى أن المرأة لا يحق لها أن تعطى للغير ما ليس للغير .

وقد أسرف الرجال فى وضع الحواجز واقامة الجـدران بين ما يخصهم وما يخص غيرهم . وفى العصور الوسطى كان الرجل يضع « حزام العفة » حول زوجته . ويضـع على الحزام قفلا يحتفظ بالمفتاح فى جيبه .. عاما .. وعشرين عاما . ويترك فى الحزام فتحات للضرورة الحيوية فقط . وكان البعض من المتزمتين يضع الحزام كالسد المنيع على زوجته عندما ينهضان من النوم كل يـوم !

وقد اعتاد الرجل منذ وقت طويل أن تكون له امرأة خاصة . وأن يكون جسمها خاصا به . وأن يكون لهما مكان خاص ينامان فيه . (وفى كل اللغات العالمية نجد أن كلمة « نام » الرجل مع المرأة أى عاشرها كانها زوجته) .. اذن لقد عرف الانسان الزوجة الخاصة . والبيت الخاص . وعرف السرية والخصوصية فى كل تصرفاته الجنسية والعاطفية .. بعيدا عن عيون الآخرين وعن أيديهم أيضا .

* * *

ولو نظرنا الى مكان مزدحم بالرجال والنساء لوجدنا هنـاك حرصا شديدا على الا يصدم احد بأحد .. او يصطدم رجل بامرأة . لأن الملامسة لها معنى جنسى . وان كنا فى حياتنا العادية لا نقول ذلك . وانما فقط نقول : عيب أن نصطدم بسيدة .

هذه قلة ذوق .. هذا سوء تربية .. ولكن المعنى الحقيقى أن جسم هذه السيدة ليس مباحا . وانما هو خاص . وليس من حقك أن تلمسه .. وانما من حق غيرك ، وان كانت هذه الملامسة مسموحا بها فى أماكن الزحام الشديد ، لأنه لا مفـر من ذلك ، ومسموحا بها للحلاق والترزى والطبيب .. ولو فرضنا أن سيدة

اصطدمت برجل فى الزحام ، ولم يعتذر لها لقالت انه قليل الأدب .. ولكن لو ذهبت الى الطبيب نفسه للعلاج فانها تنزع ملابسها أمامه . ويتحسس جسمها . ويولدها . ولا يتهمه أحد بسوء الأدب لأنه فى المرة الأولى لم يكن له حق . و فى المرة الثانية له هذا الحق !

وبسبب هذا العدد الهائل من الغرباء فى كل مكان . كان من الضرورى أن تخفى المرأة معالم جسمها . وقد دفعت المرأة نفسها وراء الأبواب والجدران وتحت الملابس الوف السنين . ولكن عندما أصبح « العمل » ضرورة حيوية .. خرجت المرأة واخفت ملامحها أيضا لأن كشف هذه المعالم والنظر اليها ولمسها بالعين أو باليد ليس من حق كل الناس !

ولذلك نحن نطلب الى الطفلة الصغيرة اذا جلست ان تضم ساقيها . والا تفتحهما حتى تعتاد على ذلك .. لأن فتح الساقين لا يليق أمام كل الناس .. وكذلك المرأة عندما تضحك فانها تحاول الا يكون صوتها عاليا . وأن تخفى ضحكتها وراء يدها .. أو تنحنى لتخفى ضحكتها أيضا .

والسبب هو أن الضحك واللعب لهما دلالة جنسية خاصة ، ويجب الا تكون عامة !

ولكن ما الذى تفعله المرأة بملابسها الآن ؟

ان ملابس المرأة تخفى جسمها ولا تخفيه .. بل ان الملابس تبرز جسم المرأة اكثر مما تتستر عليه . فقد يكون الصدر مترهلا ذابلا . ولكن السوتيان يشده ويدوره ويبرزه . وهذه الاستدارة والتضخم والبروز لها دلالة جنسية . فمن المعروف أن النهدين يتضخمان عند اللقاء الجنسى .

وكذلك أرداف المراة . فهى حريصة أيضا على ابراز الردفين وتكبيرهما .. ولذلك تستخدم الكورسيه .. وأحيانا تستخدم الأرداف الصناعية المصنوعة من القطن . وكما أن المراة تحقن صدرها بالشمع . فانها تحقن أردافها أيضا .

فكأن المراة لا تخفى جسمها . وانما هى تخفيه ليظهر اكثر . فلماذا ؟

نعود الى جبلاية القرود : ففى عالم القرود نجد أن الخوف والزحام يدفعان الحيوانات الضعيفة الى الاستسلام للذكر القوى او الأنثى القوية . وأول ما يفعله القرد الضعيف أن يدير ظهره للحيوان الأقوى . ويعتليه الحيوان الأقوى والخوف فى جبلاية القرود سببه الزحام على القوة . وعلى السلطة . وعلى الطعام وعلى الأناث . ولا يملك الضعيف فى هذا الزحام الوحشى الا أن يعطى نفسه لمن هو أقوى منه . وليس لدى القرود الا جسمها .. فتضعه أمام الذكر الأقوى !

وفى عالم الانسان أيضا . فالمراة عندما تخرج الى الشارع . تحرص على أن تكون جميلة ومثيرة فهذا الجمال والاثارة هما محاولة للفت نظر الرجل . وفى نفس الوقت تذويب رغباتهالعدائية او العدوانية .. الى مجرد رغبة .. الى اعجاب .. الى اشتهاء .. وبذلك تنجو المراة من شر الرجل . وتنجو أيضا من الاعتداء عليها .. ولولا خروج النساء الى الشارع لانهدمتالحياة الزوجية وانهدمت الأسرة الانسانية . فخروج المراة الى الشارع خفف حدة الرجال الآخرين الشبان والمتزوجين .. فكأن المراة عندما تخرج الى الشارع جميلة انيقة مثيرة عارية بارزة النهدين والردفين تقول : من الممكن أن تحبنى ولكنى بعيدة جدا !

ومعروف لنا جميعا أن المرأة عندما تخرج الى الشارع سوف تكون موضع نظر الرجل .. أى رجل .. فهى لا تستطيع أن تسد عيون الناس . ولا أن تسد أفواههم . ولكنها فقط عن طريق اشباع العيون تقطع أيديهم .. واذا كانت العين بصيرة ، فمن المؤكد أن الأيدى ستكون قصيرة ــ وهذا هو المطلوب !

فلماذا كل هذه الممنوعات والقيود ، ولماذا هذه الاثارة فى نفس الوقت ، لماذا تفتح النوافذ لتهب العواصف الباردة ولماذا نشعل المدفأة فى نفس الوقت ؟

لأن الرجل حيوان « بريالة » .. فاذا سال لعابه ، أصبح حيوانا ذاول ذليلا .. وكأن المرأة هى وحدها القادرة على تحويل النمر الى قط وتحويل الذئب الى كلب .. الى قرد عريان .. الى عريان .. فكأن المرأة هى وحدها التى تقوم بترويض الرجل الشرس فى الشارع وفى البيت .. وهى وحدها القــادرة على أن تحمى الحدود التى وضعها الرجل .. وعلى ازالة الحدود وازالة الرجل أيضا !

وقــد اعتاد الانسان شيئا جديدا : اعتاد أن ينظر .. أن « يبص » وان يجد متعة فى النظر والبصبصة .. واعتادت المرأة أن تكون منظورة .. ملفتة .. وتصبح المتعــة مشتركة بين الجميع .

ولذلك نجد متعة ايضا فى مشاهدة الأفلام والمسرحيات حيث نجد أناسا آخرين يحبون ويعشقون ويقبلون ويتزوجون .. انهم يقومون بكل شىء بالنيابة عنــا .. اننــا نشاركهم فقــط بعض اللحظات . بل اننا نعلن عن الأفلام العاطفية باظهار البطل والبطلة

فى حالة عناق حار . ولا أحد يسأل نفسه : طيب هو يعانقها ويقبلها واحنا أخذنا ايه لا ..

لا شيء طبعا . ولكن اثناء عرض الفيلم نندمج مع البطل والبطلة وننسى ان الذى أمامنا هو تمثيل فى تمثيل .. ولكن النظر متعة .. ولذلك عندما يتعانق البطلان نحس بالكهرباء ويسيل اللعاب .. وتعالى آهات الحرمان .. آهات صاحب العين البصيرة واليد القصيرة !

وفى الصحف والمجلات صور عارية .. وفى الروايات قصص عارية .. وصفحات غرامية من نار .. كل هذا نبحث عنه . لأنه لذة . ومتعة . ومشاركة بالعين فقط .. !

وفى هذه المناظر حماية للأسرة وتعجيل بأن تكون لكل انسان أسرة أيضا !

وفى البلاد التى يسمحون فيها بالدعارة .. نجد أن هذه الدعارة تحمى الأسرة أيضا . فالرجل يذهب الى احدى الغانيات بلا حب ولا مقدمات فتمتد يده دون أن يراها .. اى يكون طويل اليد قصير النظر .. ولذلك لا يفكر فى أن يتزوج غانية .. أو يترك زوجته واولاده وبيته من أجل غانية .. أو من أجل واحدة تملأ الذراعين وتسقط من العينين .

والدعارة هذا العفن الاجتماعى والأخلاقى — هو أحد السموم التى يحمون بها الأسرة — أو كأنه أحد الأسمدة العضوية الذى يستخدمونها لتغذية التربة ؟ .

ورغم المحاولات الكثيرة للتخلص من القيود العائلية . أو التخفيف منها تعيش الأسرة اقوى وابقى علاقة اجتماعية . فقد

حاول المفكرون ان يبحثوا عن وسائل للحمل بدون اب معروف .. وحاولوا وضع الأطفال فى مكان عام دون حاجة الى ام او اب .. **كل هذه المحاولات الفكرية والعلمية قرأ الانســـان عنها ولكن لم يتحمس لها . فما يزال الانسان حيوانا اجتماعيا .. يريد الزوجة الواحدة والطفل والبيت الخاص . وان تكون له خصوصيات . وان تكون هناك ، حدود عليه وحدود له .. وان يكون له اطفال . وأن يتولى هو تربية أطفاله وهذه هى احدى مشكلات الأسرة وأحـــد أعبـــاء الزوجين .. والمجتمع والدولة .. وتربية الطفل ليست مشكلة حيوانية .. فلا شكوى للقرود منها .. وانما هى مشكلة انسانية جديدة ومتطورة كما سنرى !**



من قلوب الأمهات خرجت موسيقى الحنان !

عندما يولد القرد، فانه يمسك بامه . يمسك بشعرها وجلدها . ويتعلق بها . كانه تدرب على هذه العملية فى بطن امه ومنذ وقت طويل .. ولا يستطيع الطفل الانسانى أن يفعل ذلك الا بعد وقت طويه .

. فالقرد الصغير لا يحتاج من أمه الى تربية أو تدريب .. ثم انه ليس عبئا يصيبها بالقرف والغثيان وينخفض ضغط الدم عندها .. وينفخ صدرها .. ويعتمد عليها ..

أما الطفل الانسانى فانه عبء قبل أن يولد فلا تكاد أمه تحمل فيه حتى ٢٦٦ يوما تطلق هذا الجنين كأنه قذيفة .. ولا بد أن تصرخ الأم بأعلى صوتها . ولا بد أن يبكى الطفل أيضا . ويحرص الأطباء على أن تصوت الأم وعلى أن يبكى الطفل . فاذا حدث ذلك تلفت الطبيب يتلقى التهانى من الأهل على انه أبكى الأم وطفلها .

وينزل طفل القرد ومعه « خلاصه » هذا الخلاص تقوم أم القرد بقطعه ثم ابتلاعه . وبعد ذلك تقوم بلعق السائل الذى يغرق جسم

الطفل ثم تغسل جسمه تماما .. أما الطفل الانسانى فانه يولد عاجزا تماما على فعل اى شيء .. وامه كذلك مرهقة لا تقوى على عمل شيء لهذا المولود ..

ولا بد أن قطع الخلاص على طريقة القرود كان اسلوب أجدادنا من الوف السنين ، فيما عدا انهم لا ياكلون الخلاص . ولا بد ان حاجة الأم الى مساعدة الآخرين فى هذا الموقف ترجع الى مئــات الألوف من السنين عندما كان الانسان صيادا يترك زوجته أياما حتى يعود اليها بالطعام . فكان يجتمع حولها نساء كثيرات يساعدنها على ولادة الطفل والعناية به حتى تفيق الأم من آلام الولادة ..

وبعد يومين من ميلاد الطفل الانسانى يبدأ لبن الأم فى السيولة النشطة . فاذا أعطت الأم ثديها لابنها ، ظــل يرضــع حــوالى العشرين شهرا .. والرضاعة الحديثة تكتفى بسبعة أو تســعة شهور فقط .

وعندما تتوقف الأم عن ارضاع طفلها يعاودها المرض الشهرى وتصبح قادرة على الحمل من جديد .. ولذلك تعتبر الرضـــاعة الطويلة محاولة لتحديد النسل أيضا .

والرضاعة عند القرود ليست مشكلة .. ولكنها عند الانسان ــ هذا القرد العريان ــ مشكلة كبرى . فالطفل الانسانى غير قادر على أن يطعم نفسه ، وعلى الأم أن تســاعده فهى تحمله على صدرها . وهى تضع ثديها فى فمه . وهذه مشكلة . فحلمة الثدى ليست ممدودة بدرجة كافية . وليس من الســهل ادخالها فى فم الرضيع . ولذلك فالأم تضع ثديها بين شفتيه بحيث تكون حلمة الثدى بين سقف الفم وبين لسانه . ثم انه يجب أن تكون الرضاعة سهلة فى الأيام الخمسة الأولى ، واذا فشلت الأم فى ذلك فسوف تكون هذه مشكلة معقدة للطفل بعد ذلك ..

وأحيانا تشعر الأم أن طفلها يرفض ثديها . وهى لا تدرى . ولكن عند الطفل أسباب وجيهة جدا . كأن تضغط الأم بطفلها على صدرها . فلا يعرف كيف يتنفس : ففمه الصغير مليان بالبن وأنفه الصغير ملتصق بصـــدرها .. ولذلك يجب أن تراعى الأم ذلك . وهذا يجعلنا نقول مرة اخرى ان صدر الأم ــ نهديها ــ ليس جهازا للأمومة . وانما هو علامة من علامات الأنوثة .. والجنس . فهذه الاستدارة المرنة . وهذا البروز وهذه الحلمة غير المدودة لا تجعل الرضاعة سهلة على الطفل . ويكفى أن ننظر الى زجاجات الـبن التى يرضع منها الطفل . فحلمة الزجاجة طويلة ممدودة ولذلك يسهل على الطفل أن يرضع منها . ولو عرف الزجاجة لرفض ثدى الأم .. وتشبه هذه الزجاجة النموذجية ثدى القردة .. فثدى القرد مترهل يسهل على الطفل ان يمسكه . كما أن حلمة الثدى طويلة ممدوده تدخل بين شفتيه بسهولة تامة . بينما الطفـــل الانسانى يجـــد صعوبة فى وضع الحلمة فى فمه . ولا يقوى على امساك الثدى بسهولة القرود .. فكأن ثدى المرأة خلق للرجل وليس للطفل .. !

وهناك ملحوظة هامة وتحتـــاج الى تفسير جديد . فقد دلت الابحاث على أن ٨٠٪ من الأمهات يضعن أطفالهن الصـــغار أثناء الرضاعة على الذراع اليسرى .. وقد يكون تفسير ذلك أننا نعتمد على الذراع اليمنى اكثر من الذراع اليسرى فتضع الأم طفلها على الذراع التى لا تستخدمها عادة .

ولكن لوحظ أيضا أن ٧٨٪ من الأمهات اللاتى يستخدمن الذراع اليسرى يضعن الطفل اثناء الرضاعة على هـــذه الذراع اليسرى أيضا !!

أما تفسير ذلك فهو ان القلب على الجانب الأيسر من الجسم .

وأن الطفل وهو جنين قد اعتـــاد على سماع دقات قلب الأم . وعندما يولد الطفل عاجزا ضائعا فى هذا العالم الكبير فان الأم تعيده الى جنبها الى حضنها كأنها تعيده الى أحشائها فى ذلك المكان الأمين الذى يستمع فيه الى دقات قلبها من جديد .. ودقات قلب الأم هى الصـــوت الوحيد الذى يجعله يشعر بالأمن فينام . والمراة تفعل ذلك بالغريزة أو نتيجة لمحاولات طولها عشرات الألوف من السنين .

وقد أجريت تجارب على اطفال صغار وضعوا فى غرفة واحدة فى الوقت الذى وضع جهاز تسجيل يذيع دقات قلب ــ أى ٧٢ دقة فى الدقيقة ــ فلوحظ أن الأطفال ينامون بسهولة . ولوحظ أيضا أن هؤلاء الأطفال يرضعون كثيرا . كما أن وزنهم قد زاد .. على عكس الأطفال الذين وضعوا معا بلا جهـــاز تسجيل فى غرفهم . فهؤلاء الأطفال يبددون طاقتهم فى البكاء .

واجريت تجربة أخرى على ثلاث مجاميع من الأطفال : اطفال فى غرفة بها جهاز يدق ٤٠ دقة فى الدقيقة .. وأطفال فى غرفة بهـــا جهاز يدق ٥٢ دقة فى الدقيقة .. والغرفة الثالثة بها جهاز مسجل عليه دقات قلب حقيقى .. فلوحظ ان اطفال الغرفة الثالثة هم أسرع الجميع الى الهدوء والى النوم .

ولا بد اننا حين نتحدث عن أن الحب مصـــدره القلب وليس الراس ، نشير الى أن هذه الحقيقة التى عرفناها اثناء الطفولة .. فنحن نشير الى الامن والأمان الى جوار الأم .

ولا بد أن تكون « مرجحة » الطفل .. وهدهدته حتى ينام .. سببها أن الطفل يستشعر خفقات قلب الأم .. ولا بد أن هذا هو الذى يجعله ينام .. وهذا الاهتزاز أو هذا الصوت الذى يسمعه

يعيده الى هدوئه عندما كان فى بطن امه .. وهذا ما نفعله نحن الكبار .

فلا يكاد الانسان يجلس الى مقعده حتى يحاول ان يتأرجح به .. او عندما نهز ارجلنا .. كل هذه محاولات لأن نهدىء انفسنا .. أو محاولات لأن نعيد هزات وصوت قلب الأم .

وليس من الصدفة أن تكون كل الموسيقى الجديدة التى يستريح اليها الشبان هى موسيقى الدقات العالية .. دقات الطبول .. دقات القلوب المصنوعة من الجلد .. هذه الدقات تهز الأذن وتتأرجح لها المشاعر .. وقد اختار الشبان فى العالم أسما لهذه الموسيقى هو : موسيقى الخفقان .. موسيقى دقات القلب . ومن الغريب أيضا أن الكثير من الشبان بعد حفلاتهم الموسيقية الصاخبة ينامون .. ولذلك يحرص هؤلاء الشبان على أن يناموا أثناء العزف الموسيقى .. ثم يصحون بعد ذلك بعد أن استراحت اجسامهم واعصابهم أيضا .. ان هذه الموسيقى قد أعادتهم الى طفولتهم .. الى قلب الأم .. والى حنان النغم .. فناموا كأنهم أطفال صغار كأن موسيقى الخنافس قد صدرت من قلوب الأمهات!

وبعد ذلك يتوالى نمو الطفل : بعد شهر واحد يستطيع أن يرفع رأسه اذا نام على الأرض . وبعد شهرين يرفع صدره وبعد ثلاثة يمد يده الى الأشياء . وبعد اربعة يستطيع أن يجلس فى حجر أمه . وفى الخامس يمكن وضعه فى مقعد . وفى السادس يمكن أن يجلس وحده وفى السابع يعتمد على أمه فى الوقوف . وفى الثامن يعتمد على اثاث الغرفة فى الوقوف . وفى التاسع يزحف . وفى العاشر تساعده امه على المشى . وفى الحادى عشر يعتمد على اثاث الغرفة فى المشى . وفى الثانى عشر يستطيع أن

يصعد السلم بيديه ورجليه وفى الثالث عشر يقف دون مساعدة . وفى الرابع عشر تجىء اللحظة الكبرى .

انه يستطيع ان يمشى دون مساعدة ! وفى هذه الاثناء يكون قد عرف الطفل بعض الكلمات . ويصبح قادرا على أن يحفظ بسرعة وفى السنة الثانيـــة يعرف ٣٠٠ كلمة وفى الثالثـــة ٥٠٠ كلمة وفى الرابعة ١٦٠٠ كلمة . وفى الخامسة ٢١٠٠ كلمة وهذه مقدرة فذة عند الانسان انفرد بها عن كل الحيوانات الأخرى . وقد اجريت تجارب كثيرة على تدريب القرود على الكلام .

فمثلا : أتوا بقرد وجعلوه يعيش فى نفس بيئة طفل انسانى . وبعد سنتين لم يستطع القرد ان ينطق اكثر من بابا .. وماما .. كوب .. وان كان الشمبانزى عنده مقدرة على تقليد الحركات ، فانه عاجز تماما عن تقليد الأصوات . على الرغم من ان الأجهزة الصوتية عند الشمبانزى اقوى من أجهزة الانسان .. ومعنى ذلك أن الجهاز الصوتى لا يكفى .

ولكن العقل هو الفارق بين الانسان والقرد . وهناك طيور اقدر من الشمبانزى على تقليد الأصوات .

فالببغاء يستطيع ان ينطق جملة طويلة ولكنه لا يستطيع ان يضيف كلمات اخرى ولا يستفيد من هذه الكلمات المحدودة التى عنده .. ولكن هذه اللغة ضرورة عند الانسان الذى كان يجب أن يخرج فى جماعات للصـــيد . وكان لا بد أن توجد هنـــاك وسائل للتفاهم والتخاطب بين الصاديين .. فاللغة ضرورة حيـــوية عند الانسان ..

والطفل الانسانى ككل اطفـــال الحيوانات الثـــديية له صرخة معروفة هذه الصرخة تدل على انه يشكو من الم . وبعض الطيور

لها صرخات ايضا . والطفل الانسانى عندما يتالم أو يجوع او نتركه وحده أو اذا ظهر أمامه أو حوله شىء غير مألوف أو اذا سحبنا من تحته شيئا يستند عليه .. فانه يصرخ .

فهو يصرخ اذن بسبب : التعب او الخوف . واذا صرخ الطفل الانسانى يجب أن يكون هناك من يساعده ويحميه . وفى هذه الحالة يجب الاقتراب منه وهزه هو أو السرير الذى ينام عليه . وصرخة الطفل توتر عصبى واحمرار فى الراس ودموع فى العين ، وفتح للفم وسحب للشفتين الى الخلف وتنفس مرتفع . وعندما يكبر الطفل فانه عندما يصرخ يتجه الى امه ويتعلق بها . وكل هذه معلومات معروفة . ولكنها ضرورية لمشكلة أخرى سوف أعرضها حالا .. مشـــكلة الابتسام والضحك .. فالابتسام له علاقة بالصراخ . فالصراخ نداء الى شخص بعيد .

والابتســـام حديث مع شخص قريب . وملامح الوجه عنـــد الصراخ هى نفسها ملامح الوجه عند الابتسام او الضحك : صراخ وفتح للفم وسحب للشفتين الى الخلف وتقلص عضلى واحمرار فى الوجه .

واذا استطاع الطفل أن يميز ابويه فى الشـــهر الثالث ، فان البكاء يتحول الى ضحك . فالطفل الضاحك هو الذى يعرف أباه ، والطفل العاقل هو الذى يعرف أمه . وعندما يعرف الطفل امه فانه يخاف من الآخرين .

والضحك معناه : أن الخطر ليس حقيقيا . واذا عرف الطفل الضحك ، فان الأم تستطيع أن تلعب معه دون أن يصرخ .

وهناك اناس كثيرون اذا ضحكوا لا تعرف ان كانوا يضحكون أو يبكون .. فملامح الوجه واحدة . والصوت نفسه واحد . واذا كنا نقول عادة : ان فلانا ضحك حتى بكت عيناه ، فيمكن ان يقال

عن الطفل : انه بكى حتى ضحك .. فالطفل يبكى حتى يجىء احد . فاذا جاء توقف عن البكاء . فاذا عرف هـذا الذى جـاء فانه يبتسم .. ثم يضحك .. وكثيرا ما يتوقف الطفل عن البكاء فجأة ويضحك .. نفس الملامح مع خلاف بسيط فى لمعان العينين ..

وعنـدما يعرف الطفل كيف يضحك فانه يصبح لعبة الأبوين والأقارب .. ويدخل الطفل مرحلة هامة من حيـاته .. مرحلة الكائن الاجتماعى الصغير ..

والشـمبانزى يبتسـم ويضـحك ويلعب مع صـغاره .. والشمبانزى اذا ضحك فانه يمد شفتيه الى الأمام . وهى قريبة من الضـحك الانسانى وعندما يخـاف الشمبانزى فانه يسحب شفتيه الى الخلف ويكشف عن أسـنانه . فالحيوانات تضحك وتلعب . والانسان أبرع الحيوانات كلها فى اللعب وفى فنون اللعب .. وكلما كبر الانسان اتسعت أمامه فرص اللعب بأنواعه المختلفة .. اللعب جسميا وعقليا وفنيا .

واذا نحن نظرنا الى الشبان عنـدما يستمعون الى مطربهم المحبوب . أو يتفرجون على العازفين الذين يعشقونهم . نجد أن هؤلاء الشبان يصرخون . ويشدون شعورهم ويدقون صـدورهم ويمسك الواحد منهم الآخر .. انهم يصرخون كأنهم يتألمون مع انهم سعداء . ولكن الانفعال اذا ما كان بالغ الشدة فانه يتحول الى شعور بالألم .. فصرخاتهم ليست استغاثة بأحد . وانما صرخات بقصد تنبيه الآخرين الى أن هذا هو شعورهم واحساسهم .. وانهم فى شدة السعادة التى بلغت أقصى درجات الألم ..

ولو اتينا بشاب أو شابة واجلسناها مع المطرب الذى هو فتى احلامها فانها لا تصرخ ولا تشـد شعرها ولا تدق صـدرها .. فالصرخة ليس لها معنى هنا . لأن الصرخة نداء الى الآخرين ..

لأن الصرخة .. لغة .. عبارة .. كلام لا بد أن يسمعه انسان آخر .. أو آخرون :

ومن العجيب أن الطفل الصغير يتوقف عن الصراخ فى الشهر الثالث فجأة . وسبب ذلك أن الطفل يكون قد عرف أمه . والأم الهـادئة قادرة على تهـدئة الطفل . والأم العصبية تجعل طفلها عصبيا أيضا ..

الأم التى تبتسم لطفلها فانها تهدئه . ولكن اذا فوجىء الطفل بأن أمهتضحك بصوت مرتفع علىغير العادة ، فانه يرتبكويضطرب ولا يعرف ما الذى تقصده أمه

واذا الأم افتعلت ضحكه أو ابتسامة ، فان الطفل يدرك ذلك أيضا ، ومن المستحيل خداع طفل صغير . وهذه حقيقة تعرفها الأمهات . وسبب ذلك أن الطفل جهاز شديد الحساسية شديد الملاحظة . وانه اذا اعتاد على صوت ولهجة ونبرة وملامح الأم . فاذا تغيرت لأى سبب فانه يدرك ذلك وبسرعة وبدقة !

والابتسام تفاهم متبادل .

ومعناه : لا خوف . وعند الشمبانزى علامات تدل على المودة . ولكن الابتسام عند الانسان ميزة خاصة . ولكن لماذا انفرد الانسان بالابتسام

- سبب ذلك أن جلدنا ناعم .

عريان من الشعر . فالقرد الصغير عندما يولد فانه يتعلق بأمه . ساعة ولادته ويوما بعد يوم يظل القرد متعلقا بأمه . وعندما يتركها لأول مرة ، فانه بسرعة يعود اليها ويمسك بها . فالقرد الصغير عنده طريقة للوصول الى منطقة الأمان . حتى عندما يكبر القرد ويزداد وزنه وتطرده امه فانه يعود الى صدرها يتعلق به .. والطفل الانسانى عندما يولد فانه يكون عاجزا عن عمل شىء . وليس لديه

شيء يمسكه أو يتعلق به . ولذلك لا بد ان يعتمد على الأم نفسها . وعلى اقترابها منه ومعاملتها له . ويجب أن يصرخ حتى تجيء . والشمبانزى لا يحتاج الى هذه الصرخات ، لأن أمه أمامه موجودة . أو لأنه يتعلق بها . ولذلك فالانسان الصغير محتاج الى علامة الى اشارة تدل على انه فى حاجة الى معونة ومحتاج الى اشارة أخرى فيقول انه قد تحققت له المعونة وانه استراح الى ذلك..والابتسام هو المكافأة التى يمنحها الطفل لأمه .. فهو اذا ابتسم كأنه قال لها : شكرا .. واذا ابتسمت هى فكأنها قالت له : عفوا !

وابتسامة الطفل فى الأسابيع الأولى تكون غير مركزة .. انها ابتسامة عامة .. ولكن بعد ذلك تصبح للطفل قدرة على التركيز : على عينى الأم .. ولو قدمنا للطفل فى هذه المرحلة ورقة مرسومة عليها عينان .. لابتسم لها ايضا .. وفى الشهر الرابع تتركز نظرة الطفل على وجه الأم .. وفى الشهر السابع يتعرف الطفل على أمه .. وابتداء من هذا الشهر ينطبع فى نفس الطفل كل ما تفعله الأم حتى نهاية حياته .. انه ابتداء من هذه اللحظة تتحدد مسئوليتها الكبرى .

وتظهر عند الطفل نزعات عدوانية يصاحبها الصراخ المتقطع . وتقلص اليدين والرجلين . واحيانا يبصق الطفل ويخربش . تكون هذه الحركات غير متناسقة أول الأمر .

وبعد ذلك تتركز على العدو .. أو الشخص المخيف . وهذا يدل على أن الطفل بدأ يثق بنفسه وبقدراته .

وعندما يكون هناك اطفال كثيرون معا ، فان استعدادهم للعدوان يكون أشد وأعنف .. ومهمة الأم هنا هى تلقين الطفل وتدريبه وتعليمه وتصحيح سلوكه . والطفل الانسانى يتعلم بالتقليد والتلقين .. وهذه موهبة لم تتطور عند الحيوانات الأخرى .

ومن المؤكد أن كل تصرفاتنا هى ثمرات لبـذور غرسـت فى الطفولة .

ولكننا ننسى ذلك .. كل ما يفعله الانسان من تلقاء نفسه ويسمى ذلك سلوكا اخلاقيا ، ليس فى الحقيقـة الا ما ترسب فى نفسه منذ الطفولة .. ومن الصعب ان نغير آثار الطفولة وآثار الغريزة أيضا .. كما انه من الصعب أن تغير التقاليد والعادات التى ترسبت فى طفولة المجتمع الانسانى . فاذا ظهرت افكار جديدة تهز القديم ، فان القديم ، يقاوم ويتحمس له الناس . لأن الجديد يريد أن يقتلهم من طفولتهم أو يجردهم من تاريخهم .. ولكن الجـديد يسود مع بقاء القديم أيضا ..

وهناك مجموعات تجردت من كل القديم ، وتعلقت بالجديد .. هذه المجتمعات انهارت وانحلت وابتعـدت عن الرواسب القوية الأخلاقية والاجتماعية . وهناك مجتمعات تجمدت طفولتها على ماضيها .. ولكن المجتمعات السعيدة ـ كالانسان السعيد ايضا ـ هى التى تأخذ من الجديد ما ينفعها ، وتحتفظ من القديم بما ينفعها ايضا .. أى المجتمعات التى اكتسبت هذه القدرة المتوازنة بين الماضى الكريم والمستقبل الباهر .. ولذلك كانت مهمة الأم صعبة .. كيف تغرس فى نفس طفلها ما هو نافع له وللناس ، وتبعده عن الذى يضره ويضر غيره ..

ولكن الانسان كائن محب للاستطلاع حتى ولو ادى ذلك الى ضرره .. يريد أن يعرف .. أن يمـد عينيه ويده .. وخياله .. ويلعب اول الأمر ، ثم يحول اللعب الى فن : رسم . نحت .. تمثيل .. موسيقى ؟

القرد والسلسلة والقرد الحى !

كل الحيوانات الثديية عندها رغبة شـــديدة فى أن تتشمشم فى كل ما تجـــده كأنها تريد ان تعرف : ما هذا ! ولمـــاذا ! وهل الذى تجده شىء يصلح للأكل . والقرد هو اكثر هذه الحيوانات رغبة فى الاستطلاع . اما الانسان فهو أكثرها شراهة ويمكن أن يقـــال ان الانسان حيـــوان « دباغ » أى يأكل أى شىء وفى اى وقت ..

وكلما اصبح الحيوان متخصصا فى طعـــام معين ، أصـــبح عالمه ضيقا محـــدودا وفى نفس الوقت خانقا أيضا .. فالحيوان الذى يأكل النمل لا يرى الا هذه الحشرة(١) .

وتصبح الدنيا من أولها لآخرها لا معنى لها الا اذا كانت على شكل نملة .. واذا اختفى هـــذا النمل لأى سبب مات هـــذا الحيوان .. !!

ولأن بعض الحيوانات تخصصت فى بعض الطعام ، فانالطبيعة قد أعطتها نوعا من الحماية . فحيوان القنفذ يستطيع أن يحـــدث

---

(١) أنظر الطبعة الاولى من كتاب « من اول نظرة » ص ٤٥١ وما بعدها ..

أصواتا وضوضاء كما يحلو له وهو آمن تماما . لأن له درعا من الشوك يحميه من الأعداء .. لكن الحيوانات الأخرى التى ليست لها حماية يجب أن تكون فى حالة يقظة مستمرة .. فالانسان يجب ان يبحث عن طعامه فى كل مكان ، وان يكون البحث واعيا والا مـــات .

والقرود عندها حب استطلاع شديد . تماما كالانسان ، ولكن عندما تكبر القرود ، فان هذا الاستطلاع يتوقف ، ولا يتطور على عكس الانسان الذى يقوده السؤال الى جواب ثم الى سؤال آخر وهكذا ..

وهناك نوعان من السلوك عند الانسان : حب الجديد والخوف من الجديد .. فكل شىء جديد ربما كان خطرا .

ولذلك يجب أن يقترب منه باحتراس وان يبتعد عنه باحتراس أيضا ، ولكن اذا تجنبنا كل ما هو جديد أو كل ما هو مخيف فكيف نعرف أو كيف نتعلم أو كيف نوسع مجال الاستطلاع عندنا من أجل العثور على الطعام والوقاية والدفاع والسيطرة ؟ هذه الرغبة فى أن نعرف هى التى تجعل ما ليس مألوفا شـيئا مألوفا ، وبذلك نكتسب تجربة جديدة ، وندخرها ونختزنها ونتذكرها فيما بعد ..

فالطفل الانسانى يريد أن يعرف ، يمد يده الى كل شىء ، ويضع اذنة على كل باب ويلتقط كل ما يدور حوله ، ويجرب ، وقبل أن تصبح هذه الرغبة الشديدة عند الطفل شيئا خطرا يجب أن يتدخل الوالدان .. ونحن نقول عادة عن هؤلاء الأطفال الذين يستطلعون كل شىء بشراهة : انهم يتصرفون كالوحوش .. ولكن الأصح أن يقال : ان الوحوش هى التى تتصرف كالأطفال — اى عندما تحاول الحيوانات أن تعرف وترتقى بمعرفتها يختلط لديهـــا الاندفـــاع بالاحتراس ..

ومن مظاهر الاستطلاع عند القرد وعند الانسان أيضا : اللعب، فاللعب عند القرود يشبه اللعب عند الطفل الانسانى ، فالصغار عموما يحبون الشيء الجديد . يمسكونه ، ويرمونه ويكسرونه ، ويخترعون أشكالا جديدة من اللعب وليست لديهم قدرة على التركيز ولا قدرة على ان ينقلوا الى آبائهم معنى الألعاب أو الحركات التى اكتشفوها . أما الطفل الانسانى فيستطيع الى حد ما ، والفرق بين القرود الصغيرة والأطفال الصغار : ان القرود كلما كبرت قويت عضلاتها والأطفال الصغار كلما كبروا قويت عقولهم ..

واذا أعطينا القرد الصغير ورقة وقلما ، فانه يمسك القلم ويرسم به على الورق ، وعندما ينظر الى ما احدثه القلم على الورق يفرح به .. فهذه الخطوط شيء جديد ، ويظل يرسم بالقلم على الورق ، وأحيانا يرسم دوائر ناقصة .. وأحيانا خطوطا متقطعة .. أما الطفل الانسانى فيهتدى الى الدوائر والمربعات .

والاطفال والقرود يحبون الخبط والرقع .. اى يحبون أن يلعبوا بالأشياء التى لها صوت ، وكلما كان الصوت مدويا كان تعلقهم بهذه اللعب أكثر .. يحبون البمب .. والبالونات ومسدسات الفل ..

والطفل الانسانى عندما يبلغ الثالثة من عمره يعرف كيف يرسم الدائرة ، ويرسم الوجه الانسانى وذلك بأن يجعل له عينين وفما وأذنين .. ثم يجعل الذراعين والساقين تخرج من الرأس ..

وهذه مرحلة استكشاف واكتشاف ايضا ، فالطفل يستكشف قدراته على اللعب ، ويكتشف أنه قادر على أن يلعب ، ولكنه لا يقدر على أن ينقل هذا الذى يمارسه الى والديه فيقول لهما ما الذى صنعه أو اهتدى اليه ، وانما هو رسم فقط ! .. انه

كالذى وجد قرشـــــا على الأرض . وراح يلعب به فقط ولـــكن لا يعرف ان كان هذا القرش له معنى آخـــر .. أو يســـتطيع أن يشترى به أى شىء .. أو بعبارة اخرى : ان القرش لعبة ، أى انه يساوى ثمنه لعبا ، أى أن اللعب لذة مدفوعة الثمن فورا . فهو فى مرحلة اللعب لمجرد اللعب .

وفى عالم الأصوات : لا نجد أن للقرد الصغير أو الكبير تجارب فى عالم الصوت ، فهو غير قادر على أن يكتشف شيئا جديدا ، ولا أن يقوم بتركيب كلمات أو حروف ، ولا هو قادر على التـــلاعب بالحروف والكلمات ، كما يفعل الأطفال عندما يكتشـــفون قدرتهم على الكلام ، فانهم يفرحون باختراع كلمات أخـــرى : اى بقلب الحروف ولخبطتها .. انها مهارة جديدة اكتشفوها فى انفسهم .. وان كانت القرود لها أصوات معروفة ثابتة .

وان كانت لها ايضا عادة دق الأرض بالأرجل والأيدى للتعبير عن الضيق أو الفرح ، ولكنها دقات معروفة محدودة ، كمـــا أن القرود فى بعض الأحيان تنفخ فى الأجسام المفرغة الخوف .. ولكن القردة لم تستطع أن تجعل الشىء المفرغ عودا أو قيثارا ، ولم تجعل لهذه الأصوات قواعد ومعنى .

ولم تحاول القردة أن تجعل فرحتها منظمة .. او حركاتهـــــا مدروســـة كالرقص عند الانســـان . أو كالألعاب الرياضـــية .. فالرياضة هى حركات ذات ايقـــاع ، هذا الايقاع متنوع من لعبة الى لعبـــة ..

حتى الكتابة هى أيضا نوع من الرسم ، فالحروف عبارة عن رسوم والكتابة أصلها لعب أيضا .

وعن طريق هذه الاكتشافات نقلنا أفكارنا الى غيرنا ، ونقلنا أفكارنا من جيل الى جيل ، واصبح لنا تاريخ مشترك . ثم وضعنا لكل هذه الألعاب قواعد ..

ولا شيء جديد فى عالم الحيوان .

ولكن الجديد فى عالم الانسان .

فهو دائما يبحث عن الجديد ويتمسك به ، فاذا أصبح مألوفا اتجه الى غيره ، ولو وقفنا عند الذى نعرفه لتجمدنا وليس الجديد فقط فى خطوط الأزياء والتسريحات والسيارات والأثاث ، ولكن الجديد فى أسلوب التفكير نفسه فالبحث عن الجديد والبعيد هو جوهر الحضارة الانسانية .. وهو الفارق بين الانسان والقرد ، أو بين القرد العريان والقرد ..

واذا رجعنا الى لعب الأطفال لوجدناه موجها الى الآباء فى أول الأمر ، فالأب يلاعب طفله ، والطفل يلاعب والديه ، وعندما يكبر الطفل ، فان اللعب يتجه الى غيره من الأطفال .. اى يكون الطفل نشاط اجتماعى ، فيكون للطفل شلة من الأطفال يلعبون معا ، وهذه مرحلة دقيقة جدا فى حياة الطفل وسوف يكون لها اثر خطير فى حياته ، فالطفل الذى يحاول أن يعزف على الآلات الموسيقية ويفشل وهو صغير ، سيجد صعوبة شديدة فى محاولة ذلك عندما يكبر والطفل الذى يفشل فى ان يكون له أصدقاء وهو صغير ، ستصبح الصداقة صعبة عليه عندما يكبر . واذا كانت علاقة الطفل بالأشياء المادية كالبيانو أو كالناى صعبة فى الطفولة ، فان علاقته بالأطفال سوف تكون أصعب واعقد .

والطفل الذى انعزل عن مجتمع الأطفال ، اى الذى ليست له

علاقات اجتماعية ، سيجد نفسه فى وضـــع سىء وســوف تكون علاقاته الاجتماعية معقدة ومرهقة ايضا ..

ومن التجارب التى اجريت على القرود مثلا : اننا اذا عرفنــا قردا من القرود الأخرى .. سنة وراء سنة ثم اتينا له بعـــد ذلك بقرود فانه يظل عاجزا عن المشاركة معها فى اللعب او اللهو حتى فى الجنس .. بل انه يفقد رغبته الجنسية تماما ، وقد لاحظ العلماء أن القرود التى تنعزل طويلا اذا وضعت فى مجتمع القرود فانهــا تقف الى جوار الحائط وتدق الأرض برجلها .. واحيانــا تخفى وجهها بيديها .. كأنها فى حالة خوف أو خجل أو عجز عن الاشتراك فى اى عمل جماعى ..

وتربية الطفل لهـــا جانبان : تربية داخلية وتربية خارجية ، ولننظر ماذا يحدث فى عالم القرود : فالأم تترك طفلها يتعلق بها ، فاذا خاف عاد اليها فالأم تحميه بحنانها وترضـــعه مكافأة على سلوكه الذى لا يضره ، وهذه هى مرحلة الأمان عن طريق الحنان ، أما عندما يكبر القرد فان الأم تطرده بعيدا عنها ، لكى يشترك مع القرود الأخرى فى اللعب فاذا عاد اليها فانها تضربه وتقسو عليه.. كأنها تريد أن تقول له : انك كبرت على حضن الأم ، فابحث لك عن حضن آخر ، وفى هذه المرحلة نجد الأم اقل حبا لطفلها . ولا تنطلق لحمايته الا فى حالة الخطر الشديد اما اذا لم يكن هنـــاك خطر ، وجاء طفلها الصغير يتعلق بها فانها تطرده وتضربه،وبعد ذلك يتعلم القرد الصغير أن يبعد عن أمه ، وان يدافع هو عن نفسه ..

وكذلك الطفل الانسانى تماما ، اذا لم تحسن الأم تربية طفلها فى المرحلتين فان النتيجة سوف تكون سيئة وقاسية ..

والطفل الانسانى الذى يفقد الحنان وهو صغير ، ثم أصبحت

له علاقات اجتماعية بعد ذلك ، فانه سوف يكون عاجزا عن تعميق هذه العلاقات الاجتماعية ..

واذا عرف الحنان فى الطفولة وعرف الحماية الزائدة والعناية البالغة فمن الصعب عليه أن يجد الشجاعة على خلق علاقات اجتماعية جديدة ، وانما سيظل كالطفل متعلقا بأمه ..

ولا يريد أحدا آخر غير الأم ، فاذا فقد الأم فانه يظل يبحث عن الأم أو بديل عن الأم . وسوف يصدمه المجتمع لأنه بطبعه قاس ، ولأنه ليس أما لأحد ..

والانسان الذى يخاف من المجتمع يكون انسانا انسحابيا أو هروبيا ، وهذا الانسان الهروبى لا يريد أن يعرف شيئا جديدا . لأن الجديد مخيف وهو لا يريد ان يخاف .

فالذى يعرفه أحسن ، وهو لذلك ليس اجتماعيا ، ولا يحب أن يكون وقد يكون له نشاط جسمى ، ولكن نشاطه يجب ان يكون متكررا ، اى لا يأتى بحركات جديدة ، وانما هو أسير العادة التى استراح اليها .

بل اننا نجد الكثيرين من الهروبيين لهم حركات ثابتة .. يهزون رءوسهم أو أيديهم أو ارجلهم بصورة متكررة او يرضعون اصابعهم ، وتكون لكل واحد منهم « لازمة » .. لماذا ؟ لأن هؤلاء الهروبيين قد وجدوا البيئة مخيفة ، معادية ، لا ترحب بهم ، ولذلك وجدوا الراحة فى أن يجعلوا سلوكهم مألوفا ، مألوفا أكثر من اللازم . اى جعلوا انفسهم مفهومين .. عاديين .. لا يخاف منهم أحد أو لا يلتفت اليهم .. ومن الممكن ان تلاحظ ذلك فى الناس الذين حولك . فالذى يقول عبارات واحدة لا يغيرها فى الرد

على كل شيء هو انسان (عادى) ـــ اى يجعل المادة تتحكم فيه. حتى أصبح هو نفسه (عادة) اجتماعية ، لا يخيف احدا ، ولا يخاف من أحد ، وهنـــاك مثل شعبى يقول : آفتى : معرفتى ، وراحتى : ما اعرفش ـــ ومعناه انه لا شيء يخيف أكثر من المعرفة ، ولا شيء يريح أكثر من الجهل ! ..

ولا بد أن يكون المثل الأعلى عند هذا الطراز من الناس هو أن يأتى بالأفعال الرتيبة .. مثل دقات القلب فدقات قلب الأم تريح الطفل . وكل عمل يكون متكررا على شكل دقات القلب هو شيء مريح ايضا . أو هو شيء يجعلنا نخفف من حدة التوتر .

وفى استطاعتك أن تلاحظ من ينتظر مكالمة تليفونية انه يدق باصابعه بشكل منتظم أو يهز قدميه .. او يتحرك فى الغرفة .. والطالب أثناء الامتحان يضع القلم فى فمه .. أو يلعب بشاربه .. ويكون ذلك بايقاع متكرر مثل دقات القلب .

وهذه الحركات .. أو هذه (اللازمة) لها فائدة : فهى تساعدنا على احتمال الشيء الجديد الذى ننتظره فى خوف .

واذا نحن أسرفنا فى استخدام هذه (اللازمة) فانها تصبح فكرة متسلطة علينا .. اى اننا نضع القلم فى أفواهنا دون أن يكون هناك امتحان .. أو نروح ونجيء فى الغرفة من غير مناسبة .. من غير ان تكون لنـــا قدرة ارادية على ضبط هـــذه الحركات والتوقف عنها ! ..

وهذه (اللازمة) تولد من الملل .. واذا ذهبنا الى حـــديقة الحيوانات وجدنا الحيوانات منعزلة فى اقفاصها الحديدية .. وهى منعزلة عن العالم الواسع . وعن العلاقات الجماعية .. اى عن

الاتصالات بالحيوانات الأخرى ، فهى فى حالة انسحاب وانزواء . كأنها هربت من الحيوانات الأخرى ، أو هربت منها الحيوانات الاخرى .

ومن الأفضل ان ننظر لأنفسنا ونحن نقف أمام اقفاص الحيوانات .. ان هذه الأقفاص الحديدية تشبه الموانع النفسية الشديدة التى نحيط بها أنفسنا وننسحب وراءها ، وننكمشوننطوى ونتقوقع ونجتر تجاربنا ولا نضيف الىانفسنا شيئا اجتماعياجديدا . وانما نفرز من أنفسنا نسيج دودة القز ونتوارى وراءها .. أو نندفن ، ومن مظاهر هذا السلوك الانسحابى عند الحيوانات : انها تدور حول نفسها وتثير نفسها جنسيا .. والانسان يفعل ذلك أيضا فى المعسكرات والسجون والمستشفيات والأقسام الداخلية للمدارس ، ونجد القرود تلعب فى اذنيها بأعواد الشجر ، ونجد الفيل واقفا فى مكانه يهز رأسه يمينا وشمالا ساعات طويلة ، وبعض الحيوانات تشد شعرها ، أو تعض نفسها أو ترضع ثديها .

وقد يكون السبب أيضا هو التوتر الشديد أو تكون النشأة غير السليمة .

يمكننا أن نقوم بتجربة بسيطة وذلك بأن نلقى شيئا فى قفص قرد اعتاد أن ينعزل فان هذا القرد لا يحاول ان يتجه الى هذا الشىء الذى القيناه فى قفصه ، ومعنى ذلك انه لا شىء يثيره أى لاشىء جديد يثيره .. واذا كان الحيوان لا يلتفت الى الشىء الجديد ، فلن يعرف شيئا واذا كان الانسان لا يثيره الشىء الجديد ، فسوف يظل محدود المعالم ويكون بذلك اقرب الى الحيوان .

واذا ذهبنا الى حديقة الحيوانات يجب ان نتذكر المدن الانسانية التى نعيش فيها ، انها أيضا مثل حدائق الحيوانات : كل انسان له

قفص ، هذا القفص من أعواد حديدية ، هذه الأعواد هى الممنوعات النفسية والاجتماعية وهى تحصرنا وتعصرنا ..

والصحة النفسية والاجتماعية انما تتحقق اذا ما نحن ركبنا عربة يجرها حصانان : احدهما حب الجديد والآخر الخوف من الجديد .. والعقل الانسانى قد علمنا أن نتجه الى الجديد ، بخوف .. أو على الأصح باحتراس . واذا كان الانسان قد مات بسبب رغبته فى المعرفة . فان الانسان حى لأن بعض الناس مات من أجل أن يعيش غيره ليعرف أكثر وأكثر ..

واذا نحن نظرنا الى (القرداتى) فماذا نجد ؟ نجد قردا مربوطا فى سلسلة واذا وقف القرداتى ونحن أيضا ، وجدنا القرد يأتى بحركات من الشقلبة والرقص ، ومعنى ذلك أن القرداتى قد علم القرد أن يأتى بهذه الحركات . أى أن القرد مربوط بسلسلة اخرى هى : العادة على اتيان هذه الحركات ..

فكأن القرد مشدود بسلسلتين واحدة تراها وواحدة اخرى لا تراها ولكن هناك سلسلة أخرى تشد القرداتى الى القرد : فهذا الرجل يعيش فى عالم محدود ، عالم القرود ، ويمشى فى أماكن محدودة . ويعود الى بيته ويجلس الى جوار الحائط ولا ينام الا والقرد الى جواره والا على صوته ، ولو قطع القرد السلسلة وهرب لأحس الرجل أن قلبه هو الذى انقطع .. فأى الاثنين هو القرد ؟ أيهما هو المربوط بالآخر .. من المؤكد أن القرد هو المربوط فى الرجل ، ومن المؤكد أيضا أن هذا الرجل العاقل مربوط من القرد .. وبالقرد ..

فليست الحيوانات هى وحدها المحبوسة فى اقفاص ، وليس الانسان هو الذى يذهب الى الحديقة ليتفرج على القرود .. انها أيضا تتفرج عليه وعلى قيوده التى لا يدرى بها ! ..

فكلما أن هـذا الرجل اسمه (قرداتى) فهذا القرد اسـمه ((انساناتى)) !

وكلنا كذلك !! ..



لولا سلامك.. سبق كلامك !

لسببين يعتدى حيوان على آخر : دفاعا عن الأرض التى يعيش عليهـــا ، أو حرصـــا على السلطة التى يتمتع بها فى القبيلة أى أنه يدافع عن السلطة او عن اللقمة .

وهناك حيوانات تدافع عن الأرض ولا يهمها السلطة .. وحيـــوانات تدافع عن مركزها ولا تهمها الأرض . اما الانســـان فانه يدافع عن الأرض والعرض والسلطة .

وفى جبلاية القرود نجد أن القرد الأقوى هو الذى يسيطر . أما قوته فهى فى عضلاته أو فى حيويته . فاذا كانت حيويته هى مصدر قوته فانه يعتلى كل الأناث وكل الذكور ايضا . ولكنه عندما يأكل يكون سخيا يترك طعامه لغيره من ضعاف الجبلاية !

وكما تطـــور الانسان فى علاقاته الجنسية فأصبحت له انثى واحدة ، تطور ايضا فى ممتلكاته . فكل واحد له شىء يملكه : أرض أو بيت . وقد وصل الانسان الى هذا الوضع منذ كان الأقوياء من الرجال يسافرون بعيـــدا للصـــيد . وكانوا يتركون بيوتهم

واولادهم . ولذلك كان لا بد أن يتفقوا على قاعدة يحترمها القوى والضعيف وخصوصا الضعيف عندما يغيب القوى . واذا كان القانون يحمى الضعيف من القوى ، فكأنه يحمى الأقوياء — وهم اقلية — من الضعفاء وهم الأغلبية الساحقة ..

وعندما يشعر الحيوان برغبة فى العدوان فان تغيرات هائلة تجرى فى داخله . هذه التغيرات هى نوع من التعبئة العامة لكل قوى الحيوان المختزنة ويأخذ هذا الاستعداد شكلين : قوة تدفعه الى الهجوم وقوة أخرى تسحبه وتمسكه . قوة تقول له تقدم . وقوة اخرى تقول : حاسب !

ومن هذا الصراع فى داخله يتقرر موقف الحيوان .

ولكن عندما يتهيأ الحيوان للهجوم يفرز الجسم مادة الاردنالين فى الدم وتنشط الدورة الدموية كلها .

فالقلب يدق بسرعة . وينسحب الدم من الجلد والأحشاء الى العضلات والمخ . ويرتفع ضغط الدم . وتزداد الكريات الحمراء . وتصبح للدم خاصية التجلط بسرعة . ويتوقف الهضم . ويجف اللعاب . ويتوقف نشاط المعدة تماما وحركة الأمعاء . ويصعب على الحيوان أن يتبول . ثم ان الكبد تفرز السكر فى الدم . وينشط الجهاز التنفسى . ويقف الشعر ويتبلل بالعرق . وبسرعة السحر يختفى التعب . ويحشد الجسم كل قدراته من أجل البقاء . والدم يندفع الى الأماكن التى تحتاج اليه . والى المخ لكى يتمكن الحيوان من تقدير الموقف . كما ان سرعة التجلط معناها ان اى جرح سوف يجف بسرعة وبذلك لا يضيع الدم عبثا . ونشاط الرئتين معناه أن الحيوان يسحب كميات كبيرة من الأوكسجين . ووقوف الشعر يعرض الجلد للهواء الذى يقوم بتبريد هذا الجسم الملتهب . ولذلك

لا يكون هناك خوف على الحيوان من درجات الغليان التى يصل اليها !

وكلما ارتقت الحيوانات اصبحت لها عادات وتقاليد أو طقوس فى التهديد . فالحيوان يتقدم ويتأخر ويدور وينحنى . وهذه الحركات تبين كيف استعد الحيوان للمعركة ، وهى فى نفس الوقت تخفف من حدة الحيوان .. وكثيرا ما انتهت هذه الرغبات العدوانية عند هذا الحد !

واذا انسحب الحيوان من المعركة بلا قتال او بقتال ، استعاد جسمه نشاطه العادى .. فريقه يجرى وبوله أيضا !

والتبول عند الحيوان له دلالة خاصة عند الثدييات : فالتبول دليل على أن هذه المنطقة التى يتبول فيها خاصة به . فهو يترك اثره فيها . والكلاب عندما ترفع رجلها عند احد اعمدة النور ، فهذا هو المعنى . واذا كانت الكلاب تفعل ذلك باسراف فى المدن ، فلأن فى المدن عددا كبيرا من الكلاب . وهذا يثيرها ويدفعها الى أن يحدد كل كلب مكانه وارضه ! وقد اكتسب السيد قشطة عادة أخرى : فله ذيل عريض ، وهذا الذيل يتحرك بسرعة يمينا وشمالا ينثر مخلفاته على اوسع نطاق ممكن . وبذلك يحدد الأرض التى تخصه . وبعض الحيوانات لها غدد تفرز رائحة كريهة . هذه الروائح هى انذار لكل الحيوانات الأخرى . هذه ارض تخص حيوانا آخر .. فاحترس !

وقد اتخذ التهديد شكلا صوتيا آخر عند بعض الحيوانات : النباح والعواء والفحيح والزئير .. واحيانا الانتفاخ : عند الطيور فلها أكياس هوائية تجعل حجمها اكبر وشكلها مخيفا !

وهناك اشارات للتفاهم بين الحيوانات : فعندما يقف الشعر يدرك الحيوان الآخر ان هناك خطرا .

ولذلك فالديك له عرف والاسد له معرفة تجعل الراس اكبر . وكذلك العرق عند الحيوانات تكون له رائحة خاصة تؤكد النزعة العدوانية ..

كل هذا يحدث للحيوانات داخليا أما التغيرات الظاهرة فهى ان عضلات الحيوانات تكون فى غاية القوة والمرونة فالحيوان يروح ويجىء ويدور وبعض الحيوانات لها طقوس فى الرقص .

رقصة القتال . أو رقصة الحرب .

فالحيوان يدور حول الحيوان الآخر . وحول نفسه . وهـذا الدوران معناه ان هناك توازنا بين رغبته فى العدوان وبين رغبته فى الامتناع عن ذلك .. وخصوصا عندما يلوى جسمه ويحنى راسه ويدق الأرض بقدميه !

واحيانا نرى نوعا من التراجع أو المراجعة . ولذلك يقـوم الحيوان بحركات غريبة لا علاقة لها بالعدوان كأن الحيوان قـد وضع « غله فى شىء آخر » فيأكل مثلا او يهرش فى جسمه .. أو ينظف فروته او يجمع الأعشاب أو الأخشاب كأنه يبنى عشا وهميا. وبعض الحيوانات تنام فجأة .. أو تتثاءب وتتمدد .

بعض العلماء يقول : ان الحيوان اذا أكل فهو جائع حتما . اذا هرش فان حشرة تلسعه . ومن الطبيعى أن يجوع الحيوان عندما تتبدد طاقته الهائلة فى حالة التعب او العدوان !

ولكن هـذه الحركات التى يأتيها الحيـوان ليست الا محاولة

لتخفيف درجة التوتر . أو ليست الا نوعا من الانسحاب . وقد ينتهى الموقف هكذا . وينصرف كل حيوان الى سبيله .. ولكن اذا فشلت هذه الحركات فى تهدئة الحيوانات كان تكون قطعانا كبيرة . وكأن يكون هناك زحام على الأرض والطعام والسيادة استخدمت الحيوانات أنيابها وأظافرها وقرونها .. وذيلها يكون كالكرباج .

ولكن من النادر أن يقتل الحيوان حيوانا آخر . ومن النادر ان يفعل حيوان ما يفعله مع فريسته . فالأسد اذا التقى بأسد فانه يضربه ويجرحه ولا يقتله ولا يأكله .. اى ان الاسد لا يقتل الأسد كما يفعل بفريسته من الغزلان .. فاذا انتصر الأسد القوى على الأسد الضعيف اكتفى بهذا النصر . وتركه . أما المنهزم فعليه أن يؤكد انه انهزم ! وعليه أن يهرب اذا استطاع .

وهناك لغة للتفاهم بين الحيوانات : من بينها أن ينكمش المهزوم وان ينام على الأرض ويحنى راسه ويغمض عينيه ولا يزار .. واحيانا نجد الحيوان المنهزم يعرض جسمه للحيوان المنتصر . كأن يقدم له احدى يديه .. وقد ينقض الحيوان المنتصر فيعض يد خصمه . أو يضربها . أو يكتفى بهذا الاستسلام .

وبين القرود نجد الشمبانزى يمد يده كأنه يتسول .. وخصوصا الاناث ، والاناث تعطى نفسها لذكر . وفى هذه الحالة يتم الاستسلام والسلام وينحسم الموقف والذكور الضعفاء تفعل ذلك أيضا !

وهذا هو قانون الغابة : الحيوان يهزم الحيوان ولا يقتله . واذا استسلم له تركه . وانتهى الخلاف ..

وكل هذه التغيرات الداخلية تحدث للانسان . مع فارق أن كل

هذه الاضطرابات تبدو على وجهه . وهذه مزايا القرد العريان — اى .. الانسان .

فوجهه يصفر ويحمر .. من الغضب ومن الخجل . أما شعر الانسان فلا يقف .. رغم اننا نستخدم هذا التعبير !

وعند الغضب تنحنى الذراع وتجتمع أصابع اليد على شـكل قبضة وهذا استعداد من بعيد . أو تهـديد من بعيد . وأحيانا نضرب المنضدة أو الحائط او نضرب رءوسنا . ولكن ما نزال على مسافة من الخصم .

وكثيرا ما نوجه هذا الغضب الى الشخص الذى جاء يخلصنا . ولذلك نقول : ما ينوب المخلص الا تقطيع هدومه .. والسيدة التى تكسر الأطباق فى حالة غضب مع زوجها ، لم تقصد تحطيم هذه الآنية وانما هى تقصد أن تحطم راس زوجها ! وهذا بالضبط ما تفعله القرود فهى فى حـالة الغضب تحطم الأغصـان والثمار وجدران القفص !

والسلام باليد هو نوع من الاستسلام . فالذى كان فى نيته أن يضرب بيده يجـدها مفرودة . واصابعه متراخية . وهى عملية تحويل الغضب الى تهدئة .. وهدوء . وكذلك « الطبطبة » على الكتف تهدئة أيضا . وخلع البرنيطة عند السلام تشبه الديك عندما يخفض « عرفه » والأسد عندما يخفض شـعر راسه .. وخلع البرنيطة مع انحناء الرأس يجعل جسم الانسان اقل طولا ، واقل صلابة .. على خلاف ما يحدث عند العدوان او القتل . وعنـد العدوان نبحلق فى الخصم . فاذا أغمضنا العين او نظرنا الى الأرض كنا بذلك نهدىء انفسنا أو نعلن ان الحالة لم تعد فى حاجة الى الحـذر والترقب . ونحن فى حديثنا العادى لا ننظر الى الذين

نتحدث اليهم طوال الوقت ، وانما فقط فى نهاية كل جملة لنعرف وقع الكلام ..

وكذلك وضع النظارة السوداء على العينين يجعلنا نبدو متربصين أو عدوانيين . ولذلك فالذى ينظر الينا من وراء منظار يجعلنا نشعر بأنه ليس وديا .. فالنظارة عبارة عن عينين مفتوحتين بلا أجفان ولا رموش !

وقد اكتسبت بعض الحشرات مثل هذه النظارات .. او مثل هذه العيون نجد ان العيون مرسومة على اجنحة الحشرات . فاذا احست خطرا نشرت أجنحتها فظهرت هذه العيون لامعة باهرة رهيبة تخيف اعداءها !

وبعض الأسماك لها أيضا هذه العيون وكذلك الطيور . ونحن نستخدم الأقنعة ذات العيون . وبعض شركات السيارات تجعل المصابيح الأمامية ذات أشكال مخيفة . وهذا ضرورى فى الزحام فى المدن .

بل ان الشركات لم تكتف بهذه « العيون المخيفة » وانما جعلت للسيارات أسماء مخيفة أيضا !

ولذلك فالسلام باليد هو اعلان وقف اطلاق النار من العينين وتجيء القبلات بعد السلام .. كما نفعل مع رجال الدين أو الآباء ، أما تقبيل يد السيدات فله معنى آخر : فالرغبة العدوانية الجنسية قد تحولت الى مجرد لمس اليد باليد وبالشفتين — اى الحد الأدنى من تحقيق رغباتنا الخفية !

ومن الغريب ان الأحاديث بين الرجل والمرأة تتخذ شكلا « طفوليا » .. فيتحول الرجل الى طفل .. أو يقول كلاما مثل كلام الأطفال فيكون ضعيفا بطيئا مثيرا للشفقة . اى انه يحول

نزعاته العدوانية الى نزعات استسلامية أو سلامية .. ويتحول الرجل والمرأة الى أسلوب الحمام . فيشرب الواحد من كوب الآخر .. أو يمسك الواحد بمنقار الآخر : وهذا نوع من التقبيل !

والمثل الذى يقول : لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عظامك مثل سليم وصحيح .

اما « الطبطبة » فلها معنى آخر : نحن نجد عند القرود أن القرد الذى انهزم أو استسلم يقترب من القرد الآخر « ويفليه » .. وهذه « التفلية » تهدىء أعصابه . وكذلك الطبطبة هى نوع من الاقتراب البرىء .. وقبول لهذا الاقتراب . فلا خوف ولا عدوان !

وفى مواجهة العــدوان أو الغضب نقوم نحن بأعمال اخرى لا علاقة لها مطلقا بالعدوان . مثلا نشــعل سيجارة . أو نمسح النظارة . أو نلعب فى شواربنا أو ننظر الى الســاعة أو نحرك عقاربها . أو نرتب الأوراق التى أمامنا أو ننظر من النافذة . أو نطلب أى رقم فى التليفون . أو نقضم أظافرنا بأسناننا او نطقطق أصابعنا ..

ونحن قادرون على الكذب بملامحنا ولكن لا نقدر على الكذب بانفعالاتنا أو بهذا النشاط الفسيولوجى فى داخل الجسم . وهناك اناس كذابون محترفون : الممثلون.فهم قادرون على الكذب بالملامح وعلى توجيه نشاط الجسم وجهة اخرى لا نقدر نحن عليها فى ظروفنا العادية .

والانسان لأنه يحرص على أن تكون له ارض خاصة وبيت خاص وزوجة خاصة . وان يكون خاصا فى كل مكان يشغله ، نجده يضع صورة اولاده على مكتبه أو صورة زوجته . وكذلك يحرص على ان يضع فى سيارته نوعا من العرائس أو الزينات لكى يجعل سيارته مختلفة عن السيارات الأخرى .. ملايين السيارات الأخرى التى

تشبهها . وكذلك السائق الذى يضع عبارات على سيارته من الخلف ومن الجوانب . انه يريد أن يجعلها مختلفة عن السيارات الأخرى .. واذا سألته لماذا ؟ قال لك : انها هكذا الطف واجمل .

ولكن هذا الجواب ليس صحيحا . وانما الصحيح انه يريد ان يجعلها مختلفة . يريد أن يجعلها خاصة به هو .. ومن الضرورى أن نتذكر هنا ما تفعله الكلاب على اعمدة النور . نفس الموقف وان كان الأسلوب مختلفا فكلاهما ـ كلانا نحن والكلاب ـ يريد ان يؤكد انه هنا .. وان هذا المكان خاص به وحده . وانه مضطر أن يفعل ذلك فى مواجهة الزحام الشديد بين الناس والكلاب !

وهناك تصرفات يومية بسيطة ولكن معناها أبعد مما نتصور .. مثلا عندما نكسر اشارة المرور . ويدركنا عسكرى المرور . فما الذى نفعله ؟ الأفضل أن تتحدث الى عسكرى المرور وانت فى سيارتك . اى فى مكانك . فى أرضك . فى بيتك . هذا يعطيك شيئا من الطمأنينة . وفى هذه الحالة يحسن ان تجعل اسلوبك متوسطا لطيفا . سوف يجىء العسكرى اليك .. اى الى حدود مملكتك .. وهو مضطر أن يحول هذا الاقتراب العدوانى الى اقتراب ودى . وبذلك تكون انت وديا وهو أيضا . ولذلك يمكن تسوية الموقف لصالحك . ولكن اذا نزلت من سيارتك ، اى تركت أرضك . وذهبت الى ارضه . فالموقف فى يده . وهو سيده .. والنتيجة ضدك عادة !

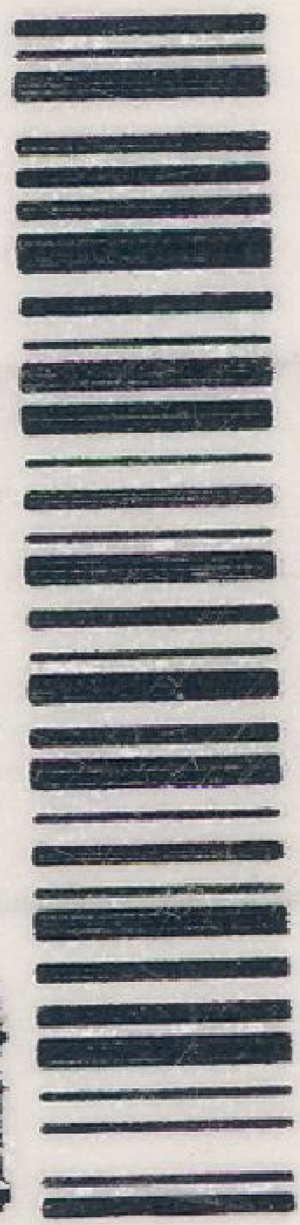
وقد تطورت وسائل الاقتراب من أرض أعدائنا .. ومن أعدائنا فكان لا بد أن يقترب الانسان من عدوه جدا ليشتبك معه ثم اخترع السهام والنبال ، فاصبح فى الامكان قتله عن بعد .. والآن تحولت ا سهام الى صواريخ وقنابل وفى هذه الحالة نحن لانصيب العدو وانما نقتله .. اما الحيوانات فهى تهزم عدوها فقط ..

رقم الإيداع ٧٨/٤٩٥٨

الترقيم الدولى ٩ ـ ٢٩ ـ ٧٠٥٩ ـ ٩٧٧ ISBN

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى هاتف ٥١٢١٤ برقيا شروق القاهرة
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ برقيا داشروق




06466648
-6
ar